طبعــة جديـدة

الآن في الأسـواق

الإبْداع

في معاني خُطبَةِ الوَداع

المَعـاني الكَثيـرَة الرّاقِيــة
في المَبـاني القَليـلَةِ الرّائِعـة

ويليـه

القـلائـد

فيما أُجمع عليه من العقائد

للشـيخ جميل بن محمد علي حليم
دكتـور محاضـر في العقـائد والفـرق

شركة دار المشاريع

+961 1 304311 - 304524
dar.nashr@gmail.com
DMCPublisher
www.dmcpublisher.com

الإبداع

في مَعاني خُطبةِ الوَداعِ

المَعاني الكثيرةِ الرَّاقيةِ
فِي المَبانِي القَليلةِ الرَّائعةِ

شَرْح وَتَحْقيق وَتَعْليق
الشيخ جميل محمّد عَلي حليم الأشْعَريّ الشّافعيّ الحسيني
دكتور محاضر في العقائد والفِرَق

شركة دار المشاريع

الطبعة الثانية
١٤٤٥ هـ ـ ٢٠٢٤ ر

شركة دار المشاريع

بيروت ـ لبنان

العنوان: المزرعة، بربور، شارع ابن خلدون، بناية الإخلاص
تلفون وفاكس: ٣١١ ٣٠٤(١ ٩٦١)٠٠
صندوق بريد: ٥٢٨٣ ـ ١٤ بيروت ـ لبنان

شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

email: dar.nashr@gmail.com
www.dmcpublisher.com

المقدمة

الحمد لله الذي خلع على أوليائه خِلع إنعامه فهم على ذلك له حامدون، واختصهم بمحبته وأقامهم على خدمة دينه فهم في نعمة طاعاته يتقلبون ودعاهم إلى طاعته وأظهر فيها مراتبهم فالسابقون السابقون أولئك هم المقربون وفتح لهم أبواب ءالائه فهم بها يتفكرون، ونوَّر قلوبهم فهم بأنواره يتلذذون وبأذكاره يتنعمون وبشريعته يتأدبون ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (سورة يونس) ونوَّر بصائرهم بفضله وطهَّر أسرارهم فهم لأسراره كاتمون وأطلعهم على بعض الغيب المكنون. فسبحان من قرّب أقوامًا وأقامهم على باب طاعته فهم عنه لا يبرحون فسبحان من جعلهم نجومًا في سماء الولاية وجعل أهل الأرض بهم يهتدون، والمنكرون عليهم في غيِّهم يعمهون فالأولياء في جنة الفردوس متنعمون والمنكرون لهم وعليهم في نار الطرد والبعد معذبون فربنا لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون.

فسبحان الذي أبكى عيون الخائفين خوف الوعيد، فجرت دموعهم كالعيون وأجرى سحب المدامع من عيون أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع فهم من خوف القطيعة يرتجفون جعلوا التقوى لهم أفخر لباس فأطار الخوف نومهم فهم عن لذائذ الدنيا يعرضون قلوبهم لله خاشعة على باب الذل هم ثابتون وعلى ربهم يتوكلون فسبحان من تفضل عليهم بثوب الولاية التي هم فيها راسخون.

وأشهد أن لا إلهَ إلا اللَّه وحده لا شريك له شهادة شهد بها الموقنون وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا ﷺ عبده ورسوله صاحب النور والسرّ المصون اللَّهم صَلِّ عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى سائر الأولياء والآل والصحب الطيبين والصالحين كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون.

التوطئة

الميزان في بيان عقيدة أهل الإيمان

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى اللَّه وسلَّم وشرَّف وكرَّم على سيِّدنا محمَّد، الحبيبِ المحبوبِ، العظيمِ الجاهِ، العالي القَدرِ طه الأمينِ، وإمامِ المرسلينَ وقائدِ الغُرِّ المحَجَّلِينَ، وعلى ذُرِّيَّته وأهلِ بَيتِه المَيامِين المكرَّمين، وعلى زوجاتِه أمَّهات المؤمنِين البارّاتِ التَّقِيَّات النَّقِيَّات الطاهراتِ الصَّفِيَّات، وصحابَتِه الطيِّبِين الطَّاهرِين، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يَومِ الدِّين.

أما بعدُ، فهذه عقيدةُ كلّ الأمّة الإسلاميةِ سلَفًا وخلفًا، وهي المرجع الذي تُعْرض عليه عقائدُ الناس، فمن خالفها أو كذبها لا يكونُ من المسلمينَ، وهي ميزان الحقِّ الذي يَكْشِفُ زيْفَ الباطلِ وزيغَهُ، فكان لا بُدَّ من هذا البيان المهمِّ لخصوصِ الغَرضِ وعمومِ النَّفْعِ؛ وعليه:

اعلم أرشدَنا اللَّهُ وإياكَ أنهُ يجبُ على كلِّ مكلفٍ أن يعلمَ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ واحدٌ في ملكِهِ، خلقَ العالمَ بأسرِهِ العلويَّ والسفليَّ والعرشَ والكرسيَّ، والسمٰواتِ والأرضَ وما فيهمَا وما بينهُمَا. جميعُ الخلائِقِ مقهورونَ بقدرتِهِ، لا تتحرَكُ ذرةٌ إلا بإذنِهِ، ليس معهُ مُدَبّرٌ في الخلقِ ولا شريكٌ في الملكِ، حي قيومٌ لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، عالمُ الغيبِ والشهادةِ لا يخفى عليه شيء في الأرضِ ولا في السماءِ، يعلمُ ما في البرّ والبحرِ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمُهَا، ولا حبةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ.

أحاطَ بكلِ شيء علمًا وأحصَى كلّ شيءٍ عددًا، فعالٌ لما يريدُ، قادرٌ على ما يشاءُ، له الملكُ وله الغِنى، وله العِزُّ والبقاءُ، وله الحكمُ والقضاءُ، وله الأسماءُ الحسنى، لا دافعَ لما قضَى، ولا مانعَ لما أعطَى، يَفْعَلُ في ملكِهِ ما يريدُ، ويَحْكُمُ في خَلْقِهِ بما يشاءُ، لا يَرجُو ثوابًا ولا يخافُ عقابًا، ليس عليهِ حقٌّ يلزَمُهُ ولا عليهِ حُكْمٌ، وكلُّ نِعْمةٍ

منْهُ فَضْلٌ وكل نِقْمةٍ منه عَدْلٌ، لا يُسألُ عمّا يَفْعَلُ وهم يُسْألونَ. مَوجودٌ قبلَ الخَلْقِ، ليسَ لهُ قبلٌ ولا بعدٌ، ولا فوقٌ ولا تحتٌ، ولا يمينٌ ولا شمالٌ، ولا أمامٌ ولا خلفٌ، ولا كلٌّ ولا بعضٌ، ولا يقالُ متَى كانَ ولا أينَ كانَ ولا كيفَ، كانَ ولا مكانَ، كوَّنَ الأكوانَ، ودبَّرَ الزمانَ، لا يتقَيَّدُ بالزمانِ، ولا يتخصَّصُ بالمكانِ، ولا يشغَلُهُ شأْنٌ عن شأْنٍ، ولا يلحقُهُ وهمٌ ولا يكتنِفُهُ عقلٌ، ولا يتخصَّصُ بالذّهنِ، ولا يتمثَّلُ في النفسِ، ولا يُتَصَورُ في الوهمِ، ولا يتكيفُ في العقلِ، لا تَلْحَقُهُ الأوهامُ والأفكارُ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

تنزَّه ربّي عن الجلوسِ والقعودِ والاستقرارِ والمحاذاةِ، الرّحمٰنُ على العرشِ استوى استواءً منزهًا عن المماسةِ والاعوجاجِ، خلقَ العرشَ إظهارًا لقدرتِهِ ولم يتَّخِذه مكانًا لذاتِهِ، ومن اعتقدَ أنَّ اللَّهَ جالسٌ على العرشِ فهو كافرٌ، الرّحمٰنُ على العرشِ استوى كما أخبرَ لا كما يخطرُ للبشرِ، فهو قاهرٌ للعرشِ مُتَصرِّفٌ فيه كيف يشاءُ، تنزَّهَ وتقدَّسَ ربّي عن الحركةِ والسكونِ، وعن الاتصالِ والانفصالِ والقُربِ والبُعدِ بالحِسِّ والمسافةِ، وعن التَّحوُّلِ والزّوالِ والانتقالِ، جلَّ ربّي لا تُحيطُ به الأَوهامُ ولا الظُّنونُ ولا الأفهامُ، لا فِكرةَ في الرَّبِّ، خلق الخلق بقُدرته، وأحكمَهم بعِلْمه، وخَصَّهم بمشيئته، ودَبَّرَهم بحِكمَته، لم يكن له في خَلْقِهم مُعِين، ولا في تَدبيرهم مُشِير ولا ظَهِير.

لا يلزمه (لِمَ)، ولا يُجاورُه (أين)، ولا يُلاصِقُه (حَيث)، ولا يَحُلُّه (ما)، ولا يَعُدُّه (كَم)، ولا يَحصُره (متَى)، ولا يُحِيطُ به (كَيف)، ولا يَنالُه (أيٌّ)، ولا يُظِلُّه (فَوق) ولا يُقِلُّه (تَحت)، ولا يُقابِلُه (حَدّ)، ولا يُزاحِمُه (عِند)، ولا يأخُذه (خَلْف)، ولا يَحُدُّه (أمام)، ولم يَتقدَّمُه (قَبْل)، ولم يَفُتْه (بَعد)، ولم يَجْمَعْه (كُلّ)، ولم يُوجِدْه (كان)، ولم يَفْقِدْه (لَيس).

لا إلٰه إلا هو، تقدَّسَ عن كلّ صفاتِ المخلوقينَ وسِمَاتِ المحدَثينَ، لا يَمَسُّ ولا يُمَسُّ ولا يُحَسُّ ولا يُجَسُّ، لا يُعرَفُ بالحواسّ ولا يُقاسُ بالناس، نُوَحِّدُه ولا نُبَعِّضُه، ليس جسمًا ولا يتَّصِفُ بصفاتِ الأجسام، فالمجسِّم كافر بالإجماع وإن

قال: «اللَّه جسمٌ لا كالأجسام» وإن صام وصلى صورةً، فاللَّه ليس شبحًا، وليس شخصًا، وليس جوهرًا، وليس عَرَضًا، لا تَحُلُّ فيه الأعراضُ، ليس مؤلَّفًا ولا مُرَكَّبًا، ليس بذي أبعاضٍ ولا أجزاءٍ، ليس ضوءًا وليس ظلامًا، ليس ماءً وليس غَيمًا وليس هواءً وليس نارًا، وليس روحًا ولا له روحٌ، لا اجتماعَ له ولا افتراقَ.

لا تجري عليه الآفاتُ ولا تأخذُه السِّنَاتُ، منزّهٌ عن الطُّولِ والعَرْضِ والعُمْقِ والسَّمْكِ والتركيبِ والتأليفِ والألوانِ، لا يَحُلُّ فيه شيء، ولا يَنْحَلُّ منه شيء، ولا يَحُلُّ هو في شيء، لأنه ليس كمثله شيء، فمَن زعَم أنّ اللَّه في شيء أو مِن شيء أو على شيء فقد أشْرَك، إذ لو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان مِن شيء لكان مُحدَثًا أي مخلوقًا، ولو كان على شيء لكان محمولًا، وهو معكم بعِلمِه أينما كنتم لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم بكم منكم، وليس كالهواء مخالطًا لكم.

وكلَّم اللَّه موسى تكليمًا، وكلامُه كلامٌ واحدٌ لا يتبعض ولا يتعدد ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً، ليس مُبتَدَأً ولا مُختَتَمًا، ولا يتخلله انقطاع، أزليٌّ أبديٌّ ليس ككلام المخلوقين، فهو ليس بفم ولا لسان ولا شفاه ولا مخارج حروف ولا انسلال هواء ولا اصطكاك أجرام. كلامُه صفةٌ من صفاتِه، وصفاتُه أزليةٌ أبديةٌ كذاتِه، وصفاته لا تتغيَّر لأنَّ التغيُّرَ أكبرُ علاماتِ الحدوثِ، وحدوثُ الصفةِ يستلزمُ حدوثَ الذاتِ، واللَّه منزَّهٌ عن كل ذلك، مهما تصورت ببالك فاللَّه لا يشبه ذلك، فصونوا عقائدَكم من التَّمَسُّكِ بظاهِرِ ما تشابَه من الكتابِ والسنَّةِ فإنَّ ذلك من أصولِ الكفر،﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾، ومن زعم أن إلٰهنا محدودٌ فقد جَهِلَ الخالقَ المعبودَ، فاللَّه تعالى ليس بقدر العرش ولا أوسع منه ولا أصغر، ولا تصِحُّ العبادة إلا بعد معرفة المعبود، وتعالى ربّنا عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات، ومن وصف اللَّه بمعنى من معاني البشر فقد خرج من الإسلام وكفَر.

﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ

كُلِّ شَيْءٍ ﴾، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ ما شاء اللَّه كان وما لم يشأْ لم يكن، وكلّ ما دخل في الوجود من أجسامٍ وأجرامٍ وأعمالٍ وحركاتٍ وسكناتٍ ونوايا وخواطر وحياة وموت وصحة ومَرَض ولذّة وألم وفَرَح وحزن وانزعاج وانبساط وحرارة وبُرودة ولُيونة وخشونة وحلاوة ومرارة وإيمانٍ وكفر وطاعة ومعصية وفوز وخسران وتوفيق وخذلان وتحركات وسكنات الإنس والجن والملائكة والبهائم وقطرات المياه والبحار والأنهار والآبار وأوراق الشجر وحبات الرمال والحصى في السهول والجبال والقفار فهو بخلق اللَّه، بتقديره وعلمه الأزلي، فالإنس والجن والملائكة والبهائم لا يخلقون شيئًا من أعمالهم، وهم وأعمالهم خَلْق لله، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾، ومن كذَّبَ بالقدر فقد كفر.

ونشهد أن سَيِّدَنا ونبيَّنا وعظيمنا وقائدَنا وقُرَّة أعينِنا وغوثنا ووسيلتنا ومعلمنا وهادينا ومرشدنا وشفيعنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وصفيُّه وحبيبُه وخليلُه، مَن أرسَلَه اللَّهُ رحمةً للعالمين، جاءنا بدين الإسلام ككُلِّ الأنبياء والمرسلين، هاديًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى اللَّه بإذنه قمرًا وهَّاجًا وسِراجًا مُنيرًا، فبلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في اللَّه حقّ جهاده حتى أتاه اليقين، فعَلَّمَ وأرشدَ ونصحَ وهدى إلى طريق الحقِّ والجنَّة، ﷺ وعلى كلِّ رسولٍ أرسَلَه، ورضي اللَّه عن ساداتنا وأئمتنا وقدوتنا وملاذنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر العشرة المبشرين بالجنة الأتقياء البررة وعن أمهات المؤمنين زوجات النبي الطاهرات النقيات المبرَّآت، وعن أهل البيت الأصفياء الأجلاء وعن سائر الأولياء وعباد اللَّه الصالحين.

ولله الحمدُ والفَضلُ والمِنَّةُ أنْ هدانا لهذا الحقّ الّذي عليه الأشاعرة والماتريدية وكلُّ الأمّة الإسلامية، والحمدُ لله ربّ العالمين.

نُبْذَة تعريفيَّة
بالشّيخ الدُّكتور جَمِيل حَلِيم

بقلم النّاشِر

هو السيّد الشريف رئيس جمعية المشايخ الصوفية الشيخ الدكتور عماد الدين أبو الفضل جميل بن محمد علي حليم، الحسينيُّ الأشعري الشافعي الرفاعي القادريّ.

تلقَّى العلوم والطرق عند علَّامة العصر وقدوة المحققين الحافظ الشيخ عبد الله بن محمد الهرري الشيبي العبدري ولزمه وصحبه واستفاد منه زمانًا طويلًا وكان يعيد دروسه وإملاءاته في كثير من مجالسه العامة والخاصة بطلبٍ منه رضي الله عنه، وقرأ وسمع وحضر في علومٍ شتّى على كثيرٍ من العلماء والفقهاء والمحدّثين من مشاهير البلاد كمكة والمدينة وجدة ولبنان وسوريا والعراق ومصر وأندنوسيا وتركيا والمغرب واليمن والحبشة وغيرها، وأجازه كثيرٌ من العلماءِ والمحدِّثين والمشايخ في مختلف البلاد إجازةً عامةً مطلقةً وخاصَّة بكل ما تجوز لهم روايته وفي الطرق والإرشاد والتسليك وإقامة الختم والحضرة وتلقِين الأوراد.

وقد حاز الشيخ جميل على شهادتي دكتوراه، الأولى من الجامعة العالمية في لبنان تحت عنوان «السُّقوط الكبير المُدَوّي للمُجَسِّم ابن تَيمِيةَ الحرَّاني» بتقديرٍ ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، والأخرى من جامعة مولاي إسماعيل بالمغرب تحت عنوان «التأويل في علم الكلام وضوابطه عند أهل السنة والجماعة» وذلك بتقدير مشَرّف جدًّا.

وقد أولَى الشيخ جميل اهتمامه العلم والمطالعة وتأليفِ الكتب وتحقيق مصنَّفات العلماء في مكتبته «المكتبة الأشعرية العبدرية» في بيروت وقد حَوَت ءالاف الكتب المطبوعة والمخطوطة النادرة في علوم وفنون شتى بالإضافة إلى نشاطاته الواسعة وممارسته الخطابة في المساجد وإلقاء المحاضرات والمشاركة في

المؤتمرات في لبنان والخارج والمحاضرات في بعض الجامعات ومشاركة الناس في أفراحهم وأتراحهم، واستقباله المشايخ وطلبة العلم وعموم الناس. ولم ينكفئ عن خدمة الناس ومخالطتهم لنشر الدين والدعوة والعلم. وقد بلغت مؤلفاته ومصنَّفاته وتحقيقاته لبعض الكتب فوق المائتي كتابٍ إلى الآن.

وقد قرأ وسمع على العلماء والمشايخ وحصَّل تلقّيًا أكثر من ثلاثمائة كتاب في كل الفنون والعلوم ولله الفضل والحمد والمِنّة ولا زال إلى اليوم بعونٍ من الله وتوفيقٍ وتسديدٍ قائمًا على الخطابة في المساجد والتدريس وإلقاء محاضرات في المساجد والجامعات والمعاهد وفي مناسبات الناس العامة كالجنائز والتعازي والأعراس جوَّالًا على المحافظات والبلاد بذلك، كما وأنه شارك وحضر في كثيرٍ من المؤتمرات والمهرجانات والاحتفالات في كثيرٍ من الدول والبلاد بطلب ودعوة من أهلها، وله العديد من المقابلات واللقاءات في عدد من وسائل الإعلام كالتلفزيون والإذاعة والمجلَّات والصحف، وهو دكتور أستاذ محاضر في الجامعة العالمية في لبنان، كما وأنه يعقد مجالس الإقراء والإسماع في الأحاديث المسلسلة وكتب الحديث الشريف كالكتب السبعة وغيرها من أمَّهات الكتب من العقائد والأحكام والفقه والتَّصوف وهو أوَّل من أقْرَأَ صحيحي البخاري ومسلم في لبنان من تلاميذ الحافظ الهرري، وقد أقْرَأَ إلى الآن العشرات من الكتب والمؤلَّفات الّتي حضر فيها الجمّ الغفير من المشايخ والدُّعاة والأساتذة والدَّكاترة ومعلِّمي ومعلماتِ المعاهد والمدارس وخطباء المساجد وطلَّاب الكليَّات والمعاهد الشرعيَّة، وبعض هذه المجالس تبث مباشرة على مواقع التواصل وصفحات الفايسبوك وبعض هذه المجالس والمحاضرات شاهدَها قريبٌ مِن ثلاثةِ ملايين مشاهِد.

كما وقد راسَله وهاتفه وكاتبه وشافهه عدد كبير من المشايخ والدكاترة والدّعاة والأساتذة والفقهاء والمحدثين لطلب وأخذ الإجازة منه، وإجازاته من كل بقاع الدنيا قاربت الألف إجازة بعضها مذكور ومفصَّلٌ في ثبته الموسوم بـ«جمع اليواقيت الغوالي من أسانيد الشيخ جميل حليم العوالي»، وقد طبع مرات ومعظم إجازاته

وأكثرها التي جاءت بالمئات في ثبته الكبير المسمَّى بـ«المجد والمعالي من أسانيد الشيخ جميل حليم الغوالي».

هذا وقد خصَّهُ بعض العلماء وأحفاد رسول الله ﷺ من الأُسَر الشريفة المشهورة وأصحاب الطرق من بلادٍ عدة بآثارٍ من آثار رسول الله محمَّد ﷺ، فحفظها في «الخزينة الحليمية». وفي كل عام يتبرك عشرات الآلاف من المسلمين في مختلف البلاد ببعض هذه الآثار الزكيّة المباركة العطرة، وقد حصل بذلك خيرٌ عظيم جسيمٌ كبير من دخول بعض النَّاس في الإسلام وظهرت حالات شفائيَّة سريعة وظاهرة جدًا حتى جُمع بعضُها في كتابٍ طبع مرات وهو «أسرار الآثار النبويَّة أدِلّة شرعِيّة وحالات شِفائيّة» ولله الحمد والفضل والثناء والمنة والشكر الجزيل على ما أسدَى من الفضل العميم وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمَّد وعلى كل النبيّين والمرسَلين وءالِ كلٍّ وصَحب كلٍّ وسائر عباد الله الصالحين[1].

بيروت، الخميس ٢٩ المحرَّم ١٤٤٢هـ

الموافِق ١٧ أيلول ٢٠٢٠ر

(١) للتواصل مع المؤلف راجع ما يلي: ٩٦١٣٠٠٦٠٧٨+ / ٩٦١٣٦٧٣٩٤٦+

info@sheikhjamilhalim.com :

sheikhjamilhalim@gmail.com

دِيبَاجة في مَعنَى الإِبدَاعِ

اعلَم رَحِمكَ اللَّهُ أنّ «أبدَعَ» تأتي في لغة العرب لِغَير معنى الإبراز من العدم إلى الوجود الذي منه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة البقرة] أي مخترعهما ومبدعهما لا على مثال سبق وكل من فعل ما لم يسبق إليه يقال له أبدعت ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة في العقيدة مبتدع لأنه يأتي في دين الإسلام بما لم يسبقه إليه الصحابة والتابعون رضى اللَّه عنهم، ولكلمة أبدع معان عدة تقول العرب: «أبدع الرجل إذا ابتدع»، أي أتى ببدعة، و«أبدع يمينًا» أي أوجبها، و«أبدع القوم بفلان» أي ضربوه، و«أبدع بالحج وبالسفر» إذا عزم عليه» و«أبدع الشاعر» إذا أتى بالبديع من القول المخترع على غير مثال سابق و«أبدعت الراحلة» إذا كلَّت وتعبت أو عطِبتْ أو بركت في الطريق بسبب داءٍ أو ضعف اعتراها، وعن ابن فارس «أبدعت الشيء قولًا وفعلًا» إذا ابتدأته لا عن مثال سابق.

ومن هنا يصح أن يطلق لفظ مُبْدِع على الشخص الذي جاء في عمله أو قوله بشيء جديد غير مألوف مع لحظ المهارة والبراعة فيه. تقول أبدع يبدع إبداعًا، فهو مبدع وهذا أمر مُبْدَعٌ ويقال أمر بديع ففعيل هنا بمعنى مفعل ، والبدعة في الدين مأخوذة من هذا وهو قول ما لم يعرف قبله ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف] أي بديعًا مثل نصف ونصيف، وجمع البدع أبداع، لست بأول مرسل، قد بعث قبلي كثير من الأنبياء، فكيف تنكرون نبوتي. وقد لقب أحد كبار اللغويين وهو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني «بديع الزمان»وهو أحد البلغاء أصحاب فن المقامات الأدبية وكان تلميذ ابن الفارس اللغوي.

المقدّمة

الحمد للّه الواحد القهّار، العزيز الغفّار، مقدّر الأقدار، مصرّف الأمور مُكوّر الليل على النهار، تبصرةَ لأُولي القلوب والأبصار، الذي أيقظ من خلقه من اصطفاه فأدخله في جملة الأخيار، ووفّق من اجتباه من عبيده فجعلَه من المقرَّبين الأبرار، وبصَّرَ من أحبَّه فزهَّدهم في هذه الدار، فاجتهدوا في مرضاته والتأهُّب لدار القرار، واجتناب ما يُسخطه والحذر من عذاب النار، وأخذوا أنفسهم بالجدِّ في طاعته، وملازمة ذكره بالعشيّ والإبكار، وعند تغاير الأحوال وجميع آناء الليل والنهار، فاستنارت قلوبُهم بلوامع الأنوار.

أحمده أبلغَ الحمد على جميع نعمه، وأسألُه المزيد من فضله وكرمه؛ وأشْهَدُ أنْ لا إِلهَ إلا اللّه العظيم، الواحد الصمد العزيز الحكيم، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، وصفيُّه وحبيبه وخليله، أفضلُ المخلوقين، وأكرمُ السابقين واللاحقين، وصلوات اللّه وسلامه عليه وعلى سائر النبيّينَ والمرسلين، وآل كلٍّ وسائر الصالحين.

أما بعد؛ فهذه رسالة مختصرة في شرح خطبة الوداع التي ألقاها عليه أفضل الصلاة والسلام في عرفات في وسط أيام التشريق يوم الجمعة كلمات جامعات موجزات في الوعظ والتذكرة والتزهد والتبصرة وذكر الأحكام وهي خطبة توحيديَّة حارَّة رنَّانة فيها ما فيها فيا معاشرَ المسلمين، إنّ الأمّة اليومَ في حاجةٍ عظيمة للمبادئ التي تعالج واقعَها وللأصول التي تحلّ مشكلاتها وللقيَم التي ترسم لها الخطّة الناجحةَ لمحاربة التحدّيات التي تواجهها والمخاطر التي تحيط بها.

ومِن هذا المنطلَق فإنّ ضرورةَ المسلمين اليومَ كبيرةٌ في مثل هذه المناسبة للمراجعة الجادّةِ والتبصُّر الصادق في وثيقةٍ تاريخية عظيمة، صدرت من رجلٍ عظيم في يومٍ عظيم. إنها خطبةُ الوداع التي تعرِض للأمة أعلى القيَم، وتمدّها بمقوّمات الخير والصّلاح لبناء الحاضِر والمستقبل، وتعطيها أُسُسَ الفلاح ومبادئَ النّجاح.

إخوةَ الإسلام، خطبةُ الوداع جاءت تذكِّر الأمّة في كلِّ حين بأسباب الحياةِ المثلى، وتبصِّرها بسُبل الوقاية من الشرور والفتَن، وهو تحقيقُ منهج الإسلام في هذه الحياة عقيدةً وشريعة، حُكمًا وتحاكمًا، عملًا وسُلوكًا. فقد تعددت التبليغات والمطالب التي بلغنا إياها الحبيب المصطفى.

أولًا: العقيدة الإسلامية التي تتضمن معنى الشهادتين ونفي الشريك لله.

ثانيًا: الوصية بالتقوى.

ثالثًا: حق حفظ الدماء والأموال والأعراض فجاء خطابًا كالسّيف ضدّ كلِّ تهمةٍ تُوجَّه للإسلام بأنه دينُ إرهابٍ وإرعاب، فأين المنصفون؟! وأين المتبصِّرون؟! ففيه العقوبات في الإسلام وفيه رد الأمانات والحقوق: وفيه تحريم الربا. فمعاملات الإسلام والأحكام هي سياسةٌ نبويّة لصيانة الاقتصاد من الهلاك والدمار، ولحماية المجتمعات من الشرور والأضرار لا على ما كان عليه الجاهلية، فمثلًا تَحريم الربا بمختلف صُوَره ومهما كان نوعُه وقدره يحمي الأمة من كثير من المفاسد، فتلتمس البركة في الأموال والشرع أَولى بأن يتبع فمن حاد عنه حاد عن طريق الحق ومن مشى فيه ظفر برضا المولى عز وجل.

رابعًا: حق المسلم في عدم التلاعب بالأيام والشهور فيفسد عبادته وفيه حرمة يوم عرفة، وأشهر الحج، والبلد الحرام مكة المكرمة، وعظيم علو منزلتها عند اللَّه عز وجل والثواب الجزيل للعبادة فيها.

خامسًا: حق الزوج والزوجة وصيانة المرأة والحرص على كرامتها .

سادسًا: حق المؤمن على المؤمن وذم العصبية والعنصرية وليعلم أن التفاضل عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى إنما يكون بِالتَّقْوَى لَا بِالْأَحْسَابِ ولا بالألوان.

سابعًا: الوصية بالتمسك بالكتاب والسنة: وصيّة الالتزام بالتمسك بالوحيين والاعتصام بالهديين، قال ﷺ في خطبة الوداع: «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا**

بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ[1]» رواه مسلم.

وقال ﷺ «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**[2]» صحيح رواه الحاكم.

ثامنًا: إفادة أن الرب واحد.

تاسعًا: إفادة أن أبا البشر واحد وهو آدم عليه أفضل الصلاة والسلام.

عاشرًا: تبيان لأهمية التقوى .

الحادي عشر: حق الإرث.

الثاني عشر: حق النسب.

(١) **صحيح مسلم**، مسلم، (٢/ ٨٩٠).

(٢) **المستدرك**، الحاكم، (١/ ١٧٢).

ذِكرُ بَعضِ خُطَبِه ﷺ

الخطبة الأولى

روى ابن ماجه في سننه حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ السَّكَيْنِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو هَمَّامٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا مُصْعَبُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، أَوْ كَشَفَ سِتْرًا، فَإِذَا النَّاسُ يُصَلُّونَ وَرَاءَ أَبِي بَكْرٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَا رَأَى مِنْ حُسْنِ حَالِهِمْ، وَرَجَاءَ أَنْ يَخْلُفَهُ اللَّهُ فِيهِمْ بِالَّذِي رَآهُمْ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ، فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي، فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي**».

الخطبة الثانية

روى ابن خزيمة في صحيحه حدثنا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ السَّعْدِيُّ، ثنا يُوسُفُ بْنُ زِيَادٍ، ثنا هَمَّامُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظِيمٌ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ، شَهْرٌ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، جَعَلَ اللَّهُ صِيَامَهُ فَرِيضَةً، وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعًا، مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنَ الْخَيْرِ، كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ، وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرِيضَةً كَانَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ، وَشَهْرُ الْمُوَاسَاةِ، وَشَهْرٌ يُزْادُ فِيهِ رِزْقُ الْمُؤْمِنِ، مَنْ فَطَّرَ فِيهِ صَائِمًا كَانَ مَغْفِرَةً لِذُنُوبِهِ وَعِتْقَ رَقَبَتِهِ مِنَ النَّارِ، وَكَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أَجْرِهِ شيء**»، قَالُوا يا رسول اللَّه: لَيْسَ كُلُّنَا يجِدُ مَا يُفَطِّرُ الصَّائِمَ، فَقَالَ: «**يُعْطِي اللَّهُ هَذَا الثَّوَابَ مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا عَلَى تَمْرَةٍ، أَوْ شَرْبَةِ مَاءٍ، أَوْ مَذْقَةِ لَبَنٍ، وَهُوَ شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ، وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ، مَنْ خَفَّفَ عَنْ مَمْلُوكِهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَأَعْتَقَهُ مِنَ النَّارِ، وَاسْتَكْثِرُوا فِيهِ مِنْ**

أَرْبَعِ خِصَالٍ: خَصْلتانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ، وَخَصْلَتانِ لَا غِنًى بِكُمْ عَنْهُمَا، فَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ: فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَتَسْتَغْفِرُونَهُ، وَأَمَّا اللَّتَانِ لَا غِنًى بِكُمْ عَنْهمَا: فَتُسْأَلُونَ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَتَعُوذُونَ بِهِ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ أَشْبَعَ فِيهِ صَائِمًا سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لَا يَظْمَأُ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ».

الخطبة الثالثة

روى مالك في الموطأ أن النَّبيَّ – ﷺ – كان يخطبُ: «**إنَّ أَحْسَنَ الحديث كتاب اللَّه، وأَوْثَقَ العُرَى كلمة التَّقوَى، وخَيرَ المِلَلِ ملَّةَ إبراهيم عليه السّلام، وخَيْرَ السُّنَنِ سُنَّةَ محمّد ﷺ وأشرفَ الحديثِ ذكر اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وأحسنَ القصصِ هذا القرآن، وخيرَ الأمورِ عزائمها، وشرّ الأمور مُحْدَثاتُها**[1]**، وأحسنَ الهدى هدى الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشّهداء، وأَغْوَى الضَّلالة بعد الهُدَى، وخير العمل ما نَفَعَ، وخير الهُدَى ما اتُّبعَ، وشر العَمَى عَمَى القلب. واليد العليا خيرٌ من اليد السُّفْلَى، وما قلَّ وكَفَى خيرٌ ممّا كثر وأَلْهَى، ونَفْسٌ تُنْجِيها خيرٌ من إمارةٍ لا تُحْصِيها، وشرّ المعاذِيرِ حينَ يحضرُ الموتُ، وشرّ النَّدامَةِ نَدَامَةُ يوم القيامة. ومن النَّاس من لا يأتي الجمعة إلَّا دُبرًا، ولا يذكر اللَّه إلَّا هجرًا. ومن أعظم الخطايا اللِّسان الكذوبُ، وخير الغنى غِنَى النَّفْس، وخير الزَّادِ التَّقوَى، ورأس الحكمة مخافة اللَّه، وخير ما قد أُلْقِيَ في القَلْوب اليقينُ والارتياب من الكفر، والنَّوْح من عمل الجاهليّة، والشِّعر مَزَاميرُ الشّيطان**[2]**، أو قال إبليس. والخمر جِمَاعُ الآثامِ، والنِّساء حِبَالات الشّيطان، والشّباب شُعْبَة من الجنون، وشرّ المكاسب كسب الرِّبا، وشرّ المآكِلِ أكل أموال اليتامَى. والسّعيد من وُعِظَ بغيره، والشَّقِيّ من شقي في بَطنِ أُمِّه، وإنّما يكفي أحدكم ما يغيثُ به نفسَهُ، وإنمّا يصير أحدكم إلى موضع أربعة أَذْرُعٍ، ومِلَاك العمل خواتمه، وشرّ الرِّواية**

---

(١) أي كل أمر يحدثه الناس مما يخالف هديه أي شريعته بدعة سيئة بدعة محرمة.

(٢) أي الذي لا خير فيه.

رِوَاية الكذب، وكلّ ما هو آتٍ قريبٌ، وسِبَابُ المؤمنِ فِسْقٌ، وقتاله كُفْرٌ[1]، وأكلُ لحمه معصية[2]، وحُرْمة مَالِهِ كحُرْمة دَمِهِ. مَنْ تَأَلَّى على اللَّه يُكَذِّبُه، ومن يَستغْفِر يغفر اللَّه له، ومَنْ يَعْفُ يعفُ اللَّهُ عنه، ومَن يَكْظِمُ الغيظ يأجره اللَّه، ومن يصبِر على الرَّزَايَا يُعقِبه اللَّه، ومن يعرف البلاء يصبر عليه، ومن لا يعرفه ينكره، ومنْ يبتغ السُّمْعَةَ يُسَمِّع اللَّه به، ومَنْ يستكبر يضعه اللَّه، ومَنْ يتولَّى الدُّنيا يعجز عنه، ومن يُطعِ الشّيطانَ يعص اللَّه، ومَن يعصِ اللَّه يعذِّبه».

الخطبة الرابعة

روى ابن ماجه في سننه حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمُحَارِبِيُّ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ رَافِعٍ أَبِي رَافِعٍ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ السَّيْبَانِيِّ يَحْيَى ابْنِ أَبِي عَمْرٍو، عَنْ عَمْرِو ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ أَكْثَرُ خُطْبَتِهِ حَدِيثًا، حَدَّثَنَاهُ عَنِ الدَّجَّالِ، وَحَذَّرَنَاهُ، فَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ أَنْ قَالَ: **«إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ، مُنْذُ ذَرَأَ اللَّهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ، أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا حَذَّرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ، وَأَنَا آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ، وَهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لَا مَحَالَةَ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْكُمْ، فَأَنَا حَجِيجٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنْ يَخْرُجْ مِنْ بَعْدِي، فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ، وَالْعِرَاقِ، فَيَعِيثُ يَمِينًا وَيَعِيثُ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبُتُوا، فَإِنِّي سَأَصِفُهُ لَكُمْ صِفَةً لَمْ يَصِفْهَا إِيَّاهُ نَبِيٌّ قَبْلِي، إِنَّهُ يَبْدَأُ، فَيَقُولُ: أَنَا نَبِيٌّ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، ثُمَّ يُثَنِّي فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ وَلَا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، كَاتِبٍ أَوْ غَيْرِ كَاتِبٍ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنَّ مَعَهُ جَنَّةً وَنَارًا، فَنَارُهُ جَنَّةٌ، وَجَنَّتُهُ نَارٌ، فَمَنِ ابْتُلِيَ بِنَارِهِ، فَلْيَسْتَغِثْ بِاللَّهِ، وَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ الْكَهْفِ فَتَكُونَ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، كَمَا كَانَتِ النَّارُ عَلَى**

---

(١) أي يشبه الكفر من حيث عظم الذنب.

(٢) أي بنحو الغيبة مثلًا.

إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ، وَأُمِّهِ، فَيَقُولَانِ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يُسَلَّطَ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَيَقْتُلَهَا، وَيَنْشُرَهَا بِالْمِنْشَارِ، حَتَّى يُلْقَى شِقَّتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولَ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا، فَإِنِّي أَبْعَثُهُ الْآنَ، ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ رَبًّا غَيْرِي، فَيَبْعَثُهُ اللَّهُ، وَيَقُولُ لَهُ الْخَبِيثُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ، وَأَنْتَ عَدُوُّ اللَّهِ، أَنْتَ الدَّجَّالُ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ بَعْدُ أَشَدَّ بَصِيرَةً بِكَ مِنِّي الْيَوْمَ»، قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الطَّنَافِسِيُّ: فَحَدَّثَنَا الْمُحَارِبِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ الْوَصَّافِيُّ، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ الرَّجُلُ أَرْفَعُ أُمَّتِي دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ». قَالَ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: «وَاللَّهِ مَا كُنَّا نُرَى ذَلِكَ الرَّجُلَ إِلَّا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ». قَالَ الْمُحَارِبِيُّ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: «وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَأْمُرَ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرَ، وَيَأْمُرَ الْأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتَ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَمُرَّ بِالْحَيِّ فَيُكَذِّبُونَهُ، فَلَا تَبْقَى لَهُمْ سَائِمَةٌ إِلَّا هَلَكَتْ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَمُرَّ بِالْحَيِّ فَيُصَدِّقُونَهُ، فَيَأْمُرَ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرَ، وَيَأْمُرَ الْأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتَ، حَتَّى تَرُوحَ مَوَاشِيهِمْ، مِنْ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ أَسْمَنَ مَا كَانَتْ وَأَعْظَمَهُ، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، وَأَدَرَّهُ ضُرُوعًا، وَإِنَّهُ لَا يَبْقَى شيء مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا وَطِئَهُ، وَظَهَرَ عَلَيْهِ، إِلَّا مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةَ، لَا يَأْتِيهِمَا مِنْ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهِمَا إِلَّا لَقِيَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالسُّيُوفِ صَلْتَةً، حَتَّى يَنْزِلَ عِنْدَ الظِّرَيْبِ الْأَحْمَرِ، عِنْدَ مُنْقَطَعِ السَّبَخَةِ، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ، وَلَا مُنَافِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ، فَتَنْفِي الْخَبَثَ مِنْهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ، خَبَثَ الْحَدِيدِ، وَيُدْعَى ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ الْخَلَاصِ»، فَقَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ بِنْتُ أَبِي الْعَكَرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ «هُمْ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ، وَجُلُّهُمْ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحَ، فَرَجَعَ ذَلِكَ الْإِمَامُ يَنْكُصُ، يَمْشِي الْقَهْقَرَى، لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: تَقَدَّمْ فَصَلِّ، فَإِنَّهَا لَكَ أُقِيمَتْ، فَيُصَلِّي بِهِمْ إِمَامُهُمْ، فَإِذَا انْصَرَفَ، قَالَ عِيسَى

عَلَيْهِ السَّلَامُ: افْتَحُوا الْبَابَ، فَيُفْتَحُ، وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ، كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ذَابَ، كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا، وَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً، لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللُّدِّ الشَّرْقِيِّ، فَيَقْتُلُهُ، فَيَهْزِمُ اللَّهُ الْيَهُودَ، فَلَا يَبْقَى شيء مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلَّا أَنْطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الشيء، لَا حَجَرَ، وَلَا شَجَرَ، وَلَا حَائِطَ، وَلَا دَابَّةَ، إِلَّا الْغَرْقَدَةَ، فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ، لَا تَنْطِقُ، إِلَّا قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ الْمُسْلِمَ هَذَا يَهُودِيٌّ، فَتَعَالَ اقْتُلْه» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَإِنَّ أَيَّامَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً، السَّنَةُ كَنِصْفِ السَّنَةِ، وَالسَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَآخِرُ أَيَّامِهِ كَالشَّرَرَةِ، يُصْبِحُ أَحَدُكُمْ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ، فَلَا يَبْلُغُ بَابَهَا الْآخَرَ حَتَّى يُمْسِيَ»، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُصَلِّي فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْقِصَارِ؟ قَالَ: «تقْدُرُونَ فِيهَا الصَّلَاةَ كَمَا تَقْدُرُونَهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الطِّوَالِ، ثُمَّ صَلُّوا»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَيَكُونُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلًا، وَإِمَامًا مُقْسِطًا، يَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَذْبَحُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَتْرُكُ الصَّدَقَةَ، فَلَا يُسْعَى عَلَى شَاةٍ، وَلَا بَعِيرٍ، وَتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ، وَالتَّبَاغُضُ، وَتُنْزَعُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ، حَتَّى يُدْخِلَ الْوَلِيدُ يَدَهُ فِي فِي الْحَيَّةِ، فَلَا تَضُرَّهُ، وَتُفِرَّ الْوَلِيدَةُ الْأَسَدَ، فَلَا يَضُرُّهَا، وَيَكُونَ الذِّئْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَتُمْلَأُ الْأَرْضُ مِنَ السِّلْمِ كَمَا يُمْلَأُ الْإِنَاءُ مِنَ الْمَاءِ، وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً، فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ، وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، وَتُسْلَبُ قُرَيْشٌ مُلْكَهَا، وَتَكُونُ الْأَرْضُ كَفَاثُورِ الْفِضَّةِ، تُنْبِتُ نَبَاتَهَا بِعَهْدِ آدَمَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الْقِطْفِ مِنَ الْعِنَبِ فَيُشْبِعَهُمْ، وَيَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الرُّمَّانَةِ فَتُشْبِعَهُمْ، وَيَكُونَ الثَّوْرُ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ الْمَالِ، وَتَكُونَ الْفَرَسُ بِالدُّرَيْهِمَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا يُرْخِصُ الْفَرَسَ؟ قَالَ «لَا تُرْكَبُ لِحَرْبٍ أَبَدًا»، قِيلَ لَهُ: فَمَا يُغْلِي الثَّوْرَ؟ قَالَ «تُحْرَثُ الْأَرْضُ كُلُّهَا، وَإِنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ شِدَادٍ، يُصِيبُ النَّاسَ فِيهَا جُوعٌ شَدِيدٌ، يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى أَنْ تَحْبِسَ ثُلُثَ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ، فِي الثَّانِيَةِ فَتَحْبِسُ ثُلُثَيْ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ

ثُلُثَيْ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ، فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ، فَتَحْبِسُ مَطَرَهَا كُلَّهُ، فَلَا تُقْطِرُ قَطْرَةً، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ، فَتَحْبِسُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ، فَلَا تُنْبِتُ خَضْرَاءَ، فَلَا تَبْقَى ذَاتُ ظِلْفٍ إِلَّا هَلَكَتْ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ»، قِيلَ: فَمَا يُعِيشُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؟ قَالَ **«التَّهْلِيلُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَيُجْرَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مُجْرَى الطَّعَامِ»**.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ الطَّنَافِسِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْمُحَارِبِيَّ، يَقُولُ: «يَنْبَغِي أَنْ يُدْفَعَ هَذَا الْحَدِيثُ إِلَى الْمُؤَدِّبِ، حَتَّى يُعَلِّمَهُ الصِّبْيَانَ فِي الْكُتَّابِ».

الخطبة الخامسة

وروى مسلم في صحيحه وفيه تحذير من الرياء حَدَّثَنَا يَحْيَى ابْنُ حَبِيبٍ الْحَارِثِيُّ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ الْحَارِثِ، حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، حَدَّثَنِي يُونُسُ ابْنُ يُوسُفَ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»**.

الخطبة السادسة

روى مسلم في صحيحه حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى الْعَنَزِيُّ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنِ الْمُنْذِرِ ابْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [سورة النساء] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [سورة النساء] وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: [سورة الحشر] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [سورة الحشر] «**تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ – حَتَّى قَالَ – وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شيء، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شيء**».

الخطبة السابعة

روى مسلم في صحيحه حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَبْدِ الْمَجِيدِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»، وَيَقُولُ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

الخطبة الثامنة

وروى الترمذي في سننه حَدَّثَنَا هَنَّادٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ اذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ**»، قَالَ أُبَيٌّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي؟ فَقَالَ: «**مَا شِئْتَ**». قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ، قَالَ: «**مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قُلْتُ: النِّصْفَ، قَالَ: «**مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ، قَالَ: «**مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا قَالَ: «**إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ**». هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَصْفُ حَجَّةِ النَّبِي ﷺ

ففي سنن أبي داود ذاكرًا صفة حجة النبي التي حَجَّها رَسُولُ اللَّهِ المسماة بحجة الوداع؛ وسميت بِذَلِكَ لِأَنَّهُ وَدَّعَ فِيهَا النَّاسَ، وَسُمِّيَتْ أيضا حَجَّةُ الْبَلَاغ؛ لِأَنَّهُ بَلَّغَ أُمَّتَهُ فِيهَا مَا تَضَمَّنَتْهُ خُطْبَتُهُ، وَسُمِّيَتْ حَجَّةُ التَّمَامِ؛ لِأَنَّهُ بَيَّنَ تَمَامَهَا وَأَرَاهُمْ مَنَاسِكَهَا، وَسُمِّيَتْ حَجَّةُ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَحُجَّ بَعْدَ فَرْضِ الْحَجِّ غَيْرَهَا، وَقِيلَ: لَمْ يَحُجَّ بَعْدَ النُّبُوَّةِ غَيْرَهَا، قال أبو داود حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ النُّفَيْلِيُّ، وَعُثْمَانُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَهِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدِّمَشْقِيَّانِ، وَرُبَّمَا زَادَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ الْكَلِمَةَ وَالشيء قَالُوا: حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ، سَأَلَ عَنِ الْقَوْمِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ، فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى رَأْسِي فَنَزَعَ زِرِّي الْأَعْلَى، ثُمَّ نَزَعَ زِرِّي الْأَسْفَلَ، ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ ثَدْيَيَّ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ شَابٌّ، فَقَالَ: «**مَرْحَبًا بِكَ، وَأَهْلًا يَا ابْنَ أَخِي سَلْ عَمَّا شِئْتَ**[1]» فَسَأَلْتُهُ وَهُوَ أَعْمَى وَجَاءَ

(١) سنن أبي داود، أبو داود، (٢/ ١٨٢).

وَقْتُ الصَّلَاةِ، فَقَامَ فِي نِسَاجَةٍ مُلْتَحِفًا بِهَا يَعْنِي ثَوْبًا مُلَفَّقًا كُلَّمَا وَضَعَهَا عَلَى مَنْكِبِهِ رَجَعَ طَرَفَاهَا إِلَيْهِ مِنْ صِغَرِهَا، فَصَلَّى بِنَا وَرِدَاؤُهُ إِلَى جَنْبِهِ عَلَى الْمِشْجَبِ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ حَجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: بِيَدِهِ فَعَقَدَ تِسْعًا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ، ثُمَّ أُذِّنَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَاجٌّ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَعْمَلَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَيْنَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَوَلَدَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقَالَ: «**اغْتَسِلِي وَاسْتَذْفِرِي بِثَوْبٍ وَأَحْرِمِي**[1]»، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ، قَالَ: جَابِرٌ نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلُ ذَلِكَ وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلُ ذَلِكَ وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ، وَهُوَ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ فَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شيء، عَمِلْنَا بِهِ فَأَهَلَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالتَّوْحِيدِ «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ**» وَأَهَلَّ النَّاسُ بِهَذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا مِنْهُ، وَلَزِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَلْبِيَتَهُ، قَالَ جَابِرٌ: لَسْنَا نَنْوِي إِلَّا الْحَجَّ لَسْنَا نَعْرِفُ الْعُمْرَةَ، حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا الْبَيْتَ مَعَهُ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ فَرَمَلَ ثَلَاثًا، وَمَشَى أَرْبَعًا، ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ فَقَرَأَ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة] فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ. قَالَ: فَكَانَ أَبِي يَقُولُ قَالَ: ابْنُ نُفَيْلٍ، وَعُثْمَانُ وَلَا أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ سُلَيْمَانُ: وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْبَيْتِ فَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الصَّفَا، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قال: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة] ثم قال: «**نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ**[2]» فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقِيَ عَلَيْهِ حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ فَكَبَّرَ اللَّهَ وَوَحَّدَهُ وَقَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ**

(١) سنن أبي داود، أبو داود، (٢/ ١٨٢).

(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٢٨٣).

لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ[1]» ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَقَالَ: مِثْلَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَى الْمَرْوَةِ حَتَّى إِذَا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ رَمَلَ فِي بَطْنِ الْوَادِي، حَتَّى إِذَا صَعِدَ مَشَى حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ، فَصَنَعَ عَلَى الْمَرْوَةِ مِثْلَ مَا صَنَعَ عَلَى الصَّفَا، حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ الطَّوَافِ عَلَى الْمَرْوَةِ، قَالَ: «إِنِّي لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقْ الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيُحْلِلْ وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً[2]» فَحَلَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَقَصَّرُوا إِلاَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ فَقَامَ سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِلْأَبَدِ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَابِعَهُ فِي الْأُخْرَى، ثُمَّ قَالَ: «**دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ**[3]» هَكَذَا مَرَّتَيْنِ «**لاَ بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ، لَا بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ**» قَالَ: وَقَدِمَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنَ الْيَمَنِ بِبُدْنِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِمَّنْ حَلَّ، وَلَبِسَتْ ثِيَابًا صَبِيغًا وَاكْتَحَلَتْ فَأَنْكَرَ عَلِيٌّ ذَلِكَ عَلَيْهَا، وَقَالَ: مَنْ أَمَرَكِ بِهَذَا، فَقَالَتْ: أَبِي، فَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ: بِالْعِرَاقِ ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُحَرِّشًا عَلَى فَاطِمَةَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي صَنَعَتْهُ مُسْتَفْتِيًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الَّذِي ذَكَرَتْ عَنْهُ فَأَخْبَرْتُهُ، أَنِّي أَنْكَرْتُ ذَلِكَ عَلَيْهَا فَقَالَتْ: إِنَّ أَبِي أَمَرَنِي بِهَذَا، فَقَالَ: «**صَدَقَتْ، صَدَقَتْ مَاذَا، قُلْتَ حِينَ فَرَضْتَ الْحَجَّ**[4]» قَالَ: قُلْتُ اللَّهُمَّ إِنِّي أُهِلُّ بِمَا أَهَلَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**فَإِنَّ مَعِيَ الْهَدْيَ فَلَا تَحْلِلْ**[5]» قَالَ: وَكَانَ جَمَاعَةُ الْهَدْيِ الَّذِي قَدِمَ بِهِ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ وَالَّذِي أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ مِائَةً فَحَلَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ، وَقَصَّرُوا إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ وَوَجَّهُوا إِلَى مِنًى أَهَلُّوا بِالْحَجِّ، فَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى بِمِنًى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ

---

(١) سنن أبي داود، أبو داود، (٣/ ٢٨٣).

(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٢٨٤).

(٣) المصدر نفسه، (٣/ ٢٨٤).

(٤) المصدر نفسه، (٣/ ٢٨٤).

(٥) المصدر نفسه، (٣/ ٢٨٤).

وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ وَالصُّبْحَ، ثُمَّ مَكَثَ قَلِيلًا حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ لَهُ مِنْ شَعْرٍ فَضُرِبَتْ بِنَمِرَةٍ، فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا تَشُكُّ قُرَيْشٌ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاقِفٌ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ بِالْمُزْدَلِفَةِ، كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَصْنَعُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمِرَةٍ، فَنَزَلَ بِهَا حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِالْقَصْوَاءِ فَرُحِلَتْ لَهُ فَرَكِبَ حَتَّى أَتَى بَطْنَ الْوَادِي فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا إِنَّ كُلَّ شيء مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دِمَاؤُنَا: قَالَ عُثْمَانُ:» دَمُ ابْنُ رَبِيعَةَ « وَقَالَ سُلَيْمَانُ: «دَمُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وقَالَ: بَعْضُ هَؤُلَاءِ كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُهُ رِبَانَا: رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللَّهِ وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ**[1]» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ، وَأَدَّيْتَ، وَنَصَحْتَ، ثُمَّ قَالَ: بِأُصْبُعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُبُهَا إِلَى النَّاسِ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ، وَلَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَوْقِفَ فَجَعَلَ بَطْنَ نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ إِلَى الصَّخَرَاتِ، وَجَعَلَ حَبْلَ الْمُشَاةِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلًا حِينَ غَابَ الْقُرْصُ وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ خَلْفَهُ، فَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ شَنَقَ لِلْقَصْوَاءِ الزِّمَامَ حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ، وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى «**السَّكِينَةَ أَيُّهَا النَّاسُ، السَّكِينَةَ أَيُّهَا النَّاسُ**[2]»،

(١) سنن أبي داود، أبو داود، (٣/ ٢٨٥).

(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٢٨٦).

كُلَّمَا أَتَى حَبْلًا مِنَ الْحِبَالِ أَرْخَى لَهَا قَلِيلًا حَتَّى تَصْعَدَ، حَتَّى أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ فَجَمَعَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، قَالَ عُثْمَانُ: وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، ثُمَّ اتَّفَقُوا ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَصَلَّى الْفَجْرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ، قَالَ سُلَيْمَانُ: بِنِدَاءٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ اتَّفَقُوا، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ فَرَقِيَ عَلَيْهِ، قَالَ عُثْمَانُ وَسُلَيْمَانُ: فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ، زَادَ عُثْمَانُ وَوَحَّدَهُ فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا، ثُمَّ دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَأَرْدَفَ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ وَكَانَ رَجُلًا حَسَنَ الشَّعْرِ أَبْيَضَ وَسِيمًا، فَلَمَّا دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّ الظُّعُنُ يَجْرِينَ، فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى وَجْهِ الْفَضْلِ، وَصَرَفَ الْفَضْلُ وَجْهَهُ إِلَى الشِّقِّ الْآخَرِ، وَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ إِلَى الشِّقِّ الْآخَرِ، وَصَرَفَ الْفَضْلُ وَجْهَهُ إِلَى الشِّقِّ الْآخَرِ يَنْظُرُ حَتَّى أَتَى مُحَسِّرًا، فَحَرَّكَ قَلِيلًا، ثُمَّ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوُسْطَى الَّذِي يُخْرِجُكَ إِلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى، حَتَّى أَتَى الْجَمْرَةَ الَّتِي عِنْدَ الشَّجَرَةِ فَرَمَاهَا بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ مِنْهَا بِمِثْلِ حَصَى الْخَذْفِ فَرَمَى مِنْ بَطْنِ الْوَادِي، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَنْحَرِ فَنَحَرَ بِيَدِهِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ، وَأَمَرَ عَلِيًّا فَنَحَرَ مَا غَبَرَ يَقُولُ: مَا بَقِيَ، وَأَشْرَكَهُ فِي هَدْيِهِ، ثُمَّ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ فَجُعِلَتْ فِي قِدْرٍ فَطُبِخَتْ فَأَكَلَا مِنْ لَحْمِهَا وَشَرِبَا، مِنْ مَرَقِهَا قَالَ سُلَيْمَانُ: ثُمَّ رَكِبَ، ثُمَّ أَفَاضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبَيْتِ فَصَلَّى بِمَكَّةَ الظُّهْرَ، ثُمَّ أَتَى بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُمْ يَسْقُونَ عَلَى زَمْزَمَ فَقَالَ: «انْزِعُوا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَوْلَا أَنْ يَغْلِبَكُمُ النَّاسُ عَلَى سِقَايَتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ»، فَنَاوَلُوهُ دَلْوًا فَشَرِبَ مِنْهُ.

وقد فَرَض اللَّه سبحانه وتعالى الحجّ على المسلمين بعد أن تمّ إرساء قواعد الدولة الإسلاميّة، وبلغت الرّسالة، ودخل النّاس في دين اللَّه سبحانه وتعالى، وقد كان ذلك في أواخر السّنة التّاسعة من الهجرة، حيث عزم النّبي ﷺ أمره على الذّهاب إلى الحجّ، ولمّا سمع النّاس بذلك خرج خلق كثر يريدون أن يحجّوا مع النّبي ﷺ، وأن يأتمّوا به عليه السّلام.

ثمّ خرج النّبي ﷺ من المدينة، وكان ذلك في الخامس والعشرين من شهر ذي

القعدة، من السّنة العاشرة للهجرة، حيث أعلن الرّسول ﷺ النّاس عن نيّته بالحجّ، وأشعرهم بذلك، ليصحبه من شاء منهم، فخرج عليه السّلام من المدينة في أواخر شهر ذي القعدة، وذلك بعد أن أمّر عليها في غيابه أبا دجانة. وقد كان الحجّ في ذلك العام مختلفًا عن حجّ العرب في أيّام الجاهليّة، حيث انتهت عهود المشركين، وحظر عليهم أن يدخلوا إلى المسجد الحرام، وبالتالي أصبح أهل الحجّ جميعهم من الموحّدين المؤمنين بالله عزّ وجلّ، الذين لا يشركون بالله شيئًا، ولا يعبدون معه إلهًا آخر، وقد أقبل النّاس من كلّ مكان ميمّمين صوب البيت العتيق، وهم على علم بأنّ النّبي ﷺ سيكون أميرهم في الحجّ ومعلمهم. وقد حرص النّبي ﷺ على أن ينتهز اجتماع المسلمين ليغرس في قلوبهم الدّين، ويبدّد ما في نفوسهم من بقايا الجاهليّة، ويؤكّد على حرص الإسلام على إشاعة الآداب، والعلائق، والأحكام، فألقى على مسامع المسلمين خطبته المشهورة باسم خطبة حجّة الوداع، وقد كانت خطبةً جامعةً، وذلك في يوم عرفة من هذه الحجّة العظيمة، حيث نزل قول اللّه عز وجلّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة]. وعندما سمع عمر بن الخطاب هذه الآية بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: إنّه ليس بعد الكمال إلا النّقصان. وكأنّه استشعر أنّ النّبي ﷺ قد اقتربت ساعته وحان أجله. وقد كانت مشاعر التّوديع واضحةً في عبارات النّبي ﷺ في هذه الخطبة، كقوله عند جمرة العقبة: «خذوا عنّي مناسككم فلعلّي لا أحجّ بعد عامي هذا» .لقد سار النّبي ﷺ حتى نزل في نمرة، وعندما غربت الشّمس أتى بطن وادي عرنة، وقد كان حوله الآلاف من النّاس، فقام يخطب فيهم خطبةً جامعةً، قام فيها بذكر أصول الإسلام، وقواعد الدّين الإسلامي، وبعد ذلك قام المؤذّن فأذّن بالنّاس، ثمّ أقام فصلى بالنّاس صلاة الظهر، ثمّ أقام فصلى صلاة العصر، ولم يصلّ بينهما شيئًا، ثم ركب رسول اللّه ﷺ حتّى أتى موقف عرفات، فاستقبل القبلة، ولم يزل واقفًا حتّى غربت الشّمس، وهنالك أنزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة] فلما غربت الشمس

أفاض من عرفات، وأركب أسامة بن زيد خلفه، ودفع رسول اللَّه ﷺ وهو يقول: «**أيها الناس عليكم السكينة**» حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم نام حتى أصبح، فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت، ثم ركب، حتى أتى المشعر الحرام وهو موضع بالمزدلفة ، فاستقبل القبلة، ودعا اللَّه وكبره وهلله ووحده، ولم يزل واقفًا حتى أسفر الصبح وانتشر ضوءه، ثم دفع إلى منى قبل أن تطلع الشمس، وهو يلبي ولا يقطع التلبية، وأمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات، فلما وصل إلى منى رمى جمرة العقبة راكبًا بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة ثم خطب الناس خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وفضله عند اللَّه وحرمة مكة على غيرها، وأمرهم بالسمع والطاعة، وأن يأخذوا عنه مناسكهم، ويبلغوا عنه، ونهاهم أن يرجعوا بعده كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض فلا يفعلوا فعل الكفار، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثًا وستين بدنة بيده، ثم أمر عليًا أن ينحر ما بقي من المائة . فلما أكمل ﷺ نحر الهدي استدعى الحلاق فحلق رأسه، وقسم شعره بين من حوله من الناس . وفي هذا دليل على جواز التبرك بشعر النبي عليه الصلاة والسلام وقد ورد تقسيم شعر النبي ﷺ في مواضع منها:

أخرج البخاري في صحيحه بإسناده إلى إسرائيل بن يونس بن عثمان بن عبد الله بن مَوْهَب مولى ءالِ طلحةَ أنه قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ بقدح من ماء، وقبض إسرائيل ثلاث أصابع، من فضة فيه شعر من شعر النبي ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسانَ عينٌ أو شيء بعث إليها مِخْضَبَه، فاطلعت في الجلجل، فرأيت شعرات حمرًا.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: «والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناءً إلى أم سلمة، فتجعل فيه تلك الشعرات، وتغسلها فيه، وتعيده، فيشربه صاحب الإناء، أو يغتسل به استشفاءً بها، فتحصل له بركتها».

وقال القسطلاني: «والحاصل من معنى هذا الحديث أن أم سلمة كان عندها شعرات من شعر النبي ﷺ حمر محفوظة للتبرك في شيء مثل الجلجل، وكان الناس يستشفون بها من المرض، فتارة يجعلونها في قدح من ماء ويشربونه، وتارة في إجَّانة من الماء، فيجلسون في الماء الذي فيه الجلجل الذي فيه تلك الشعرات الشريفة».

وكذلك أخرج البخاري في صحيحه بإسناده إلى ابن سيرين قال: قلت لعبيدة: عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قِبل أنس أو من قِبل أهل أنس، فقال: لأن تكون عندي شعرة منه أحب إلي من الدنيا وما فيها. وأخرجه الإسماعيلي، وفي روايته: أحب إلي من كل صفراء وبيضاء[1].

٣. وروى هشام بن حسان عن محمّد بن عبيدة قال: اختلف الناس في الأشربة، فما لي شراب منذ ثلاثين سنة إلا العسل واللبن والماء. قال محمد: وقلت لعبيدة إنّ عندنا من شعر رسول اللّه ﷺ شيئًا من قِبل أنس بن مالك، فقال: لأن يكون عندي منه شعرة أحب إلي من كل صفراء وبيضاء على ظهر الأرض.

هذا القول من عبيدة هو معيار كمال الحب، وهو أن يُؤثِر شعرة نبوية على كل ذهب وفضة بأيدي الناس، ومثل هذا يقوله هذا الإمام بعد النبي ﷺ بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وجدنا بعض شعرة بإسناد ثابت، أو شِسْعَ نعل كان له، أو قُلَامَةَ ظُفْر، أو قطعةً من إناء شرب فيه؟! فلو بذل الغني معظم أمواله في تحصيل شيء من ذلك عنده أكنتَ تعدّه مبذّرًا أو سفيهًا؟ كلا، فابْذلْ مالَكَ في زَوْرَة مسجده الذي بنى فيه بيده، والسلام عليه عند حجرته في بلده، والتذَّ بالنظر إلى (أُحُدِه) وأَحِبَّه، فقد كان نبيك ﷺ يحبه، وتملأ بالحلول في روضته ومقعده، فلن تكون مؤمنًا كاملًا حتى يكون هذا الرسول العظيم أحب إليك من نفسك وولدك وأموالك والناس كلهم، وقبِّل حجرًا مكرمًا نزل من الجنة، وضع فمك لاثمًا مكانًا قبَّله سيد البشر بيقين، فهنَّأك اللّه بما أعطاك، فما فوق ذلك مفخر، ولو ظفرنا

(١) يريد الذهب والفضة.

بالمحجن الذي أشار به الرسول ﷺ إلى الحجر ثم قبَّل محجنَهُ لَحُقَّ لنا أن نَزدَحِمَ على ذلك المحجن بالتقبيل والتبجيل.

كان لخالد بن الوليد رضي اللَّه عنه قلنسوة وضع في طيّها شعرًا من ناصية رسول اللَّه ﷺ، أي مقدم رأسه لما حلق في عمرة الجعرانة، وهي أرض بمكة لجهة الطائف، فكان يلبسها يتبرك بها في غزواته. روى الحافظ ابن حجر أن خالد بن الوليد رضي اللَّه عنه قال: «اعتمرنا مع رسول اللَّه ﷺ في عمرة اعتمرها، فحلق شعره، فسبقتُ إلى الناصية، فاتخذت قلنسوة، فجعلتها في مقدمة القلنسوة، فما وجِّهت في وجه إلا فُتح لي» .

ولما سقطت عنه قلنسوته يوم اليرموك شدَّ عليها شدةً حتى أخذها، فأنكر عليه بعض الصحابة ذلك قبل علمهم بما فيها من شعر رسول اللَّه ﷺ، لظنهم أنه خاطر بنفسه على قلنسوة عادية، فقال خالد: «إني لم أفعل ذلك لقيمة القلنسوة، لكن كرهت أن تقع بأيدي المشركين وفيها من شعر النبي عليه الصلاة والسلام، فرضوا عنه وأثنوا عليه».

فخالد رضي اللَّه عنه كان يرى أن لوجود شعرات الحبيب ﷺ معه في المعارك بركة عظيمة، وإلا لما قال ما قال، أما المحرومون فيقولون: مثل فعل خالد ذريعة للشرك!! نعم هكذا وبكل بساطة يقولون ذريعة للشرك!! إنهم يسعون بزعمهم لردم ثغرة فتحها النبي ﷺ وصحبه الميامين؟؟!.

يقول مفتي دمشق السابق سماحة الشيخ محمود الحمزاوي: [من الكامل]

شَـرَفُ المحَـلِّ بقَـدْرِ مَـنْ قـد حَلَّـهَ ... أمْـرٌ بديهـيُّ الثُّبُـوتِ بـلا خَفَـا

ولذلـك المِحْـرابُ فَخْـرٌ شـامخٌ ... إذ حَـلَّ فيـهِ شـريفُ شَعْرِ المصطفى

يـا زائـرًا شَـعَرَ النبـيِ محمـدٍ ... كـنْ عنـدَ كشـفِكَ للغطـاءِ مُعظِّمَـا

مُتأدِبًـا مُتطهِّـرًا متطيِّبًـا ... ومُبـارِكًا ومُصلِّيًـا ومُسـلِّمَا

وقال فضيلة الشيخ الأديب أسامة السيد: [من الكامل]

يـا شَـعْرةً مـن وجـهِ أحمـدَ نسّـمي ... بنسـائمٍ مـن فَوْحِـكِ المعطـارِ
وكأنهـا تـاجُ الشـموسِ ودُرُّهـا ... فانْعَـمْ هُديـتَ بلُجَّـةِ الأنـوارِ
أو كنـت تُنْـشِدُ مِـن مَقامِـكَ نَغْمَـةً ... فاطْـرَبْ بحَضْـرةِ شَـعْرةِ المختـارِ
يـا مـن غَـدَوْتِ دواءَنـا مـن دائِنـا ... أنـتِ الضيـاءُ بظُلْمتـي ومنـارِي
وهـي التـي جَمَعَـتْ بـآنٍ واحـدٍ ... شـمسَ الضحـى مـع طلَّـةِ الأقمـارِ
إن كنـت تَنْشُـدُ فـي الحيـاةِ مبـاهجًا ... فهـي البهـاءُ ومَجْمَـعُ الأسـرار

ثم أفاض رسول اللَّه ﷺ إلى مكة راكبًا، وطاف بالبيت طواف الإفاضة، وصلى بمكة الظهر، ثم رجع إلى منى في نفس اليوم، فبات بها، فلما أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت ودخل وقت الظهر أتى الجمرات، فبدأ بالجمرة الصغرى ثم الوسطى ثم جمرة العقبة، يرمي كل جمرة بسبع حصيات، ويكبر مع كل حصاة، وفعل ذلك في بقية أيام التشريق، وأقام النبي ﷺ أيام التشريق بمنى يؤدي المناسك، ويعلم الشرائع، ويذكر اللَّه، ويقيم التوحيد، ويمحو معالم الشرك . وفي اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، نفر النبي ﷺ من منى، فنزل بخيف بني كنانة من الأبطح، وأقام هناك بقية يومه وليلته، وصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ونام نومة خفيفة، وبعدها ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع، ثم توجه راجعًا إلى المدينة. وهكذا قضى رسول اللَّه ﷺ حجه، بعد أن بين للمسلمين مناسكهم، وأعلمهم ما فرض اللَّه عليهم في حجهم، وما حرم عليهم، فكانت حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع، ولم يمكث بعدها أشهرًا حتى وافاه الأجل، فصلوات اللَّه وسلامه عليه إلى يوم الدين.

مُلَخَّصُ خُطبة حَجَّة الوَدَاعِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد طه الأمين وعلى ءاله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن اتبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، ولا ضدَّ ولا ندَّ ولا زوجة ولا ولد له، ولا شبيه ولا مثيل له، ولا جسم ولا حجم ولا جسد ولا جثة له، ولا صورة ولا أعضاء ولا كيفية ولا كمية له، ولا أين ولا جهة ولا حيّز ولا مكان له، كان اللَّه ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [سورة النحل]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة النحل]، تنزّه ربي عن الجلوس والقعود، وعن الحركة والسكون، وعن الاتصال والانفصال، لا يحلّ فيه شيء، ولا ينحلّ منه شيء، ولا يحلّ هو في شيء لأنه ليس كمثله شيء، مهما تصورت ببالك فالله لا يشبه ذلك، ومن وصف اللَّه بمعنى من معاني البشر فقد كفر. وأشهد أنَّ حبيبنا وعظيمنا وقائدنا وقرة أعيننا محمدًا عبده ورسوله، ونبيه وصفيه وحبيبه وخليله أما بعد فلما بدأ عليه الصلاة والسلام بأهم العلوم وأشرفها الذي هو علم التوحيد بدأ بالشهادتين التي فيها قصر الخلق لله وإثبات النبوة للنبي عليه الصلاة والسلام مع نفي الشريك لله فهذا علم التوحيد وهذا أهميته فأين الذين ينتقدون أهل الحق ويعترضون عليهم في تكرارهم لأمور العقيدة من هذا الكلام؟ إذا كان النبي نفسه في خطبته التي ألقاها أمام جمع كبير من الناس بدأ بالتوحيد ونفى الشريك لله وفي سياق كلامه رجع إليه وكرره فقال إن ربكم واحد ألا يكفيهم هذا دليلًا، النبي قدوتنا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الأحزاب]، فلا عيب ولا عار في الكلام والتكرار لمسائل في علم التوحيد فالإيمان والتوحيد أصل وأساس وهو الحصن الحصين والركن الركين الذي بدونه لا يقبل العمل الصالح، ولذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رسول اللَّه ﷺ سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟

فَقَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**[1]»، وهذه الأفضلية المطلقة، فأفضل الأعمال على الإطلاق الإيمان بالله ورسوله، فهو أفضل من سائر العبادات كالذكر والصلاة لأنَّ الإيمان شرطٌ أساسٌ لا بد منه لقبول الأعمال الصالحة، وقد قال ربنا في القرءان الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سورة البقرة]، فالإيمان أولًا، وفي ءايةٍ أخرى قال: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سورة الإسراء]، وقال: «**أفضل الأعمال إيمانٌ لا شكَّ فيه**»[2]، فإذا دخل عليه الشكُّ أفسده وأبطله، فلا يعود ولا يبقى الإنسان مؤمنًا إن شكَّ في وجود اللَّه تعالى أو في صدق الرسول أو في حَقِّيَّة الإسلام، أو شكَّ في تنزيه اللَّه، فهذا لا يكون من المسلمين، لذلك قال ربّنا في صفة المؤمنين﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾[سورة الحجرات] أي لم يشكوا لأنَّ الإيمان إذا دخل عليه الشك أفسده؛ من هنا كان الواجب والفرض اللازم المؤكد الأول الإيمان بالله ورسوله، وهذا منهجٌ نبويٌّ وليس منهجًا مستحدثًا اليوم، وليس فكرةً ابتدعناها من عند أنفسنا وأخرجناها من جيوبنا، إنما هذا هو المنهج الذي جاء به محمد وعلَّمه لصحابته وأمته.

وقد ثبتَ في الصحيح أنَّ أهل اليمن جاؤوا إلى رسول اللَّه فقالوا له: «يا رسول اللَّه، جئناك لنتفقه في الدين، فأنبئنا عن بدء هذا الأمر ما كان»، فكان سؤالهم عن أول المخلوقات، أي عن أول هذا العالم وجودًا، وهو سؤالٌ مهم، إلا أن رسول اللَّه أجابهم عما هو أهم، أجابهم عن الْأَوْلَى فقال: «**كان اللَّه ولم يكن شيء غيره**[3]»، أي في الأزل لم يكن إلا اللَّه، لا سماء ولا أرض ولا هواء ولا ماء ولا عرش ولا فرش، لا خلاء ولا ملاء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [سورة الحديد]، فعلمهم الرسول ذلك وأكده عليهم مع أنهم يعتقدونه لأنهم كانوا من المسلمين ويعرفون التنزيه، مع هذا علَّمَنا المنهج، سألوا عن مهم فأجابهم عن أهم. وقوله: «**كان اللَّه**

---

(١) صحيح البخاري، البخاري، (١/ ١٤).

(٢) خلق أفعال العباد، البخاري، (ص٥٢).

(٣) صحيح البخاري، البخاري، (٤/ ١٠٥).

ولم يكن شيء غيره» يعني أن اللَّه أزلي، أي أن اللَّه لا مكان له فلا يسكن السماء ولا يجلس على العرش، ليس في جهةٍ واحدةٍ ولا في كل الجهات، فهو تعالى لا يحتاج إلى الأماكن أزلًا وأبدًا، هذا هو المنهج النبوي، وهذا تعليم الرسول للأمة. ثم قال: «**وكان عرشه على الماء**»[1]، أي أنَّ الماء هو أول العالم حدوثًا ووجودًا، ثم بعد ذلك خُلِقَ العرشُ.

وانظر أخي القارئ إلى ما قاله حذيفة رضي اللَّه عنه وأرضاه: «إنا قومٌ أوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرءان»، رواه البيهقي في السنن الكبرى وسعيد بن منصور في سننه. وقال سيدنا جندب بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنه: «كنا غلمان حزاورة مع رسول اللَّه فيعلمنا الإيمان قبل القرءان ثم يعلمنا القرءان فازددنا به إيمانًا»، رواه البخاري في التاريخ الكبير وابن ماجه في سننه والبيهقي في السنن الكبرى والبوصيري في زوائد ابن ماجه وقال: «إسناده صحيح». هذا هو المنهج النبوي الصحيح.

ورُوي عن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنه أنه قال: «كنا نتعلم التوحيد قبل أن نتعلم القرءان، وأنتم الآن تتعلمون القرءان ثم تتعلمون التوحيد»، وقول عبد اللَّه ابن عمر رضي اللَّه عنه هذا كان خطابًا للذين كانوا في زمانه، فكيف بكثير من أهل زماننا اليوم الذين أعرضوا عن تعلم علم التوحيد والعقيدة، وهذا هلاك كبير. وفي قوله رضي اللَّه عنه «كنا» يشير إلى نفسه وإلى غيره من الصحابة، وفيه إشارةٌ إلى أن الصواب هو ما كانوا عليه، فهذا تأكيد منه رضي اللَّه عنه على أهمية علم التوحيد.

وانظر رحمك اللَّه إلى ما صنفه التابعي الجليل الإمام العظيم أبو حنيفة النعمان رضي عنه من رسائل في هذا العلم الشريف، فقد ألَّف في علم التوحيد خمس رسائلَ، وقال في كتابه الفقه الأبسط: «الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام»، يعني أن تتعلم أصول العقيدة أفضل من تعلم الأحكام الفرعية. وهذا الإمام أبو حنيفة بلغ درجة الاجتهاد المطلق، ثم إنه كان تلميذ الصحابة، وأخذ العلمَ عن

---

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٤/ ١٠٥).

قريب المائة تابعي، فتأمل.

فهذا ما جاء في القرءان وما جاء في الحديث وما ورد عن الصحابة والتابعين. وقد سلك العلماء بعد التابعين مسلك من قبلهم، فانظر إلى ما جاء في كتاب «الفتاوى البزازية» أو الجامع الوجيز في مذهب أبي حنيفة للعلامة محمد بن محمد شهاب الدين يوسف الكردي البزازي الذي كان من علماء القرن التاسع الهجري، فقد قال رحمه اللَّه: «تعليم صفة الخالق مولانا جلَّ جلاله للناس وبيان خصائص مذهب أهل السنة والجماعة من أهم الأمور، وعلى الذين تصدروا للوعظ أن يلقنوا الناس في مجالسهم وعلى منابرهم ذلك، هذا الأصل في المجالس وعلى المنابر، هذا الأصل».

وانظروا إلى ما قاله الفقيه الشافعي أبو حامد الغزالي في كتابه قواعد العقائد بعد أن تكلم عن مبحث الصفات والعقيدة والتنزيه والتوحيد: «اعلم أنَّ ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم للصبي في أول نشأته ليحفظه حفظًا»، والصبي هو من كان دون البلوغ.

ومن مسائل علم العقيدة معرفة صفات اللَّه تعالى الواجبة له إجماعًا وهي الصفات الثلاث عشرة التي طالما تكرَّر ذكرها في مصنفات العلماء، ولما تكرَّر ذكرها في القرءان والحديث ونصوص العلماء قال العلماء: «يجب معرفتها وجوبًا عينيًّا على كل مكلف»، والوجوب في هذه المسألة هو معرفة معناها لا أن تُحفظ عين الألفاظ، وهذا سهل – أي اعتقاد المعنى فهذا فرضٌ على كل مكلفٍ، وممن ذكر ذلك أبو حنيفة الذي هو من أئمة السلف وممن بعده السنوسي، وكذلك محمد الفضالي الشافعي وعبد المجيد الشرنوبي المالكي، وكذلك جمال الدين الخوارزمي، ومحيي الدين النووي في كتابه المقاصد، ومفتي لبنان الأسبق الشيخ عبد الباسط بن علي الفاخوري في كتابه الكفاية لذوي العناية وغيرهم من العلماء.

وصفات اللَّه الثلاث عشرة الواجبة له إجماعًا هي:

الوجود، فاللَّه تعالى يستحيل عليه العدم، موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا جهة ولا مكان،

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [سورة إبراهيم]، أي لا شكَّ في وجوده سبحانه، ووجوده تعالى أزلي أبدي ليس كوجودنا الحادث، فوجودنا بإيجاد اللَّه لنا.

الوحدانية، أي أنَّ اللَّه تعالى واحدٌ لا شريك له، فهو تعالى واحدٌ في ذاته وصفاته وفعله؛ قال عزَّ من قائل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[سورة الإخلاص].

القيام بالنفس، أي أنه تعالى مستغنٍ عن كلِّ ما سواه، وكلُّ ما سواه محتاج إليه، فالعالم بما فيه لا يستغني عن اللَّه طرفة عين، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [سورة الإخلاص].

القِدَم، بكسر القاف وفتح الدال، أي الأزلية، أي أنَّ اللَّه تعالى لا ابتداء لوجوده، فيستحيل عليه تعالى الحدوث؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [سورة الحديد].

البقاء، أي أنَّ اللَّه تعالى لا نهاية لوجوده، لا يفنى ولا يبيد ولا يهلك ولا يزول فيستحيل عليه الفناء، قال جلَّ جلاله: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ [سورة الحديد].

القدرة، وهي صفة أزليةٌ أبدية يؤثر اللَّه بها في الممكنات، فيستحيل عليه تعالى العجز، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [سورة الكهف].

الإرادة، أي المشيئة، وهي تخصيص الممكن العقلي ببعض ما يجوز عليه دون بعض وبصفةٍ دون أخرى، فيستحيل حصول شيء خلاف مشيئته تعالى، قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير].

السمع، فالله تعالى يسمع كلَّ المسموعات بدون أذن ولا ءالةٍ أخرى، فيستحيل عليه تعالى الصمم، قال تعالى: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ [سورة الشورى].

البصر، فالله تعالى يرى جميع المرئيات بدون حدقةٍ ولا ءالةٍ أخرى، فيستحيل عليه تعالى العمى، قال تعالى: ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى].

الكلام، أي أنَّ اللَّه متكلم بكلام ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً، وما نجده في القرءان من ألفاظٍ عربيةٍ إنما هو عبارةٌ عن كلام اللَّه الذاتي الأزلي وليس عين الصفة

القائمة بذاته الكريم، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [سورة النساء].

الحياة، فالله تعالى حيٌّ يستحيل عليه تعالى الموت، وحياته ليست بروح ودم وعصب، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة].

العلم، أي أنَّ اللَّه تعالى عالمٌ بكل شيء، فهو تعالى يعلم الممكن ممكنًا والمستحيل مستحيلًا والواجب واجبًا، فيستحيل عليه تعالى الجهل، قال عزَّ من قائل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد]، وعلمه تعالى أزليٌّ أبدي لا يزيد ولا ينقص ولا يتجدد.

المخالفة للحوادث، أي أنَّ اللَّه تعالى لا يشبه شيئًا من مخلوقاته ولا بأي وجهٍ من الوجوه، ولا بأيِّ صفةٍ من الصفات، يقول اللَّه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [سورة الشورى].

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي: «ومن وصف اللَّه بمعنى من معاني البشر فقد كفر».

هذه عقيدة كل المسلمين، عقيدة جميع الأنبياء والرسل، عقيدة الصحابة وءال البيت، وعقيدة السلف والخلف، وعقيدة أكابر الصوفية، فمن شكَّ أو توقَّف أو أنكر صفةً من صفات اللَّه فهو كافرٌ بالله تعالى كما ذكر ذلك أبو حنيفة رضي اللَّه عنه، وقال سيدنا عليٌّ رضي اللَّه عنه: «من زعم أنَّ إلهنا محدود فقد جهل الخالق المعبود»، ومن جهل اللَّه كان كافرًا به. وقد قال سيدنا علي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري: «الجهل بالله كفر به»، فالذي ينسب لله الحدَّ صغيرًا كان أم كبيرًا أو ينسب لله الكمية أو الجسم أو الشكل أو الصورة أو الهيئة ليس مسلمًا. وقد نقل الإمام عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي أبو منصور في كتابه تفسير الأسماء والصفات الإجماع على كفر المجسمة وعلى كفر القدرية الذين يكذبون بالقدر.

وبعد كلِّ ما نقلناه من ءاياتٍ قرءانية وأحاديث نبويةٍ وأقوالٍ للعلماء، كيف يسعنا السكوت عن تعليم الناس أمور دينهم أو أن نقصِّر في نشر علم التوحيد

والتنزيه الذي هو الأصل والأساس.

وأختم بما قاله الرازي في كتابه مناقب الشافعي، قال رحمه اللَّه: «من أنكر وذمَّ وأبغض علم الكلام ـ يعني أصول العقيدة ـ فهو كافر»، وهذا نصٌّ صريحٌ من الإمام الرازي في تكفيره، بل وزاد قائلًا: «كافر لا يعرفُ اللَّهَ ولا يعرف الرسولَ ولا اليوم الآخر، وهو على دين ءازر» أي مشرك بالله، فهاك ما قاله الرازي فيمن يذم علم التوحيد علم العقيدة والتنزيه، فلا تلتفتوا إلى الغوغاء المُرْجِفين الذين يهولون الأمر ويقولون: «لا تتكلموا في التوحيد، لا تتكلموا في العقيدة، العلماء ذموا علم الكلام»، قولوا لهم: كذبتم، العلماء ذموا المعتزلة والمجسمة والقدرية والمرجئة وأهل الأهواء، أما علم التوحيد فقد قال فيه الشافعي: «أحكمنا ذاك قبل هذا»، أي أتقنّا علم التوحيد قبل علم الفقه والفروع. هذا الشافعي وهذا أبو حنيفة وهذا حذيفة وهذا جندب وهذا عبد اللَّه بن عمر وهذه الأحاديث وهذا الإجماع الذي نقله العلماء على أهمية تعلم علمِ العقيدةِ علمِ الكلام الذي اشتغل به علماء أهل السنة والجماعة، فماذا يريد المعارضون بعد ذلك؟.

تمكنوا في علم التوحيد، تمكنوا في علم العقيدة، فإنَّ من لم يعرف التنزيه والتوحيد لم يعرف اللَّه، ومن لم يعرف اللَّه ليس من المسلمين، ومن لم يكن مسلمًا لا تصحُّ منه صلاة ولا صيام ولا حج، ومن مات على غير الإسلام فإنه يخلد في النار.

ثم نبه الحبيب المصطفى على أهمية التقوى فحثهم عليها، والتقوى تكون بعد العلم فمن لم يتعلم الشريعة والأحكام كيف له أن يطبقها ؟ قال رسول اللَّه ﷺ «**إنما العلم بالتعلم**[1]» ، بعدها أشار عليه الصلاة والسلام إليهم إلى دنوِّ أجله بقوله «**لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا**»، وفي صحيح ابن حبان أخبرنا أَحمَد بن عليِّ ابن المُثنَّى، قال: حدَّثنا أَبو نَشيطٍ محَمَّد بْن هَارون بْنِ رُهَيْم بغدادي ثقة، قال: حدّثنا أبو المغيرة، قال: حدّثنا صفوان بن عمرو، قال: حدّثني راشد بن سعد عن

(١) صحيح البخاري، البخاري، (١/ ٢٤).

عاصم بن حميد السّكونيّ، عن معاذ بن جبل، قال: لمّا بعثه رسول اللّه ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول اللّه ﷺ يوصيه معاذ راكب، ورسول اللّه ﷺ تحت راحلته فلمّا فرغ، قال: «**يَا مُعَاذُ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا، لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي وَقَبْرِي**[1]» فبكى معاذ خشعًا لفراق رسول اللّه ﷺ ، ثمّ الْتفت رسول اللّه ﷺ نحو الْمدينة، فقال: «**إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِي، وَإِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا حَيْثُ كَانُوا، اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أُحِلُّ لَهُمْ فَسَادَ مَا أَصْلَحْتَ، وَايْمُ اللَّهِ لَيَكْفَؤُونَ أُمَّتِي عَنْ دِينِهَا كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ فِي الْبَطْحَاءِ**»[2].

وفي هذا دليل على أن الرسول ﷺ لا يعلم كل شيء ولا يعلم كل الغيب إذ لو كان يعلم كل الغيب لعلم حين وفاته وما قال لا أدري ولا قال إنك عسى أن لا تلقاني، وفي قوله تمر بمسجدي وبقبري دليل كذلك على جواز زيارة قبر النبي ﷺ للتبرك به وللسلام عليه ومن ما يدل على جوازه أيضا قول السَّمهوديُّ في وَفاءِ الوَفا ما نصُّه: «لما قَدِمَ بلالٌ رضي اللَّه عنه من الشامِ لزيارةِ النبيّ « أتى القبرَ فجعلَ يبكي عندَهُ ويمرّغُ وجهَهُ عليه»، وإسنادُهُ جيّدٌ كما سَبَقَ، وكذلك في تحفةِ ابن عساكر عن عليّ رضي اللَّه عنه قال: «لما رُمِسَ رسولُ اللَّه ﷺ جاءت فاطمةُ رضي اللَّه تعالى عنها فوقَفَت على قبرِهِ ﷺ وأخذت قبضةً من ترابِ القبرِ ووضَعَت على عينها وبكت، وأنشأت تقولُ: [الكامل]

مـاذا علـى مَـن شـمَّ تُربـةَ أحْمَـدٍ	أن لا يَشَـمَّ مـدَى الزَّمـانِ غَوالِيـا
صُبَّـت علـيَّ مصَائـبٌ لـو أنَّهـا	صُبَّـت علـى الأيّـامِ عُـدْنَ لَيَالِيـا

وكذا قبور غيره من الصالحين فهذا إمامنا الشافعي يقولُ: «إنّي لأتبرَّكُ بأبي حنيفةَ وأجيءُ إلى قبرِهِ في كلّ يومٍ - يعني زائرًا - فإذا عَرَضَت لي حاجةٌ صلَّيتُ ركعتينِ وجئتُ إلى قبرِهِ وسألتُ اللَّه تعالى الحاجةَ عندَهُ فما تَبعُدُ عني حتى تُقضَى»

---

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد، (٣٦/ ٣٧٦).

(٢) لإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ابن حبان، (٢/ ٤١٥).

وأحدُ الحنابلةِ يقالُ له الحافظُ عبدُ الغني بن سعيد كانت خَرَجَت لهُ دمَّلةٌ تَدَاوَى منها فأعياهُ علاجُهَا ما كانَ يتعافَى، فَذَهَب إلى قبرِ الإمامِ أحمدَ بن حنبلٍ مَسَحَهَا فتعافَى.

وقد اشتملت خطبة حجّة الوداع على ملخّص لتعاليم الدين الإسلامي الأساسية التي لو اتّبعتها الأمة الإسلامية والأمم غير الإسلاميّة لحقّقت الفلاح والنّجاح في الدنيا، ولكان المُجتمع مُتماسِكًا وقويًا؛ حيث ركّزت في البداية على تأكيد حرمة سفك الدماء بغير حقٍ، وأخذ حقوق الآخرين سلبًا ونهبًا وغصبًا، فجعل دماء المسلمين وأموالهم حرامٌ على بعضهم البعض لا يجوز لأحد انتهاكها، وبمجرّد أن شهِد الشخص بأن لا إله إلّا اللّه وبأن محمدًا رسول اللّه يدخل دمه وماله في الحرمة. فوضَّح الرسول عليه السلام أنّ هذه الحرمة تشمل حرمة البلد واليوم والشهر، فحرمة البلد هي مكة المكرمة، وحرمة الشهر هو شهر ذي الحجة، وذي القعدة، والمحرَّم، ورجب، ولو أنَّ الناس التزموا بهذه الحرمات لما سُرِقَت الأموال، وسُفِكت الدماء، ولعاش الناس عيشةً هنية فيها سعادة دنيوية وأخروية.

أما المبدأ التالي الذي ركّزت عليه الخطبة هو بطلان كلّ ما جاء في الجاهليّة من قوانين وعادات مثل الربا والرِبا الذي كان مَشهُورًا عندَهم هو ربا القَرضِ وهو أنْ يكون للرّجُلِ على الرّجُلِ دَينٌ إلى أجَلٍ ثم إذا حَلَّ الأجَلُ يقولُ صَاحبُ الدَّين للمَدِين «إمّا أنْ تدفَع وإمّا أنْ أزيدَ علَيكَ» قالَ بعضُ الحنفيّةِ هذا أوّلُ ما نزلَ تَحرِيمهُ منَ الرِبا ولم يُحرَّم الرّبا إلا بعد الهجرة، ووضّح أنّ مثل هذه العادات تقود الأمّة إلى الخَراب والدّمار لا إلى النهضة والإصلاح ففي تحريم وإبطال أفعال الجاهلية القبيحة كالربا، وسفك الدماء، والفوارق اجتماعية، ووأد البنات، وتفضيل قبيلة على أخرى بسبب العرق أو الجاه أو النسب والحسب تحسين وراحة وأمان في حياتنا العادية واليومية حيث لو أزيل الربا بورك بالمال ولو توقف الهرج والمرج وقتل البنات عم السلام في البلاد وكذا لو ابتعدنا عن التكبر والعصبية التي لم يأمر بها الإسلام بل معروف أن أهل بيت النبي الذين هم أرفع النسب قديمًا وحاضرًا هم أكثر الناس أخلاقًا وتواضعًا

لا تراهم يترفعون على الناس فيقولون مثلا هذا أسود هذا وضيع أو دنيء بلال الحبشي كان أسود البشرة وهو مؤذن رسول اللَّه ومرتبته عالية جدًا لا يعلم حقيقتها إلا اللَّه ومن سيرته كان بلال الحبشيّ- وقد أسلم- يخرجه مولاه أميّة بن خلف، إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثمّ يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثمّ يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللّات والعزّى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد، أحد. فهذا إسلامنا وهذا عزنا وهذا نبينا وحبيبنا وعظيمنا محمدًا أرسله اللَّه معلمًا ومربيًا ومبشرًا ونذيرًا.

ثم تطرق عليه أفضل الصلاة والسلام إلى التحذير من الشيطان ومداخله وتزييناته للعباد والخضوع له وبأنه أيِس أن تعبدوا الأصنام لكنه سيجركم إلى المعاصي التي هي دون الكفر من كذب وحسد وقتل وترك للفرائض والعبادات فلتكونوا متيقظين عارفين لحيله الدنيئة فهو خبيث خبيث يأمركم بالمنكر وينهاكم عن المعروف قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [سورة النور]. ونحن أمرنا بالاستعاذة منه قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [سورة المؤمنون]. وقبل قراءة القرآن يستحب الاستعاذة منه لقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾ [سورة النحل]. وما ورد في سورة الناس كذلك كفيل بإظهار خساسته ودناءته وخبثه، فلهذا أمرنا الحبيب المصطفى باجتنابه والتنبه منه ومن أبوابه الخبيثة.

جاء الحديث بعدها عن تحريم التلاعب بأيام السنة، أو الأشهر من خلال تقديمها أو تأخيرها على حسب أهواء الحكَّام والطبقة القوية في المجتمع فيفسد عبادته كما كانت تفعل الجاهلية، في الجاهلية يتمسكون بملة إبراهيم ﷺ في تحريم الأشهر الحرم وكان يشق عليهم تأخير القتال ثلاثة أشهر متواليات فكانوا إذا احتاجوا إلى قتال أخروا تحريم المحرم إلى الشهر الذي بعده وهو صفر ثم يؤخرونه في السنة الأخرى إلى شهر آخر وهكذا يفعلون في سنة بعد سنة حتى اختلط عليهم

الأمر وصادفت حجة النبي ﷺ تحريمهم وقد تطابق الشرع وكانوا في تلك السنة قد حرموا ذا الحجة لموافقة الحساب فأخبر النبي ﷺ أن الاستدارة صادفت ما حكم اللّه تعالى به يوم خلق السماوات والأرض فنهاهم عن هذا.

ولَم يَغفل ﷺ عن دور النساء في الحياة وبأنهنّ شقائق الرجال؛ فأوصى الرّجال بالنساء لحمايتهنّ والعطف عليهن والنفقة عليهن والابتعاد عن ظلمهن أو اعتبارهن خدمًا وعبيدًا، وأوصى النساء بالرجال بأن لا يعتدين ولا يتركن حقوقهن، فلا يدخلن بيوتهن من لا يرضى الزوج بإدخاله ولا يأتين بفاحشة، فوضّح بأنّ الرابط بينهم كرجلٍ وامرأة هي كلمة اللّه، وهذا ما تَحتاج إليه المرأة حقيقةً في وقتنا الحالي فذكر بالإحسان إلى النساء للقضاء على كل أشكال العنف والظلم الذي واجهته المرأة في الجاهلية، كما أمر الرسول عليه السلام بحسن معاشرتهنَّ وإطعامهنَّ وكسوتهنَّ، وأرشد إلى الاجراءات المتبعة حال نشوزهن.

ثم إعلان حق المسلم على المسلم وأن المسلمين إخوة وأنه لا يحل أخذ مال الغير إلا بطيب نفس منه، ونهاهم عن أفعال الكفار والكفر والتشبه بهم بل أمرهم بالتمسك بكتاب اللّه، وأنّ اللّه سيعطي السعادة والراحة والطمأنينة لمن يتمسك بكتابه وأحكامه وتشريعاته ألم تسمعوا بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الرعد]، وبيان مسؤولية الأمة الإسلامية أن تبلغ رسالة النبي محمد ﷺ، فيجب أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، فإسلامنا سبيل الكرامة وقد بيّنت الخطبة أنّ النجاة الحقيقية تكون بالاعتصام بكتاب اللّه والسنَّة الشريفة؛ فمن أراد الثبات فعليه أن يتمسَّك بهما، ففيهما سعادة الدنيا والآخرة، ولم تدع السنة والقرآن خيرًا إلّا وأمرا به، أمّا ما كان فيه شرٌ فقد نهيا عنه، ترك النّبي الكريم الثّقلين وهما كتاب اللّه والسّنّة الضّامنين لمن تمسّك بهما الهداية والرّشاد بعيدًا عن الغواية والضّلال، كما ورد في رواياتٍ أخرى أنّه أوصى المسلمين بأهل بيته وعترته الشّريفة؛ وما ذلك إلاّ لأنّه يعلم أنّه سوف يتعرّض كثيرٌ من أهل بيته بعده للقتل والتّشريد، كما حصل مع الحسين رضي اللّه عنه في كربلاء.

أتبع كلامه بعدها بالرجوع إلى التوحيد وأن الرب واحد والكلام عن أب البشر آدم عليه السلام الذي هو أول إنسان فقد خلق من جميع تراب الأرض، الملك بأمر اللَّه – يعني عزرائيل – قبض قبضة من جميع أنواع تراب الأرض ورفعه إلى الجنة عجنة بماء من الجنة، خلق آدم من هذا ثم خلق زوجته حواء من أحد أضلاعه ثم خلق من مائيهما ذرية ومن خالف هذا فهو جاهل.

ثم كرر في خطبة حجة الوداع الوصية بتقوى اللَّه عز وجل ومخافته لأهميته وأكد ضرورة العدالة وأن التفضيل يكون بالتقوى لا بالحسب ولا باللون.

ختم نبيه ﷺ عليه خطبته بالكلام عن التوريث وأنصابه وأنه لا يجوز وصية لوارث فى أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر أي الولد لصاحب الفراش من الزوج أو السيد وللزاني الخيبة والحرمان وحذر من حرمة الادعاء إلى غير أبيه والمولى إلى غير مواليه.

أسانيد الشيخ جميل حليم الحسيني حفظه اللّٰه في حديث «خُطبة الوَداعِ»

هُوَ عن الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الرحمن الكتاني (المولود بسَلَا سنة ١٣٦٥هـ) وهو عن أبيه الشيخ عبد الرحمن بن محمد الباقر الكتاني (ت ١٤٠١هـ) وهو عن أبيه الشيخ أبي الهدى محمد الباقر الكتاني (ت ١٣٨٩هـ) **عن** أبي المكارم عبد الكبير بن محمد الكتاني (ت ١٣٣٣هـ) **عن** عبد الغنيّ بن أبي سعيد المجدِّدي الدهلوي (ت ١٢٩٦هـ) **عن** أبيه الشيخ أبي سعيدٍ أحمدَ بن الصَفِيّ عبد العزيز المجدِّدي الدهلوي (ت ١٢٥٠هـ) **عن** أبيه الشيخ عبد العزيز بن أحمد الدهلوي (ت ١٢٣٩هـ) **عن** أبيه الشاه أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ت ١١٧٦هـ) عن المنلا أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكَوْراني (ت ١١٤٥هـ) **عن** أبيه المنلا إبراهيم الكَوْراني المدني (ت ١١٠١هـ) **عن** المؤرِّخ أبي المَكارِم نجم الدين محمد بن بدر الدِّين محمد بن محمد الغَزِّي (ت ١٠٦١هـ) **عن** الفقيه أبي البَرَكات بدر الدِّين محمد بن رَضِيّ الدِّين محمد الغَزِّي (ت ٩٨٤هـ) عن القاضي زكريا الأنصاري الشافعيّ (ت ٩٢٥هـ) **عن** القاضي عِزّ الدِّين عبد الرحيم بن محمد بن الفرات (ت ٨٥١هـ) **عن** الحافظ أبي عمر عبد العزيز بن جَماعة الكِناني (ت ٧٦٧هـ) **عن** المسنِد أبي الفضل أحمد بن هبة اللّٰه بن أحمد بن عساكر الدمشقي (ت ٦٦٩هـ) **عن** مُسنِد خُراسان الصُّوفي المعمَّر أبي رَوْح عبدِ الْمُعِزّ بن محمد الهَرَوِيّ (ت ٦١٨هـ) **عن** المسنِد أبي القاسِم زاهِر بن طاهِر بن محمد الشَّحّامِي النَيسابوري (ت ٥٣٣هـ) **عن** أبي سعد الفقيه الطَبِيب محمد بن عبد الرحمن الكَنْجَرُوذِيّ (ت ٤٥٣هـ) **عن** حَفِيد ابن خُزَيمةَ أبي طاهِر محمد بن الفضل بن محمد (ت ٣٧٧هـ) **عن** جَدِّه الحافظ أبي بكر محمد ابن إسحٰق بن خزيمة بن المغِيرة السُّلَمِي النيسابوري الشافِعِيّ (ت ٣١١هـ) عن أحمد بن المقدام (ت ٢٥٣هـ) **عن** وهب بن جرير (ت ٢٠٦هـ) **عن** جَرِير بن حازم (ت ١٧٠هـ) **عن** محمَّد بن إسحٰق بن يَسار (ت ١٥١هـ) عن

أبي يَسارٍ عبد اللَّه بن أبي نَجِيحٍ (ت ١٣١هـ) **عن** أبي محمَّد عطاء بن أبي رَباح رضي اللَّه عنه (ت ١١٤هـ) **عن** الحَبر الصحابيّ الجليل عبد اللَّه ابن عباس رضي اللَّه عنهُما (ت ٦٨هـ) **عن** سيّد الأوَّلين والآخِرين نَبِيّنا محمَّد ﷺ.

وللشيخ جميل حليم حفظهُ اللَّهُ أسانيدُ أُخرَى للخُطبة مذكورةٌ في «**جَمْع اليَواقيت الغَوالِي**».

مَتنُ خُطبَةِ الوَداعِ

الحَمْدُ للَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَحُثُّكُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَأَسْتَفْتِحُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا مِنِّي أُبَيِّنْ لَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِيْ هَذَا فِي مَوْقِفِي هَذَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَين اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.

فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَن ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا أَلاَ كلُّ شَيءٍ مِنْ أَمْرِ الجاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ ودِمَاءُ الجاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دِمَاؤُنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِث كَانَ مُسْتَرْضَعًا بَنِي سَعْد فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ وَإِنَّ رِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَإِنَّ أَوَّلَ رِبًا أَبْدَأُ بِهِ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَإِنَّ مَآثِرَ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ غَيْرَ السِّدَانَةِ وَالسِّقَايَةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِأَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فِيمَا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ وَرَجَبُ بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقّاً، حَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ وَلَا يُدْخِلْنَ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ بُيُوتَكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ وَأَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرِحٍ، فَإِذَا انْتَهَيْنَ وَأَطَعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْراً. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ!.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ وَلَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ مَالُ أَخِيهِ إِلَّا مِنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ! فَلَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وسُنَّةَ نبيّه، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ وَلَا يَجُوزُ لِمُورِثٍ وَصِيَّةٌ أَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ. وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ، مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَمَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلَا عَدْلًا وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ.

العقيدة الإسلامية
معنَى الحَمد

قال رسول اللَّه ﷺ: **الحمد للَّه.**

(الحَمْدُ للهِ) هوَ الثناءُ عليهِ تعالَى والمدحُ لهُ باللِّسان على الجميل الاختياريّ على جِهة التبجيل والتعظيم على النعمة حسية كانت أو معنوية، ومعنى الجميل الاختياري أي الشيء الذي أنعم به على عباده من غير وجوب عليه، والمدح هو الثناء على الجميل مطلقًا، تقول حمدت زيدًا على علمه وكرمه، ولا تقول حمدته على حسنه، بل مدحته. وقيل هما أخوان. والشكر: مقابلة النعمة قولًا وعملًا واعتقادًا. قال الشاعر: [الطويل]

أفادَتْكُمُ النُعْمَاءُ منِي ثلاثَةً يَدي ولساني والضَّميرَ المُحجَّبا

فهو أعم منهما من وجه، وأخص من آخر ولما كان الحمد من شعب الشكر أشيع للنعمة، وأدل على مكانها لخفاء الاعتقاد، وما في آداب الجوارح من الاحتمال جعل رأس الشكر والعمدة فيه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**الحمد رأس الشكر، وما شكر اللَّه من لم يحمده**»[1].

وأردف التسمية بالحمد اقتداءً بأسلوب الكتاب العزيز، وعملًا بما صح من قوله ﷺ: «**كل أمر ذي بال**» أي حال يهتم به «**لا يُبْدَأ فيه بالحمد لله فهو أجذم**»[2] وفي رواية «**أقطع**» وفي أخرى «**أبتر**» أي قليل البركة، وفي رواية «ببسم اللَّه الرحمن الرحيم»، وفي أخرى «**بذكر اللَّه**» وبها يتبين أن المراد البداءة بأي ذكر كان، وقرن الحمد بالجلالة إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى يستحقه لذاته لا بواسطة شيء آخر.

وهذه الكلمة كلمة الحمد أول كلمة قالها أبونا آدم عليه السلام، وذكرت في

---

(١) شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، (٦/ ٣٠).

(٢) المصدر نفسه، (٦/ ٢١٤).

القرءان في مواضع كثيرة كالفاتحة حتى سميت بسورة الحمد ونحو قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ خاتمة دعائهم الحمد لله رب العالمين.

ولفظُ الجلالة «اللَّه» علمٌ للذات المقدس الموصوف بالإلهية وهي القدرة على الاختراع أي إبراز المعدوم إلى الوجود، وهذا معنى الخَلْقِ الذي هو خاصٌّ بالله، ولفظ الجلالة اسم اللَّه الأعظمُ المفرد بالإجماع، مرتجَلٌ ليس مُشتَقًّا مِن فعل ماضٍ ولا مِن مصدر، وهذا الذي نقله الفيروزءابادي في القاموس وابنُ يَعِيشَ النَحْويُّ وعزاه إلى سِيبويهِ رضي لله عنه. ولفظ الجلالة لا شَكَّ هو أجملُ وأحلى لفظ في العربية. قال مُحِبُّ الدين الحَلَبِيّ المعروف بناظر الجيش في كتابه «تمهيد القواعد بتسهيل الفوائد» ما نصُّه: «ومِن الأعلام التي قارَن وضعُها وجود الألف واللام «الله» تعالى المنفرِد به، وليس أصلُه الإله كما زَعَم الأكثرون».

قوله ﷺ: نَحْمَدُهُ.

(**نَحْمَدُهُ**) هو استِئنافٌ، فقد أثبَتَ له الحمدَ أَوَّلًا بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام، فهو إخبار مُتضَمِّن للإنشاء، وأخبر ثانِيًا عن حَمدِه وحَمدِ غيرِه معَه بالجملة الفِعلية التي هي فِعلُ العَبدِ عِندَ تَجَدُّد النَّعماء وتَعَدُّد الآلاء وحُدوثها في الآناءِ.

وقد روى أبو نُعَيم في الحلية والطبراني في الدعاء مِن الحديث الموقوف على ابن عباس قال: «**وَمَنْ قَالَ الحَمْدُ للهِ فَقَدْ شَكَرَ اللَّهَ**»[1] أي الشكرَ المندوب.

فالشُّكر نَوعان: شُكرٌ واجب وشكر مندوب:

فالشكر الواجب :هو ما على العبد مِن العمل الذي يدلّ على تعظيم الْمُنْعِم الذي أنعم عليه وعلى غيره بِعدَم استعمال هذه النِّعمة في معصية اللَّه، وهذا هو الشكر المفروض على العبد، قال اللَّه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ].

(١) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، (١/ ٣٢٢).

معناه أغلبُ الناس ليسوا أتقياء.

وأما الشُّكر المندوبُ: فهو الثناء على اللَّه تعالى الدالُّ على أنه هو المتفَضِّلُ على العباد بالنِّعم التي أنعم بها عليهم مما لا يَدخُل تحت إحصائهم لها، وذلك كقول الحامِد له: «**الحمدُ للَّهِ**».

قال الإمام الهرريّ رضي اللَّه عنه: «أخرج الحافظ السيوطي في كتابه الحاوي للفتاوى: روى ابن عبّاسٍ رضي اللَّه عنهما قال: لمّا قدم النّبيّ ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسئلوا عن ذلك، فقالوا: «هو اليوم الذي أظهر اللَّه موسى وبني إسرائيل على فرعون ونحن نصومه تعظيمًا له»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**نحن أولى بموسى**»[1]. وأمر بصومه أمر استحبابٍ. يستفاد من هذا الحديث فعل الشّكر لله تعالى على ما تفضّل به في يومٍ معيّنٍ من حصول نعمةٍ أو رفع نقمةٍ، ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنةٍ، والشّكر للّه يحصل بأنواع العبادة كالسّجود والصيام والصّدقة والتلاوة، وأيّ نعمةٍ أعظم من نعمة بروز النّبيّ ﷺ».

وقال رضي اللَّه عنه: «علم الدين دليل الفلاح والنّجاح والنّجاة في الآخرة وبه يعلم شكر اللَّه تعالى، لأنّ شكر اللَّه هو طاعته، أداء الواجبات واجتناب المحرّمات، هذا الشّكر».

معنَى الاستِعانة

قوله ﷺ: وَنَسْتَعِينُهُ.

(**وَنَسْتَعِينُهُ**) أي نَستَعِين بالله أي نَطلُب مِنه العَونَ في حَمْدِنَا له وفي غير ذلك من الأمور الدينيّة والدُّنيويّة، أما الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي «**إذا سألت**

---

(١) () **صحيح البخاري**، البخاري، (٧٠٤).

فاسأل اللَّه وإذا استعنتَ فاستعِن باللَّه»[1] ليس معناه أنه لا يجوز الاستعانة بغير اللَّه بل معناه أنه من الأكمل الاستعانة بالله ويقال للمعارض لو كان المعنى كما تقول فماذا تقول في تفسير حديث رسول اللَّه ﷺ الذي رواه أبو داوود في سننه «**لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[2] ليس معنى الحديث أنه لا يجوز أن يأكل من طعامك إلا التقي لأن المفسرين أجمعوا على جواز إطعام الكافر لقوله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [سورة الإنسان] والأسير هنا الكافر بإجماع المفسرين.

وفي ذلك رَدّ على المعتزِلة القَدَرِيّة ودليل على أنّ حمده تعالى أمرٌ لا يتيسر مِن الخلائق أجمعينَ إلا بإعانته تعالى.

فالاستطاعة عند أهلِ السنّة والجماعة نوعان: استطاعةٌ مقارنة للفِعل، وأُخرى كائنةٌ قبل الفعل، ويقال لهما القُدرة الظاهرة والباطنة أيضًا. فأمّا الاستطاعة الباطنة فهي التي يُوجد بها الفعل أي يُحدِثُها اللَّه مقرونةً بالفِعل، فإن كانت في الطاعات سُمِّيَتْ تَوفيقًا وإن كانت في المعاصي سُمِّيَت خِذْلانًا، ولا شكّ أنّ العبد يكون في ذلك كُلِّه مُفتَقِرًا إلى اللَّه تعالى في كُلِّ لَمْحَةٍ ولَحظةٍ، وهذه هي حقيقة العُبُودِيّة. وأمّا الاستطاعةُ الظاهِرةُ فهي القُدرة الظاهِرةُ مِن جِهةِ الوُسْع والتَّمكِين وسَلامة الأسباب والآلات وتكون متقدِّمة على الفعل، وخالَفت المعتزلة والضِّراريّة وكثيرٌ مِن الكرّاميّة مُدَّعِين تقديم الاستطاعة الظاهرة على الفعل، وذلك باطِلٌ من وجوهٍ، مِنها أنّ في القول بتقديم قدرة الفعل على الفعل قولًا بالاستغناء عن اللَّه وذلك محال.

---

(١) سنن الترمذي، الترمذي، (٤/ ٦٦٧).

(٢) سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، (٤/ ٢٥٩).

معنَى الاستِغفار

قوله ﷺ: وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ.

(**وَنَسْتَغْفِرُهُ**) أي ونَطلُب مِن اللَّه أن يغفر سيئاتنا[1]، والعفوَ عن تقصيراتِنا، واعلم أنه يجب للأنبياء العصمة من الكفر والكبائر وصغائر الخسة والدناءة كسرقة لقمة ويجوز عليهم ما سوى ذلك من الصغائر. وهذا قول أكثر العلماء كما نقله غير واحد وعليه الإمام أبو الحسن الأشعري.

قاعدة في عِصْمة الأنبياء

قال الشيخ محمد بن محمد الفِهريّ المعروف بابن التلمساني في «شرح لُمَع الأدلة» ما نصُّه: «لا يجوز عليهم الكبيرة ألبتة ويجوز تعمد الصغيرة بشرط عدم الإصرار، ولا يجوز منهم صغيرة تدل على خساسة النفس ودناءة الهمة كتطفيف حبة وسرقة باقة بقل»، ثم قال: «وأما عصمتهم عن الكبائر والإصرار على الصغائر وعن كل صغيرة تؤذن بقلة الاكتراث بالديانات فمستند إلى الإجماع القاطع، فإن السلف رضي اللَّه عنهم لم يزالوا يحتجون بالنبي بأفعاله وأقواله ومتبادرون إلى التأسي به، وجميع الظواهر التي اعتمد عليها الحشوية قابلة التأويل»، «وأما يونس فقيل: إنما كرّمه اللَّه بالنبوة والرسالة بعد أن نُبِذ بالعراء قال اللَّه عز وجل: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾[سورة القلم]، وأما نبينا ﷺ وعليهم أجمعين في قصة الفداء في أُسارى بدر والإذن للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك وعُبُوس الوجه لابن أمِّ مكتوم فكلُّ ذلك ترك للأولى».

وقال التلمساني ما نصه: «اعلم أنه لما ثبت صدق الرسول ﷺ وعصمته فيما

---

(١) أي لغير النبيّ، فالنبي معصوم، وهي فضل من الله ولطف بهم عليوجه يبقى اختيارهم بعد العصمة في الغقدام على الطاعة والامتناع عن المعصية.

يبلغه عن اللَّه تعالى وجب التصديق بكل ما أخبر من أمور الغيب جملة وتفصيلًا، فإن كان مما يُعلم تفصيله وجب اعتقاده، فإن لم يُعلم تفصيله وجب أن يؤمن به جملة ويرد تأويله إلى اللَّه تعالى ورسوله ولمن اختصه اللَّه عز وجل بالاطلاع على ذلك».

قَالَ الحَافِظُ السُّيُوْطِيُّ فِي الخَصَائِصِ الكُبْرَى: «قَالَ السُّبْكِيُّ فِي تَفْسِيْرِهِ: «أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء فيما يتعلق بالتبليغ وفي غير ذلك من الكبائر ومن الصغائر الرذيلة التي تحط مرتبتهم ومن المداومة على الصغائر هذه الأربعة مجمع عليها».

وعن أنسِ بن مالكٍ رضي اللَّه عنه قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ ءادَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ ءادَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي**[1]، **يَا ابْنَ ءادَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**[2]».

قال اللَّه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [سورة نوح]. معنى الآية اطلبوا من اللَّه المغفرة بترك الكفر والدخول في الإسلام، فإنه يجب على مَن وقعت منه ردّة أن يعود فورًا إلى الإسلام بالنطق بالشهادتين والإقلاع عما وقعت به الردة، ولا يكفي للدخول في الإسلام قول «أستغفر اللَّه» بدل الشهادتين، ويدل على ذلك ما رواه ابن حبان عن عمران بن حصين قال: أتى رسولَ اللَّه ﷺ رجلٌ فقال: «يا محمد، عبد المطلب خير لقومه منك كان يُطعمهم الكبد والسنام وأنت تنحرهم[3]،

---

(١) معناه أنَّ اللَّه تعالى يغفر لعبده المسلم مهما عظمت ذنوبه ومهما كثرت، ولو ملأت ما بين السماء والأرض، ولو كانت بعدد الرمال والأمطار وأوراق الشجر، ولو كانت بثقل الجبال، لا ينقص ذلك من فضل اللَّه شيئًا، فهو تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وصفاته تعالى ليست كصفات خلقه، ولا يغير ذلك في صفاته شيئًا، فهو لا ينضر بمعصية خلقه ولا ينتفع بطاعتهم.

(٢) سنن الترمذي، الترمذي، (٥/ ٥٤٨).

(٣) وهذا كُفرٌ.

فقال له ما شاء اللَّه[1]، فلما أراد أن ينصرف قال: ما أقول قال: «**قل اللَّهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري**»، فانطلق الرجل ولم يكن أسلم، وبعد أن دخل في دين الإسلام جاء للنبي ﷺ وقال لرسول اللَّه: «**إني أتيتك فقلت علمني**» فقلتَ: «قل اللَّهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري، فما أقول الآن حين أسلمتُ» قال: «**قل اللَّهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري، اللَّهم اغفر لي ما أسررت وما أعلنت وما أخطأت وما عمدت وما جهلت**[2]». والدليل فيه أن الرسول ﷺ لما جاءه هذا الرجل كافرًا لم يأمره بالاستغفار باللسان لأنه لا ينفعه وهو على كفره، ثم لما جاءه وقد أسلم أمره بالاستغفار. وروى هذا الحديث أيضًا النسائي في عمل اليوم والليلة وأحمد في مسنده، وعند النسائي ذكر اسم الرجل وهو حصين.

فالمرتد إذا قال «أستغفر اللَّه» قبل أن يتشهد لا يزداد إلا ذنبًا، لأن معناه «اللهم اغفر لي وأنا كافر بك»، وذلك مراغمة للدين فيكون ذلك منه زيادة كفر.

وليس معنى الآية أن نوحا عليه السلام أمر قومه بقول «أستغفر اللَّه» مع عبادتهم للأصنام، بل المعنى اطلبوا من اللَّه أن يغفر لكم بدخولكم في الإسلام، بتشهدكم، فيغفر لكم.

قال القرطبي في تفسيره «**الجامع لأحكام القرءان**» ما نصه ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾[سورة نوح]. أي إلى سبب المغفرة وهي الإيمان بك والطاعة لك».

وقال «قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [سورة نوح] أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان» اهـ. أي بأن تتركوا الكفر وتسلموا.

وقال الإمام البغوي: «وذلك أن قوم نوح لما كذبوه زمانا طويلا حبس اللَّه عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فهلكت أولادهم وأموالهم ومواشيهم، فقال

---

(١) أي رَدَّ عليه بما شاء اللَّهُ له أن يَرُدَّ.

(٢) صحيح ابن حبان، ابن حبان، (٣/ ١٨٢).

لهم نوح: استغفروا ربكم من الشرك[1]، أي استدعوا المغفرة بالتوحيد».

وروى مطرف عن الشعبي أن عمر رضي اللَّه تعالى عنه خرج يستسقي بالناس، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فقيل له: ما سمعناك استسقيت؟ فقال: طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[سورة نوح] قال عطاء: «يكثر أموالكم وأولادكم، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا».

وقد نقل الإجماع على أن الرجوع للإسلام يكون بالشهادتين، الحافظ محمد ابن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٣١٨هـ في كتابه «الإجماع»، والحافظ أبو الحسن علي بن القطان الفاسي المتوفى سنة ٦٢٨هـ في كتابه «الإقناع في مسائل الإجماع» قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة التوبة]، ومعنى استغفار إبراهيم لأبيه الذي كان كافرًا وهو على كفره، أن يطلب من اللَّه المغفرة لأبيه بالدخول في الإسلام لأن الإسلام كفارة الكفر، قال اللَّه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الأنفال]، وانتهاؤهم يكون بالدخول في الإسلام، والدخول في الإسلام يكون بالشهادتين، وعلى ذلك يُحمَل قول رسول اللَّه ﷺ في حق أبي طالب حين عرض عليه الإسلام فأبى: «**لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك**[2]» أي أطلب لك من اللَّه الهداية للإسلام فيُغفَر لك بالإسلام ، أي ما لم يوحِ اللَّه إليَّ أنك تموت كافرًا.

قال الفخر الرازي في «التفسير الكبير» ما نصه» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء]، والمعنى أنه تعالى أخبر عنهم أنه

(١) والاستغفار يكون بالإسلام لا غير والمعنى اطلبوا من اللَّه أن يغفر لكم بدخولكم في الإسلام.
(٢) صحيح البخاري، البخاري، (٢/ ٩٥).

يدخلهم النار، فطلبُ الغفران لهم جار مجرى طلب أن يخلف اللَّه وعده ووعيده وذلك لا يجوز». ثم قال «المراد من استغفار إبراهيم لأبيه دعاؤه له إلى الإيمان والإسلام، وكان يقول له: آمِن حتى تتخلص من العقاب وتفوز بالغفران، وكان يتضرّع إلى اللَّه - يدعو لوالده - في أن يرزقه الإيمان الذي يوجب[1] المغفرة، فهذا هو الاستغفار، فلما أخبره اللَّه تعالى بأنه يموت مصرًّا على الكفر، ترك تلك الدعوة».

قال الحافظ المحدث الشيخ عبد اللَّه الهرري رحمه اللَّه تعالى، في كتابه «**الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم**»: «وإذا قال: أستغفر اللَّه قبل أن يجدد إيمانه بقوله أشهد ألاّ إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه وهو على حالته هذه فلا يزيده قوله أستغفر اللَّه إلا إثما وكفرًا، لأنه يكذّب قول اللَّه تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة النساء] ثم قال: «هذا بالنسبة لمن كان مسلمًا ثم كفر، أما من لم يكن مسلمًا ثم دخل في الإسلام فإنّ اللَّه يغفر كل ذنوبه التي عمِلها قبل ذلك، كل ما كان عمله من الذنوب قبل الإسلام عندما ينطق بالشهادتين تُمحى عنه كلها لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ**[2]». (هذا بالنسبة للكافر الأصلي أما المرتد فاذا تشهد ورجع الى الإسلام يمحى عنه كفره فقط وأما بقية الذنوب فيتوب منها بعد إسلامه ولا تمحى عنه بمجرد الاسلام) وهذا حديث صحيح رواه مسلم، الدخول بالإسلام يكون بأن يعتقد بقلبه معنى الشهادتين وينطق بلسانه، فإذا حصل من شخص أنه كان مسلمًا وحصل منه كفر حتى يرجع الى الإسلام لا بد له من النطق بالشهادتين، ولا يكفي أن يقول مثلاً: أستغفر اللَّه، إذا قال أستغفر اللَّه قبل أن يرجع الى الإسلام بقوله أشهد ألاّ إله إلا اللَّه وأشهد أنّ محمدًا رسول اللَّه وهو بعد على حالته هذه لا يزيده قوله أستغفر اللَّه إلا إثمًا، لأنه يكذّب قول اللَّه عز وجل: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾ [سورة النساء].

---

(١) أي يُثبِتُ.

(٢) صحيح مسلم، مسلم، (١/ ١١٢).

تنبيه: إذا انسان قال لكم أريد أن أدخل الإسلام ماذا أفعل؟ لا يجوز أن يقال له: انتظر حتى أنهي ما بيدي ثم أدلّك، ولا يجوز أن يقال له: قل أستغفر اللَّه، ولا يجوز أن يقال له: اذهب واغتسل ثم ارجع وأعلمك بل يكون صار كافرًا، لأنه رضي له أن يبقى على الكفر هذه المدّة، لأنه جاءه يطلب منه الدخول في الإسلام فلا يجوز أن يُؤخّره عن ذلك، وقد كان رسول اللَّه ﷺ مرّةً يخطب في الناس، فقام واحدٌ فسأله عن الإسلام فالنبي فورًا قطع كلامه وأجابه ولذلك قال ابن فَرحوُن في تبصرة الحكّام: قال شِهاب الدين القرافي «إنّ الذي يخطب الجُمُعة إذا رأى كافرًا يريد أن ينطق بالشهادتين فقال له اصبر حتى أفرغ من خطبتي فإنه يُحكم بكفر الخطيب، لأنه لم يقل له فورًا انطق بالشهادتين بل أخّره، معناه رضي له أن يبقى هذه المدّة على الكفر، ومن رضي الكفر لإنسانٍ صار هو كافرًا ومن أمر إنسانًا بالكفر هو صار كافرًا». وقد ذكر ما يُشبه ذلك غير القرافي من العلماء مثل ابن حجر الهيتمي والحافظ النووي وغيرهم.

الدُّعاء للمؤمِنين والمؤمِنات بمغفرة الذُّنوب

قال الشَّوبري في تجريده حاشية الرملي الكبير ما نصه: «وجزم ابن عبد السلام في الأمالي والغزالي بتحريم الدعاء للمؤمنين والمؤمنات بمغفرة جميع الذنوب وبعدم دخولهم النار، لأنَّا نقطع بخبر اللَّه تعالى وخبر رسول اللَّه ﷺ أن فيهم من يدخل النار.

وأما الدعاء بالمغفرة في قوله تعالى حكاية عن نوح: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [سورة نوح]، ونحو ذلك فإنه وردَ بصيغة الفعل في سياق الإثبات، وذلك لا يقتضي العموم لأن الأفعال نكراتٌ، ولجواز قصد معهود خاص وهو أهل زمانه مثلا. وكذا قال الرملي في شرح المنهاج، فليس معنى الآية اغفر لجميع المؤمنين جميع ذنوبهم.

وهذا الدعاءُ أي بعدم دخول أحدٍ من أهل الإسلام النارَ فيه ردٌّ للنصوص، وردُّ النصوص كُفرٌ كما قال النسفي في عقيدته المشهورة.

وقد قال أبو جعفر الطحاوي:» والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام». وهذه عقيدة المرجئة، وهم من الكافرين من أهل الأهواء وذلك لقولهم لا يضر مع الإسلام ذنب كما لا تنفع مع الكفر حسنة.

وقد قال أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر المكي الهيتمي في كتابه «الإعلام بقواطع الإسلام» ما نصه «واعلم أن الدعاء ينقسم الى كفر وحرام وغيرهما، فما هو كفر أن يسأل نفي ما دل السمع القاطع على ثبوته كاللهم لا تعذب من كفر بك أو اغفر له أو لا تخلد فلانا الكافر في النار لأن ذلك طلب لتكذيب اللَّه تعالى في ما أخبر به وهو كفر».

وقد ورد في فضل الاستغفار حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ قَالَ: حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ بُشَيْرِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ. إِذَا قَالَ حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ**»[1].

معنَى التَّوبةِ

(**وَنَتُوبُ إِلَيْهِ**) أي ونطلُب المغفرة منه ونريد التوبة، فكأنه قال: «اللَّهُمَّ اغفِر لنا ووفِّقنا لِلتَّوبة»، أو أنّه أُتِي بها بعد الاستغفار تأكيدًا لمضمون «نَستَغْفِرُه» وإيماءً

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٨/ ٦٧).

إلى اعتبارها في حصول أثَرِه، وفي ذلك تعليم مِن النبيّ ﷺ لأمّته وأما قوله تعالى في حق نبيه ﷺ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[سورة الفتح] هو على القول المعتمد أن الأنبياء يجوز عليهم الصغائر التي ليس فيها خسة ولا دناءة أما هذه الآية بعض العلماء قالوا ليحفظك اللَّه من ذنبك فيما مضى وما بقي من عمرك، ولكن القول المعتمد أن الأنبياء تجوز عليهم الصغائر التي ما فيها خسة ولا دناءة كسرقة حبة عنب والنظر بشهوة إلى النساء وغيرها من الصغائر يجوز.

وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كمَن لا ذنْبَ لهُ[1]» وهو حديثٌ صحيحٌ.

بيانُ شُروط التَّوبة وأقسامِها

فتوبة الكافر: تكون بالدخول في الإسلام بالنطق بالشهادتين مع ترك ما الكُفر وكذلك هي توبة الكافر المرتدّ، وهذا إجماع لا خلاف فيه بين علماء الأمة الإسلامية، ودليله قول اللَّه تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد]، فهذا دليلٌ على تقدم الأصل على الفرع، ومن الحديث المتواتر: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[2]. والإجماع الذي نقله الحافظ الإمام أبو بكر بن المنذر في كتابيه «الإشراف» و«الإجماع»، فلا نقول لمن كفر قُل: أستغفر اللَّه، بل نقول له: قل: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه.

وأما استحضار الندم والعزم حين التلفظ بالشهادتين فليس شرطًا لصحة الرجوع إلى الإسلام، إنما هو من كمال التوبة، فالشرط أن لا يعزم على الكفر في المستقبل

---

(١) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (٢/ ١٤١٩).

(٢) صحيح البخاري، البخاري، (١/ ١٤).

ولا يتردد في ذلك فإنه إن نوى أن يعود إلى الكفر فلا تنفعه الشهادة لأن العزم على الكفر في المستقبل كفر في الحال. فلو لم يخطر بباله أنه لا يعود إلى الكفر بعد هذا ولا نوى الرجوع إلى الكفر ولا تردد في ذلك ولا استحضر الندم إنما ترك الشيء الذي هو ردة وتشهد صح إسلامه، لكن يبقى عليه شرطان واجبان لكمال التوبة أحدهما الندم والشرط الثاني العزم على أن لا يعود للكفر، هذان واجبان لكن ليسا شرطًا لصحة الرجوع إلى الإسلام.

وتوبة العاصي: المؤمِن تكون بالندم أسفًا على عدم رعاية حقِّ اللَّه، وبالإقلاع عن الذَّنبِ في الحال والعزم على أن لا يعود إلى الذنب. وأما التوبة من المعصية التي حصلت بترك فرض أو تبعة يزاد فيها قضاء ذلك الفرض، فإن كان المتروك صلاة قضاها فورًا، وإن كان ترك نحو زكاة مع الإمكان فتتوقف صحة التوبة على إيصالها لمستحقيها، وإن كانت المعصية تبعة لآدمي ردَّ تلك المظلمة فيرد عين المال المغصوب إن كان باقيًا وإلا فبدله أو يستسمحه.

فائدة: ليُفَكّر العاقلُ منا في قولِ اللَّه تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة ق] فإنَّ مَن فكَّر في ذلكَ علِم أنَّ كلَّ ما يتكلم به في الجدّ أو الهَزْل أو في حالِ الرّضَى أو الغَضَبِ يسَجّلهُ المَلكانِ، فهَلْ يَسُرُّ العاقلَ أن يَرى في كتابِه حينَ يُعْرَضُ عليه في القيامةِ هذِه الكلماتُ الخبيثةُ؟ بل يسوؤُه ذلكَ ويُحزنُه حينَ لا ينفَعُ النَّدمُ فليعتَن بحِفْظِ لسانِه مِنَ الكلامِ بما يَسُوؤُه إذا عُرِضَ عليه في الآخرةِ، الملائكةُ الموكَّلونَ بكتابةِ عملِ العبدِ يكتبونَ ما يلفظُ بهِ هذا الإنسانُ من حسناتٍ أو سيّئاتٍ من القولِ وما كانَ من المباحاتِ أيضًا، ولم يَرد في الحديثِ أن الذي يَكتبُ الحسناتِ يكونُ على الكتفِ الأيمنِ والآخر على الكتفِ الأيسرِ وإنما وَرَدَ أن أحدَهما يكونُ في جهةِ يمينِهِ والآخرَ في جهةِ شِمالِهِ.

وفي هذه الآيةِ التَّحذيرُ من أن يتكلَّمَ الإنسانُ بما لا خيرَ فيه، فَيُعلَمُ من هذا أن الإنسانَ لا يُعفَى من كتابَةِ أقوالِهِ كُلّها ما كانَ منها حسنة من الحسناتِ كأمرٍ

بمعروفٍ ونهي عن منكرٍ وذِكرِ اللَّه تعالى وغيرِ ذلكَ وما كانَ منها من السّيئاتِ من كُفرٍ وما دونه، ويكتبونَ أيضًا المباحات أي الكلام الذي ليسَ بحسَنةٍ ولا سيّئةٍ كأن يقولَ اعملوا لي شايًا أو اعملوا لي طبيخًا وكقوله كُلْ أو اقعد أو اذهَب. فإذا كانَ الأمرُ كذلكَ فينبغي للإنسان أن لا يتكلَّمَ بالشَّر بل عليهِ أن يحفظ لسانهُ هذا الذي هو نعمةٌ من نِعَمِ اللَّه عن أن يتكلّمَ به معصية من المعاصي سواء كانَ في حالِ الجِدّ أو المَزحِ أو حالِ الرّضَا أو حالِ الغَضَبِ لأنه يُعرَضُ عليهِ يومَ القيامةِ فإذا رأى في كتابِهِ الذي يتناولهُ يومَ القيامَةِ من أيدي الملائِكَةِ القبائِحَ من كفرٍ أو من مَعاصٍ فإنهُ يسوؤهُ يومَ القيامَةِ، ولا يوجدُ يوم القيامة استغفارٌ تُمحَى به المعصيةُ، إنما الاستغفارُ يَنفَعُ في الدنيا. ثم أيضًا إذا تَابَ الإنسان من كلامٍ هو من السيّئاتِ يُمحَى ذلكَ الكلامُ من صحيفتِهِ أي يمحوهُ المَلَكُ الموكَّلُ بذلكَ قالَ عبدُ اللَّه ابن عبّاسٍ: «ما كانَ من المُبَاحَاتِ من كلامِ العبدِ يُمحَى وتُثْبَتُ الحسناتُ والسَّيئاتُ».

معنَى الاستِعاذةِ

قوله ﷺ: **وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا.**

(وَنَعُوذُ بِاللَّهِ) أي ونَستَجِير به ونعتصم من كيت وكيت مِن الْمَكارِه والشُّرور. وكان ﷺ يستعيذ بالله مِمّا يُستعاذ به منه إظهارًا للعبودية وتعليمًا للأُمّة، وقد رُوِي في الحديث ﷺ قال: «**إِذَا دَخَلْتُمُ الْخَلَاءَ فَقُولُوا بِسْمِ اللَّهِ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ**»[1]، ومِمّا يَدُلّ على أنّ هذه الاستعاذة مِنه ﷺ تَواضُع وتَعلِيمٌ لُأمّته وإلا فهو محفوظ، وبدليل ما جاء عنه في الخبر: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ**»، قيل له: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه؟قَالَ: «**وَلاَ أَنَا إلا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»[2] وكذلك ما جاء من أنّه ﷺ رَبَط عِفريتًا في سارية مِن سواري المسجد.

---

(١) صحيح البخاري، البخاري، (١/ ٤٠).

(٢) سنن النسائي، النسائي، (٧/ ٧٢).

فنَستَعِيذ باللَّه (**مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا**) أي نَعتَصِم به مِن ظُهور شُرور أخلاقِ أنفُسِنا الرَّدِيّة وأحوال طباع أهوائنا الدَّنِيّة، فَنفسُ العبدِ أَمّارة بالسُّوء مَيّالة إلى الهوى والأغراض الفاسِدة إلّا مَن حَفِظه اللَّه، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴿٥٣﴾﴾[سورة يوسف]، وهذا مِنه ﷺ تعليمٌ لأُمَّتِه فينبغي مراقبة أنفسنا والانتباه إلى أقوالنا وأعمالنا ونوايانا. يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾[سورة الزلزلة]، فليحدد كلٌّ منا ساعةً كلَّ يومٍ من أجل أن يحاسب نفسه فيجلس ليرى ما فعله في نهاره ساعة بساعة، فإن فعل خيرًا حمد اللَّه تعالى على توفيقه لفعل الطاعة، وإن فعلَ المعصية وبَّخ نفسه وانتهرها وتاب إلى اللَّه تعالى.

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللَّهم اجعلنا من التوابين المراقبين لأنفسهم الصائنين لها عن المحظورات.

العمَلُ الحسَنُ والعمَل السيِّئُ

قوله ﷺ: وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا.

وَنَستَعِيذ بالله (**مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**) أي مِن مباشرة الأعمال السيّئة الظاهرة التي تَنشأ عنها، فلولا حِفظُ اللَّه تعالى للعبد مع توفيقه لَمَا استقام أحَدٌ على الطريق القويم، وقد جاء في الحديث الصحيح أنّ النبيّ ﷺ كان يَنقُل التراب يوم الخَنْدق حتَّى أُغْمِرَ بَطنُه أو اغْبَرَّ بَطنُه وهو يقول: «وَاللَّهِ لَوْلاَ اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا، إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا[1]».

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٨/ ١٢٧).

فائدة: معلومٌ عند أهلِ الحقّ أن اللَّه خالقُ الخيرِ والشَّرّ وعلى هذا اتَّفَقَ أهلُ الحقّ، فإيمانُ المؤمنين وطاعاتُهم وكفرُ الكافرين كلٌّ بخلقِ اللَّه تعالى ومشيئتِهِ، إلا أن الخيرَ الإيمانَ والطَّاعةَ بخلقِ اللَّه ومشيئتِهِ ورضاهُ، والشرَّ أي الكفرَ والمعاصيَ بخلقِ اللَّه يحصُلُ من العبادِ لا برضاهُ بل نهاهم عن ذلك، وهو اللَّه سبحانه وتعالى فعَّالٌ لما يريدُ لا يُسأَلُ عما يفعلُ، ولا يجوزُ قياسُ الخالِقِ على الخَلقِ كالذي يقولُ كيف يكونُ خالق الشَّرّ فينا ثم يحاسبُنا في الآخرةِ على الشَّرّ فقد قاسَ الخالقَ على الخَلقِ وذلك ضلالٌ بعيدٌ، لا يتمُّ أمرُ الدّين إلا بالتَّسليمِ لله فمن سَلَّم لله سَلِمَ ومن تَرَكَ التَّسليمَ له فاعتَرَضَ لم يَسلَم.

فإن قيلَ أليسَ اللَّه تبارك وتعالى قال: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [سورة ءال عمران] اقتصرَ على ذكرِ الخيرِ ولم يَقُل والشَّرُ فكيف يجوزُ أن يقالَ إنه خالقُ الخيرِ والشرّ؟ فالجواب: في مواضعَ أخرى من القرءانِ ما يفيدُ أن اللَّه تعالى خالقُ كلّ شيءٍ، والشّيءُ يشمَلُ الخيرَ والشرَّ قال اللَّه تبارك وتعالى لنبيّه محمّدٍ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾[سورة ءال عمران] فَعَلِمنا من قوله تعالى أنه هو خالقُ الخيرِ والشرّ لأنه هو الذي ءاتى أي أعطَى المُلكَ للملوكِ الكفرةِ كفرعونَ والملوكِ المؤمنينَ كذي القرنين، فليس في تَركِ ذكرِ الشرّ مع الخيرِ في قوله تعالى﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [سورة ءال عمران] دليلٌ على أن اللَّه تعالى لَيسَ خالقًا للشّرّ، وهذا عندَ علماءِ البيانِ يُسمَّى الاكتفاءَ أي تركَ ذِكرِ الشيءِ للعلمِ به بذكر ما يقابله.

وأما قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾[سورة النساء] فالحسنةُ معناها هنا النّعمةُ، والسَّيّئةُ هنا معناها المصيبةُ والبليَّةُ، فمعنَى الآية ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي ما أصابَك أيها الإنسان من نعمةٍ فمن فضلِ اللَّه عليكَ ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي وما أصابَكَ أيها الإنسان من مُصيبةٍ وبليَّةٍ فمن جزاءِ عملِكَ، أعمالُ الشرّ التي عملتَهَا نجازيكَ بها بهذه المصائبِ والبلايا، وليس المعنى أنكَ أنتَ أيها الإنسانُ تَخلُقُ الشَّرَّ فالعبدُ لا يخلُقُ شيئًا لكن يكتسبُ الخيرَ ويكتسبُ

الشَّرَّ والله خالقهما في العبدِ. وهذا التقريرُ معروفٌ عند كثيرين، وهناكَ تقريرٌ ءاخرُ للآية ينبغي أن يؤخَذَ بهِ ويُترَكَ التقريرُ السابِقُ وهو أن معنَى قولهِ تعالى ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة النساء] محكيٌّ عن المشركينَ بتقدير محذوفٍ وهو «يقولون أو قالوا» فيكونُ التقديرُ يقولونَ أو قالوا لمحمدٍ ما أصابَكَ من حسنةٍ أي نعمةٍ فمنَ اللَّه وما أصابَكَ مِن سيئةٍ أي مصيبةٍ فمنك يا محمدُ أي من شؤمِكَ، وهذا التقريرُ خالٍ عن الإشكالِ بخلافِ الأولِ فإن فيه إشكالا، وقد قال هذا التقريرَ علماءُ منهم السيوطيُّ الشافعيُّ والقونويُّ الحنفيّ.

الهِدايةُ والضَّلالةُ

قوله ﷺ: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ له.

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ) أي مَن شاءَ اللَّه له في الأزلِ بِفَضلِه أن يكون مُهتديًا إلى الحَقِّ في الوقتِ المعلوم **(فَلَا مُضِلَّ لَهُ)** أي لا أحد يَجعلهُ ضَالًّا ومثل ذلك نزل آيات ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [سورة الكهف] مثل ما مر في سبحان الذي هو قوله: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ [سورة الإسراء] أي من وفقه اللَّه لقبول ما كان من الهدى هو المهتدي عند اللَّه ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾[سورة الكهف] أي ومن يخذله ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ [سورة الإسراء] أي أنصارًا وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في اللَّه وأسلموا له وجوههم فأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية أما من أضله فلا هادي له.

وقد رُوِي بإسنادٍ صحيحٍ أنّ عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَبَ النّاسَ بِالْجَابِيَةِ[1]، وَالْجَاثَلِيقُ[2] مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالتَّرْجُمَانُ يُتَرْجِمُ، فَقَالَ عُمَرُ: «مَنْ يَهْدِ

(١) مَدينة بالشّام.

(٢) قال في «القاموس المحيط»: «رَئِيسٌ للنَّصارَى في بلادِ الإسْلام بمدينة السلام، ويكونُ تحتَ يَدِ بِطْرِيقِ أَنْطاكِيَةَ، ثم الْمَطْرانُ - بفتح الميم - تحتَ يَدِهِ، ثمَ الأُسْقُفُّ يكونُ في كَلِّ بَلَدٍ مِن تحتِ=

اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ»، فَقَالَ الْجَاثَلِيقُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُضِلُّ أَحَدًا، فَقَالَ عُمَرُ: «مَا يقُولُ؟»، فَقَالَ التُّرْجُمَانُ: لَا شَيءَ، ثُمَّ عَادَ فِي خُطْبَتِهِ، فَلَمَّا بَلَغَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، قَالَ الْجَاثَلِيقُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُضِلَّ أَحَدًا، فَقَالَ عُمَرُ: «مَا تَقُولُ؟»، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَوْلَا وَلْتُ عَهْدٍ لَكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ، بَلِ اللَّهُ خَلَقَكَ وَاللَّهُ أَضَلَّكَ، ثُمَّ يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

فمَعنى كلامِ عُمرَ رضي اللَّه عنه أنّ اعتقادَ أنَّ اللَّه لا يُضِلُّ أحدًا بل الإنسانَ يَضِلُّ بمشيئتِهِ لا بمشيئَةِ اللَّه هو اعتقادُ كُفرٍ وضلالٍ، وأمّا قول سَيّدِنا عُمَر: «إِنْ شَاءَ» أي إنْ شاءَ اللَّهُ لَكَ أن تموتَ على كُفرِكَ هذَا فَلا بُدَّ مِن دخولِك النّار. وقد احتجَّ سيّدُنا عُمَر بهذه الآية: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[سورة الزمر] ومعناهُ أنّ الذي شاءَ اللَّه له في الأَزَلِ أنْ يَكُون مُهْتَدِيًا لا أحَدَ يَجعَلُهُ ضالًّا.

قوله ﷺ: وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لَهُ.

(**وَمَنْ يُضْلِلْ**) أي ومَن شاءَ اللَّه له في الأزلِ بِعَدْلِه أن يكون ضالًّا عن سواءِ السَّبِيل زائغًا عن الصّوابِ مائلًا عن الحَقّ في الوقتِ المعلوم (**فَلا هادِيَ لَهُ**) أي لا أحدَ يهديه ولا أحدَ يَجعَلُهُ مُهْتَدِيًا، قال تعالَى:﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الزمر].

قال الإمام الحافظ الهرري رحمه اللَّه تعالى: اعلم أن الضمير في قولِه تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة المدثر] يعودُ إلى اللَّه لا إلى العبد كما زعمت القَدريّةُ بدليلِ قولِه تعالى إخبارًا عن سيّدنا موسى ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾[سورة الأعراف] أي أن موسى عليه السلام لما ذَهَبَ لميقاتِ ربّه أي لمناجاة اللَّه أي لسماعِ كلامِ اللَّه الأزلي خَلَّفَ على قومِهِ أخاهُ هارونَ وكان نبيًّا، ثم قَضَى أربعينَ ليلةً ثم عادَ إليهم فوجدَهم قد عبدوا العِجل إلا بعضًا منهم وذلك

= الْمَطْرانِ، ثم القِسِّيسُ، ثم الشَّمَّاسُ»

بعد أن اجتازَ بهم البحرَ ورأوا هذه المعجزةَ الكبيرةَ وهي انفلاقُ البحرِ اثني عشر فِرْقًا كل فِرقٍ كالجبلِ العظيم وأنقذَهُم من فرعونَ، فتنهم شخصٌ يُقالُ له موسى السَّامري، فقد صاغَ لهم عِجلًا مِن ذهبٍ ووضعَ فيه شيئًا من أَثَرِ حافرِ فرسِ جبريلَ لأنه عندما أرادَ فرعون أن يَخوضَ البحرَ كانَ جبريلُ على فرسٍ، هذا الخبيث رأى موقفَ فرس جبريل فأخذَ منه شيئًا ووضعَهُ في هذا العجلِ المصوَّرِ من ذهبٍ فأحيا اللَّه تعالى هذا العِجلَ فصارَ يَخورُ كالعجلِ الحقيقي خلقَ اللَّه فيه الحياةَ فقال لهم السّامريُّ: هذا إلهكم وإلهُ موسى، حَمَلَهم على عبادةِ هذا العجل فَفُتنوا فعَبَدوا هذا العجلَ، فلما أُخبِرَ سيدنا موسى بذلك اغتاظَ على هؤلاءِ اغتياظًا شديدًا ثم أخذَ هذا السّامري فقالَ له سيدنا موسى:

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾[سورة طه] أي الصنم الذي عبدته من دون اللَّه. ثم اختارَ موسى من قومِهِ سبعينَ شخصًا ليأخذَهم للتَّضرّعِ إلى اللَّه تعالى فأخذتهم الرَّجفةُ – أي اهتزَّت بهم الأرضُ – فقال موسى متضرّعًا إلى اللَّه ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[سورة الأعراف] معناهُ هذا الأمر الذي حَدَثَ بقومي من عبادتهم العجلَ فِتْنتُكَ أي امتحانٌ وابتلاءٌ منكَ، تُضلُّ بها من تشاءُ وتهدي من تشاءُ أي يا ربّي أضللتَ بها قِسمًا وهديتَ قسمًا. وقد ضلَّ عن معنى هذه الآية أناس يدّعون العلم فقالوا في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة المدثر] أي إن شاء العبدُ الضلالة يضله اللَّه لأنهم يعتقدون أن اللَّه ما شاء ضلالة مَن ضل إنما هم شاؤوا واللَّه شاء لهم الهداية، فجعلوا مشيئةَ اللَّه مغلوبةً حيث إنها لم تتنفذ على قولهم ومشيئة العبد جعلوها نافذة فجعلوا اللَّه مغلوبًا واللَّه غالب غير مغلوب. وعقيدتهم هذه

تنقيصٌ لله تعالى فليعلموا ذلك. ومن هؤلاء في هذا العصر فرقة نبغت في دمشق وهم جماعة أمين شيخو، كان لا يُحسن العربية ولا علم الدين انتسب للطريقة النقشبندية على يد شيخ صالح ولم يسبق له تعلم علم العقيدة ولا الأحكام إنما كان شرطيًّا أيام الاحتلال الفرنسي فتبعه أناس جهال لم يتلقوا علم الدين، وإن كان بعضهم تلقى العلوم العصرية فضلوا وأضلوا، منهم رجل يقال له عبد الهادي الباني الذي هُوَ بدمَشْقَ فَقَدْ جَعَلُوا مَشِيْئَةَ اللَّه تَابِعَةً لمشِيئَةِ العَبْدِ حَيْثُ إِنَّ مَعْنى الآيةِ عِنْدَهُم إنْ شَاءَ العَبْدُ الاهتداء شاء اللَّه له الهدى وإنْ شَاءَ العَبْدُ أَنْ يَضِلَّ أضَلَّهُ اللَّه فكَذَّبوا بالآيَةِ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[سورة التكوير] فَإنْ حَاوَلَ بَعْضُهُم أنْ يَسْتَدِلَّ بآيَةٍ منَ القُرءانِ لضِدّ هَذَا المَعْنَى قيلَ لَهُ القُرءانُ يَتَصادَقُ ولا يَتَنَاقَضُ فَليْسَ في القرءانِ ءايةٌ نَقِيضَ ءايةٍ ولَيْسَ هَذَا مِنْ بَاب النَّاسِخ والمَنْسُوخِ لأَنَّ النَّسْخَ لا يَدْخُلُ العَقائِدَ ولَيْسَ مُوجِبًا للتّنَاقُضِ فالنسخُ لا يدخلُ في الأخبارِ إنما هو في الأمرِ والنهي. إِنَّما النَّسْخُ بَيَانُ انْتِهاءِ حُكْمِ ءايةٍ سَابقَةٍ بحُكْمِ ءايَةٍ لاحِقَةٍ، عَلَى أَنَّ هَذِه الفِئَةَ لا تُؤمِنُ بالنَّاسِخِ والمَنْسُوخِ.

ومِنْ ضلالِهِم أنَّهُم يُفَسّرُونَ قولَه تعالى:﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [سورة البقرة] بأسماء اللَّه الحُسْنى، فَإنْ قِيلَ: لَهُم لَوْ كَانَت الأَسْماءُ هي أسْمَاءَ اللَّه الحُسْنَى لَمْ يَقُل اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾[سورة البقرة] بَلْ لَقَالَ فَلَمّا أَنبأَهُم بأَسْمائِي انقَطَعُوا، لَكِنَّهُم يُصِرُّونَ على جَهْلِهِم وتَحْرِيفِهِمْ للقُرءانِ.

هؤلاءِ تَبِعوا المعتزلةَ في هذه المسألةِ فقاسوا الخالقَ على المخلوقِ فَضَلّوا وحَرَّفوا معنى الآية التي يحتجُّونَ بها وهي قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [سورة إبراهيم] ظنًّا منهم أننا إذا قلنا إن اللَّه هو الذي يُضلُّ من شاءَ له الضَّلالةَ من عبادِهِ فقد نسبنا الظُّلمَ إلى اللَّه، قالوا: كيفَ يشاءُ اللَّه الضّلالةَ له ثم يعاقبهُ على ذلكَ، من هنا ضلُّوا فقالوا في قوله تعالى:﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ [سورة المدثر] يشاءُ أي العبدُ يعيدونَ الضَّميرَ إلى ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾، وهي عندهم واقعٌ على العبدِ، فعندهم معنى الآية العبدُ الذي يشاءُ الضّلالَ يضلُّه اللَّه هكذا هم

يحرّفون، لكنَّ الصَّوابَ إعادةُ الضَّميرِ إلى اللَّه ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ أي العبدُ الذي شاءَ اللَّه بمشيئتهِ الأزليَّة الأبديّةِ أن يَضِلَّ يُضِلُّهُ اللَّه، هذا معنى الآية: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ فالضميرُ يَعُودُ إلى لفظِ الجلالةِ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي أن اللَّه تبارك وتعالى إن شاءَ بمشيئتهِ الأزليَّةِ الأبديَّةِ أن يهتديَ شخصٌ يهتدي ذلك الشَّخصُ ينساقُ باختيارِهِ إلى الهُدَى فيختَارُ الهُدَى والإيمان لأن اللَّه شاءَ له ذلك. وهذا هو الموافِقُ لآياتٍ أخرى كقوله تعالى ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الروم] وقولِه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٣٣﴾[سورة غافر] وأصرحُ ءايةٍ في إبطالِ عقيدةِ هذه الهادوية الشيخوية وهم المنتسبونَ إلى عبد الهادي الذي هو تلميذ أمين شيخو الآية وهي ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [سورة الأعراف] لأن قوله تعالى: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [سورة الأعراف] صريحٌ في نسبةِ المشيئةِ إلى اللَّه، فلو كانَ معنى الآية كما زعموا لكانَ لفظُ الآيةِ يَضِلُّ بها من شاءوا أي الذين عبدوا العجل لكن موسى يخاطب اللَّه بقوله ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [سورة الأعراف] فلا معنى للآية إلا تضل بها من تشاء أنت يا اللَّه، فَلتَعلم هذه الفرقةُ أنها ضدُّ القرءانِ وأنها خارجةٌ عن الإسلامِ.

فائدةٌ: قال بعضُ العلماءِ: اليهودُ مشتقٌّ ومأخوذٌ من قولِ قوم موسى ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾[سورة الأعراف] أي رجعنا إليكَ يا اللَّه وهذا لا ينطبق إلا على الذين كانوا مؤمنين به وبشريعته على ما هي عليه أما هؤلاء أخذوا الاسم وهم ليسوا على شريعة موسى وذلك منذ كفروا بعيسى وأما ابتداء تحريفهم للتوراة فيحتمل أن يكون قبل مجيء عيسى لكن زادوا في التحريف بعد مجيء عيسى عليه السلام.

وروى البيهقيُّ عن الشافعيّ أنّه قَالَ حينَ سُئِل عن القَدَرِ: [متقارب تام]

ما شِئتَ كانَ وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تَشَأ لم يَكُن

خَلقتَ العبادَ على ما عَلِمتَ ... ففي العلمِ يجري الفَتَى والمُسِن

عـلى ذا مـنَـنْـتَ وهــذا خَـذَلْـتَ وهـــذا أَعَـــنـــتَ وذا لم تُـعِـن

فـمـنـهـم شَـقـيٌّ ومـنـهـم سَـعـيـدٌ وهـــذا قـبـيـحٌ وهـــذا حَـسَـن

هذه الأبياتُ رواهَا عن الشَّافعي الرَّبيعُ بنُ سليمانَ رضي اللَّه عنه وهو من رواةِ الإمامِ الشافعي رضي اللَّه عنه، وقد فَسَّرَ الشافعيُّ القَدَرَ في هذه الأبيات بالمشيئةِ وهو تفسيرٌ من الإمامِ الشافعي للقَدَرِ على وجهِ البَسطِ والتَّوسُّعِ، وحاصلُهُ أن اللَّه تبارك وتعالى مُتَّصِفٌ بمشيئةٍ أزليةٍ أبديّةٍ لا تتغيّر كسائرِ صفاتِهِ لا يطرأُ عليها الزّيادةُ والنُّقصانُ، وَجَعَلَ للعبادِ مشيئةً حادثةً تَقبلُ التغيّرَ.

يقولُ الشافعيُّ رضي اللَّه عنه مخاطبًا لله تبارك وتعالى «ما شئتَ» أي يا ربَّنا «كان» أي ما سَبَقَت به مشيئتُكَ في الأزلِ لا بدَّ أن يُوجدَ «وإن لم أشأ» أي وإن لم أشأ أنا أي أنا العبدُ حصولَهُ لأنَّ مشيئةَ اللَّه نافذةٌ لا تتغيّرُ، والمعنَى أن مشيئةَ العبدِ تابعةٌ لمشيئةِ اللَّه فهي مخلوقةٌ حادثةٌ فكلُّ مشيئةٍ في العبادِ حَصَلت فإنما حَصَلت فينا لأن اللَّه تعالى شاءَ في الأزلِ أن نشاءَ فتنفَّذَت مشيئةُ اللَّه تعالى فينا أن نشاءَ، ثم مرادُنا الذي تَعَلَّقت به مشيئتُنَا لا يَحصُلُ إلا أن يشاءَ اللَّه حصولَ هذا المراد وتحقُّقَهُ.

فمشيئةُ اللَّه نافذةٌ لا محالةَ لأنه لو كانَ لا يتحقَّقُ شيءٌ من مُرَادَاتِ اللَّه تعالى أي مما شاءَ اللَّه تعالى أن يَتحقَّقَ ويَحصُلَ لكان ذلك عجزًا والعجزُ مستحيلٌ على اللَّه، لأن من شأنِ الإلـهِ أن تكونَ مشيئتُهُ نافذةً في كلّ المراداتِ ومن خصائصِ الإلـه أن تكونَ مشيئتُهُ نافذةً لا تَتَخَلَّفُ أي لا بدَّ أن يَحصُلَ ما شاءَ اللَّه دخولَهُ في الوجود، فيجبُ عقلًا وشرعًا نفاذُ مشيئةِ اللَّه تبارك وتعالى أي تحقُّقُ مقتضاها.

قالَ رضي اللَّه عنه: «وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن» معناه إن أنا شئتُ حصولَ شيءٍ بمشيئتي الحادِثَةِ إن أنت يا ربّي لم تشأ حصولَهُ بمشيئتِكَ الأزلية لا يحصل، لأن مشيئةَ اللَّه أزليّةٌ نافذةٌ لا تَتَخَلَّفُ وأما مشيئةُ العبدِ فحادثةٌ منها ما هو نافذٌ ومنها ما هو غيُر نافذٍ أي منها ما يتحقَّقُ ومنها ما لا يتحقَّقُ.

ومعنى قوله رضي اللَّه عنه: «خلقتَ العبادَ على ما علمتَ» أن اللَّه تبارك وتعالى يُبرزُ عبادَهُ من العدم إلى الوجودِ على حسبِ ما سَبَقَ في علمِهِ الأزليّ لا على خلافِ علمه الأزليّ لأن تَخَلُّفَ العلمِ في حقّ اللَّه تعالى مستحيلٌ يجبُ تنزيهُ اللَّه عنه.

وقوله رضي اللَّه عنه: «ففي العلمِ يجري الفتى والمُسنّ» في هذا الكلام حكمةٌ كبيرةٌ أي أن سَعيَ الفتى أي الشَّابّ والمُسنّ أي العجوزِ كلٌّ سعيُهُ في علمِ اللَّه تبارك وتعالى أي لا يخرُجُ عن علمِ اللَّه، هذا الفتى الذي هو ذو قوّةٍ ونشاطٍ وهذا المُسنُّ الذي هو ذو عجزٍ وضعفٍ كلٌّ منهما لا يَحصُلُ شيءٌ منه من الحركاتِ والسَّكناتِ والنَّوايا والقصودِ والإدراكاتِ إلا على حَسَبِ علمِ اللَّه الأزليّ، كلٌّ منهما في العلمِ يجريانِ أي يتقلَّبَانِ على حسبِ مشيئةِ اللَّه الأزليّةِ، ويعملانِ على حسبِ علمِ اللَّه الأزليّ ويتصرَّفانِ ويسعيانِ على حسبِ علمِ اللَّه الأزليّ.

قال رضي اللَّه عنه: «على ذا مَنَنتَ وهذا خَذَلت» أي هذا مَنَنتَ عليهِ أي وَفَّقتَهُ للإيمانِ والهُدَى والصَّلاحِ وعُلوّ القدرِ في الإيمانِ، ومعنى توفيقِ اللَّه لعبدِهِ أي يجعلهُ يصرفُ قدرتهُ واختيارهُ إلى الخيرِ، ومعنى «وهذا خذلتَ» أي وهذا ما وَفَّقتَهُ فلم يهتد للحقّ ولم يقبَل الحَقَّ، ومعنى خِذلان اللَّه لعبدِهِ أي يجعلُهُ يصرفُ قدرتهُ واختيارهُ للشَّرّ.

قال رضي اللَّه عنه: «وهذا أعنتَ وذا لم تُعِن» أي هذا أعنتَهُ على الأعمالِ التي تُرضيكَ والآخرُ ما أعنتَهُ على ما يُرضيكَ.

وليس معنى قول الشافعي: «وهذا أعنتَ وذا لم تُعِن» أن اللَّه لا يُعينُ على الشَّر وإنما يُعينُ على الخيرِ فقط، فأهلُ السنة متفقونَ على أن اللَّه هو المعينُ على الخيرِ وهو المعينُ على الشر، والإعانةُ التمكينُ أي أن اللَّه هو الذي يُمَكّنُ العبدَ لفعلِ الخيرِ وهو الذي يمكّنهُ لفعلِ الشَّر، صرحَ بذلك إمامُ الحرمين وأبو سعيد المتولي قبلَهُ والشيخُ محمدُ الباقر النقشبنديّ والأميرُ الكبيرُ المالكيُّ صاحب المجموع وقد جَهِلَ هذا الاعتقادَ الحقَّ الضروريَّ بعضُ جهلةِ النقشبنديةِ في هذا العصرِ.

قال رضي اللَّه عنه: «فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدٌ، وهذا قبيحٌ وهذا حَسَن» المعنى أن مَن شاءَ اللَّه له أن يكونَ شقيًّا أي من أهلِ العذابِ الأليمِ كان كذلك، ومن شاءَ اللَّه له أن يكونَ سعيدًا من أهلِ النّعيمِ المقيمِ كان كذلك.

معنَى الشَّهادةِ الأُولَى

قوله ﷺ: وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

(وَأَشْهَدُ) أي أعلَم وأعتَقِدُ أَخضَعُ بِقَلبِي وترضَى نَفسِي بما عَلِمتُه وأُقرُّ وأعتَرِفُ بِلِسانِي **(أَنْ)** أي أنّه، فهي مُخفَّفة مِن الثقيلةِ واسمُها ضميرُ الشأن مَحذُوفٌ، **(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** أي أنّه لا يستَحِقُّ أحَدٌ أن يُعبَد أي أن يُتَذَلَّل له نهاية التَّذَلُّل إلا اللَّهُ، فالعبادة غايَةُ التَّذَلُّل أو يقال: أقصَى غاية الخشُوع والخضوع، كما نَصّ على ذلك التَّقِيُّ السُّبكيّ وأصل العبادة معرفةُ اللَّه ومعرفةُ رسُولهِ والنّطقُ بذلك مَرةً واحدة إن كان كافرًا، ومن حصل منه ذلك مع الاعتقادِ الجازِم فهو مُسلمٌ مؤمنٌ ولا يصح العمل ولا يكسب الشخص الثواب إن لم يكن على الإيمان فلهذا كان علم التوحيد هو أولى العلوم وأشرفها قال العلماء:» لا تصح العبادة إلا بعد معرفة المعبود»؛ ثم لا يكملُ إيمانهُ وإسلامهُ إلا بأداءِ الواجباتِ واجتنابِ المحرّماتِ.

وقالَ ﷺ: «**قالَ اللَّه تَعالى: وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افتَرضتُ عليه**»[1] حديث قدسيٌّ رواه البخاريُّ. وأفضلُ وأوّلُ فرضٍ هوَ الإيمانُ بالله ورسولِه.

والحديثُ القدسيُّ هو الحديثُ الذي صَدَّرَه رسول اللَّه بقالَ اللَّه أو يقول اللَّه أو بما في معنى ذلك، أما الحديثُ النبويُّ فما صُدِّرَ بقال الرسول ﷺ. وفي هذا الحديثِ بيانُ أن أعظمَ ما يُتقرَّبُ به إلى اللَّه هو أداءُ فرائضِ اللَّه وقد قال بعض الأكابر: «من شغلَهُ الفرضُ عن النَّفل فهو معذورٌ ومن شغلَهُ النفلُ عن الفرض فهو

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٨/ ١٠٥).

مغرورٌ» ذكره الحافظ ابن حجر في شرح البخاري، فالعملُ بالفرض يُقرّبُ إلى اللَّه أكثرَ من العملِ بالنوافلِ، فعليكم بتقديمِ الفرضِ على النَّفلِ عملًا بالقاعدةِ المذكورةِ، وأفضلُ الأعمالِ على الإطلاقِ هو الإيمانُ بالله ورسولِهِ.

قال الإمام الهرري رحمه اللَّه: واعتقادُ أن لا إلـهَ إلا اللَّه فقط لا يكفي ما لَم يُقرن باعتقادِ أنَّ محمدًا رسولُ اللَّه قالَ تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة آل عمران] أي لا يُحِبُّ اللَّه من تولَّى عن الإيمانِ بالله والرسولِ لكفرهم والمراد بطاعة اللَّه والرسول في هذه الآية الإيمان بهما، ومعنى﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي بالإيمان بهما، وقوله ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي أعرضوا عن ذلك﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة آل عمران] أي فهم كفَّارٌ لا يحبُّهم اللَّه ولو أحبَّهم لرزقَهُم الإيمانَ بالله ورسوله محمد ﷺ، وفي هذَا دليلٌ على أنَّ من لم يؤمن بالله ورسولِه محمدٍ ﷺ فهُوَ كافرٌ وأنَّ اللَّه تَعالى لا يُحِبُّه لكُفرِه فمن قالَ إنَّ اللَّه يحبُّ المؤمنينَ والكافرينَ لأنه خلقَ الجميعَ فقد كذَّبَ القرءانَ فيقالُ لَهُ اللَّه خلَقَ الجميعَ لكن لا يُحِبُّ الكُلَّ، اللَّه خَلَقَ المسلمينَ والكافرين لكنه لا يحبُّ سوى المسلمين.

واعلم أن الفَرضُ على كلِّ مكلَّفٍ النطقَ بالشهادَتين بعدَ البلوغ مرَّةً واحدةً في عُمرِه بنيَّةِ الفرضِ أما من نشأَ على الإسلامِ بين أبوين مسلمين ما دامَ اعتقادُهُ على معنى الشَّهادتين فهو مسلمٌ مؤمنٌ ولو لم ينطِق بهما بلسانِهِ حتى ماتَ، لكنه يكون عاصيًا مرتكبًا للكبيرةِ لأنه لم ينطق بهما بعد البلوغِ.

فائدة: أشهدُ أن لا إله إلا اللَّه وأشهدُ أنَّ محمدًا رسول اللَّه ضروريةٌ في كلِّ صلاةٍ عند الشافعيةِ والحنابلةِ، أما عند المالكيةِ فهي سنّةٌ مؤكدةٌ على أحد القولين في المذهب، والسُّنَّةُ المؤكدةُ هي على أحدِ التفسِيرَين ما كانَ يُواظِبُ عليه النبيُّ ﷺ، فيكفي عندهم أن يجلس ويقول «السَّلامُ عليكم» وهو جالِسٌ، لكنّ المالكيةَ يُوجبونَ النطقَ بالشهادتينِ مرَّة واحدة بعد البلوغِ بنيةِ الفرضِ ومَن ترجَها عِندهم يكون مُسلِمًا عاصيًا.

معنَى العِبادةِ

قال اللَّهُ تعالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [سورة الأنبياء] فهذه العبادة يَجِبُ صرفُها للهِ تعالى ومَن صَرَفها لغيرِه صارَ كافِرًا.

وليس معنى العبادة مجرَّدَ النداء لشخص مَيِّتٍ أو حَيٍّ، ولا مجرَّدَ الاستغاثة بغير اللَّه، ولا مجرَّد صيغة الاستغاثة بغير اللَّه تعالى، ولا مجرَّد طلب ما لم تَجْرِ به العادةُ بين الناس، ولا مجرَّد الخوف أو الرَّجاءِ كما زَعَمت الوهابيّة المجسِّمة المشبِّهة، بل لم ينقل عن أحد من علماء اللغة تفسير العبادة بأنها مجرَّد نِداء حَيٍّ أو مَيّت أو في حالَ غَيْبَتِه، وعليه فإنّ التَّوسُّلَ بالأنبياءِ والأولياءِ جائزٌ في حالِ حَضرَتهم وفي حالِ غَيبَتِهم ومناداتُهم جائزةٌ كذلك في حالِ غَيبَتِهم وفي حالِ حضرتِهم كما دلَّ على ذلك الأدلّةُ الشَّرعيّةُ. فلو كان مجرَّد التذلل لغير اللَّه عبادةً لكَفَر كلّ من يتذلل للملوك والعظماء، ولكنّ الأمر ليس كذلك.

وقد ثبت أن معاذ بن جبل لما قدِمَ من الشام سَجَد لرسول اللَّه ﷺ، فقال الرسول: «مَا هَذَا؟»، فقال مُعاذٌ: يا رسول اللَّه إني رأيت أهل الشام يَسجُدون لبطارقَتِهم وأساقِفَتِهم، وأنت أَوْلَى بذلك، فقال ﷺ: «**لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**[1]»، فلم يَقُل له رسول اللَّه ﷺ كَفَرْتَ أو أَشْرَكْتَ مع أنّ سجوده للنبي مَظْهَر كَبِير من مظاهِر التَّذَلُّل لَكِنّه لم يُرِد به مُعاذٌ عِبادة الرَّسول، مع أنّه النبيّ ﷺ بَيَّن أنّه لا يجوز في شريعته أن يَسجُد أحَدٌ لأحَدٍ غير اللَّه وإن كان ذلك السجُود سُجود تَحيّةٍ. وكذلك رُوي عن عائشة رضي اللَّه عنها أنّ رسول اللَّه ﷺ كان في نَفَرٍ مِن المهاجِرين والأنصار فجاء بَعِيرٌ فسَجَد لَه، فقال أصحابُه: يا رسولَ اللَّه، سَجَد لك البهائِمُ والشَّجَرُ، فنَحنُ أحَقُّ أن نَسْجُدَ لك، فقال: «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَأَكْرِمُوا**

(١) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (١/ ٥٩٥).

أَخَاكُمْ، وَلَوْ كُنْتُ ءَامِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»[1] والحديث رواه أحمد بإسنادٍ جَيّد.

فهؤلاء الذين يكفّرون الشخصَ لأنّه قَصَد قبر الرسول أو غيرِه مِن الأولياء للتَّبَرُّك قد جَهِلُوا معنى العبادة وخالفوا ما عليه المسلمُون، لأنّ المسلمين سَلَفًا وخَلَفًا لم يزالوا يَزُورون قَبر النَّبِيّ. وليس معنى الزيارة للتَّبَرُّكِ أن الرَّسُولَ يخلق لهم البركة، بل المعنى أنهم يَرجُون أن يَخْلُق اللَّه لهم البَرَكَة بزيارتهم لِقَبرِ النبيّ ﷺ قال تعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النساء] فلم يَقُل: «لو جاءوكَ وأنتَ حَيٌّ»، وقد حثَّ وحضَّ اللَّه تعالَى عبادَه في القُرآن الكريم على تعظيمِ وتوقِير نَبيّه ومَدحِه فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف] ولا شَكَّ أنّ زِيارَتَهُ مِن أجل تَعظيمه ﷺ والانتفاع ببركاتِه والدُّعاء عِندَه والتضرُّع إلى اللَّه لمن أقرَبِ القُرُبات وأعظَم الطاعات، فلا يُنكرُ ذلك إلا جاهِلٌ مُعانِدٌ قَد أقفل اللَّه على قَلبه.

صِفةُ الوَحدانيّةِ للّٰهِ

قوله ﷺ: وَحْدَهُ.

وَحْدَهُ هي حال مُؤَكِّدة مِن لفظ الجلالة «الله» أي انفَرَد اللَّه بالألوهِيّة وَحدَه، ويجوز أن يكون مفعولًا مطلقًا، والمعنَى في الكُلّ أنّه لا إله غيرُ اللَّه. أمّا معنَى ما جاء في الحديث: «**وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»[2] أي كفى اللَّه تعالى المؤمنين القِتال وهزم الأحزاب بِغير قتال مِن الآدميين ولا بسبب مِن جهتهم، والمراد بالأحزاب الكُفّارُ الذين تَحَزَّبُوا على رسول اللَّه ﷺ يوم الخندق في شوال سنة أربع أو خمسٍ

(١) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (٤١/ ١٩).

(٢) صحيح البخاري، البخاري، (٣/ ٧).

من الهجرة.

ثُمّ إنّ كلمة التوحيد «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**» أفضلُ مِن سائر الأذكار، ويُستدلّ لذلك بأدِلّة كثيرة مِنها: قول النبيّ ﷺ: «**أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أنا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**[1]»، وقوله ﷺ: «**هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ**[2]» وذلك حين سألهُ أبو ذرٍّ رضي اللَّه عنه: «أَمِنَ الْحَسَنَاتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وفي رواية عند ابن ماجه: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»، وفي رواية عِند غيره: «**لَا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ أَفْضَلُ الذِّكْرِ وَهِيَ أَفْضَلُ الحَسَنَاتِ**»، وكذلك جاء في الحديث المرفوع عن أمِّ هانئٍ أنّ النبيّ ﷺ قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ وَلَا تَتْرُكُ ذَنْبًا**[3]».

ثُمّ إنّ هذه الكلِمة هي التي لا بُدّ مِنها للدُخول في الإسلام مِن قادرٍ على النُّطق، فلا يصحّ الدخول في الإسلام بقول «سبحان اللَّه» و«الحمد لله» و«الله أكبر» إفرادًا أو جَمعًا لثلاثَتِها، وقد اتَّفَق العلماء على تفضيل كَلِمة التوحيد على غيرها مِن ألفاظِ الذِّكر وتَظاهَرَت نُصُوصهم على ذلك.

ذِكرُ دِلالةِ التَّمانُعِ

قوله ﷺ: لَا شَرِيكَ لَهُ.

(**لا شَرِيكَ لَهُ**) فيه تأكيد لِقَولِه «**وَحْدَه**» لأنّ اتّصاف اللَّه بالوَحدانِيّة معناهُ أنّه لا شَرِيك له في ذاته ولا في صِفاتِه ولا في أفعالِه. ويُستَدَّل لوحدانيّة اللَّه تعالَى بالعقل والنقّل، فأمّا العقل فمِن أدِلّة كثيرة مِنها دِلالة التمانُع وهي أن يقال:

لو قُدِّرَ وجود إلهين، فإمّا أن يقدر أحدُهما على أن يستر شيئًا من أفعاله عن

---

(١) موطأ مالك، مالك، (٣/ ٦٢٢).

(٢) مسند أحمد، أحمد، (٣٥/ ٣٨٦).

(٣) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (٢/ ١٢٤٨).

الآخر أو لا يقدر، فإن قَدَر على ذلك لزم أن يكون المستور عنه جاهلًا، وإن لم يقدر على ذلك لزم كونه عاجزًا.

ولو قُدِّرَ وجود إلهين، كان مجموع قُدْرَتَيهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحدَه، فيكون كل واحد من القدرتين متناهيًا والمجموع ضِعْفُ المتناهي، فيكون الكُلُّ متناهيًا.

ولو قُدِّرَ وجود إلهين، فإمّا أن يكون أحدهما كافيًا في تدبير العالم أو لا، فإن كان كافيًا كان الثاني غيرُ محتاج إليه، وذلك نقص وهو على الإله محالٌ.

ولو قُدِّرَ وجود إلهين، كان لا بُدّ أن يكونا عالمين بجميع المعلومات، وكان علم كل واحد منهما متعلِّقًا بعين معلوم الآخر، فوجب عندئذٍ تماثُل عِلْمَيْهِما. والذاتُ القابلة لأحد الْمِثْلَين قابلةٌ للمِثْلِ الآخر، فاختصاص كلّ واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتّصافه بصفة الآخر على البَدَل يَسْتَدعي مخصِّصًا يُخَصِّصُ كُلَّ واحد منهما بعِلْمِه وقدرته، فيكون كلُّ واحد منهما عَبْدًا فقيرًا ناقصًا، وذلك محالٌ على الإله.

وأمّا مِن النَّقل فالنُّصوص كثيرة جِدًّا في الدِلالة على ذلك، منها قولُه تعالَى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة البقرة]، وقولُه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [سورة الإخلاص] وقولُه: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة النحل].

وكذلك في الحديث قولُه عليه الصلاة والسَّلام: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**[1]» الحديثَ.

(١) صحيح مسلم، مسلم، (١/ ٣٦).

معنَى الشَّهادةِ الثّانيةِ

قوله ﷺ: وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

(**وَأَشْهَدُ**) أي أعلَم وأعتَقِدُ وأعتَرِفُ (**أَنَّ**) سَيِّدنَا (**مُحَمَّدًا**) وهو ابنُ عبدِ اللَّهِ ابنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمِ بنِ عبدِ منافِ القُرَشِيُّ (**عَبْدُهُ**) أي عَبدُ اللَّه، والوصفُ بالعبودية هو أشرف الأوصاف لمحمَّد ﷺ، وقد جاء عنه في الخَبر أنّه قال: «**خَيْرُ الْأَسْمَاءِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ**[1]» (**وَرَسُولُهُ**) أي مُرسَلٌ مِن عِند اللَّه إلى العالمين كافةً من إنسٍ وجِنٍّ، قال تعالَى: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي تَنَزَّه اللَّهُ ﴿تمتهاً﴾ أي القُرءانَ ﴿لِيَكُونَ﴾ جَمِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ محمَّدٌ ﴿حماً﴾ [سورة الفرقان] أي مُنذِرًا لهم، وأوَّلُ مَا بُعِثَ رسول اللَّه ﷺ كان مأمورًا بالتبليغ والإنذار بلا قتال وكان مأمورًا بالعفو والصفح، ولم يؤذن له في القتال إلا بَعدَ مُضِيِّ أربعةَ عشَرَ عامًا.

وأمّا تعريف الرَّسول مِن البَشَر فهو إنسان ذَكَرٌ حُرٌّ بَعَثه اللَّه إلى الخلق لتبليغ الأحكام مع نسخ بعض شرعِ مَن قَبلَه أو أُوحِيَ إليه بِشَرعٍ جديدٍ، أمّا النبيُّ غيرُ الرسول فهو مَن أوحي إليه بشرع مَن قَبلَه وأُمِر بتبليغه، قال تعالَى: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ**﴾[سورة الحج] أي دَعَا قَومَه، فإطلاق الإرسال على النّبيّ والرسول يَكفِي دليلًا على أن النبيّ يُبَلِّغ ويدلُّ على بطلان قول مَن يقول: «إنّ النبيّ ليس مأمورًا بالتَّبلِيغ».

قال الإمام الهرري رحمه اللَّه تعالى: اعتقاد أن لا إله إلا اللَّه وحدَه لا يكفي ما لم يُقرن باعتقادِ أنَّ محمدًا رسولُ اللَّه، فالجمعُ بين الشَّهادتين ضَروريٌّ للنَّجاةِ من الخلودِ الأبدي في النارِ.

وأما المرادُ بقوله عليه الصلاة والسلام: «فإنَّ اللَّه حرَّمَ على النار من قالَ

(١) مسند أحمد، أحمد لم حنبل، (٢٩/ ١٤٧).

لا إلـهَ إلا اللَّه يبتغي بذلكَ وجهَ اللَّه»[1] رواه البخاري أي أنّ اللَّه تعالى حرَّمَ على النَّار أي الدوامَ فيها إلى الأبدِ من قالَ لا إله إلا اللَّه يبتغي بذلكَ وجهَ اللَّه أي إن قال ذلكَ معتقدًا في قلبه لا منافقًا ليُرضيَ المسلمينَ وهو في قلبهِ غيرُ راضٍ بالإسلامِ إمّا بشَكّه في الوحدانيَّةِ أو بتكذيبهِ في قلبهِ محمَّدًا ﷺ.

ومعنى «**يبتغي بذلكَ وجهَ اللَّه**» أي يبتغي القُرب إلى اللَّه تبارك وتعالى ليس لمراءاة الناس بدون اعتقاد. والوجه في لغةِ العرب يأتي بمعانٍ عديدة، فهذا الحديث وما أشبَهَهُ من الأحاديثِ التي لم يُذكر فيها شهادةُ أن محمدًا رسولُ اللَّه هي شاملة للشَّهادةَ الأخرى لأنَّ ذكرَ الشَّهادةِ الأولى صارَ في عُرفِ الشَّرعِ ملحوظًا فيه الشهادةُ الثانيةُ وهي شهادةُ أنّ محمدًا رسولُ اللَّه، وليس المعنيُّ بهذا الحديثِ وشبهِهِ أنَّ الاقتصارَ على شهادةِ أن لا إله إلا اللَّه بدون الشَّهادةِ الأخرى يكفي للنَّجاةِ من الخلودِ الأبديّ في النارِ بل لا بدَّ من الجمع بينَ الشهادتين وذلك بدليلِ قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [سورة الفتح] فتُحمَلُ هذه الأحاديثُ على ما يُوافِقُ هذه الآية، فحديثُ رسولِ اللَّه ﷺ لا يأتي مناقضًا للقرءانِ ومن توهَّم خلافَ ذلك فهو لقُصُورِ فَهمِهِ وشدَّةِ جهلِهِ.

(١) صحيح البخاري، البخاري، (١/ ٩٢).

الوَصِيّة بالتَّقوَى

قال رسول اللَّه ﷺ: **أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ.**

(أُوصِيكُمْ) هو مِن الوَصِيّة، يقال: وَصَّيتُه وأَوْصَيتُه تَوصِيةً، والاسم الوَصاةُ والوَصِيّة، والمعنَى هنا ءامرُكُم وأُذَكِّركم بلُزوم ذلك، لأنّ الوصيّة هنا تتناوَل التقوى، والواجب على كُلِّ عَبِد أن يكون تَقِيًّا باجتناب ما نهى اللَّه عنه وأداءِ ما أمَرَ اللَّه به، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [سورة الأنعام] وكذلك قولُه تعالَى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [سورة الشورى] الآيةَ، وكذلك إخباره عن إبراهيم ويعقوب عليهما السَّلامُ حِين وَصَيَا بَنِيهما بِلزُوم الدِّين والتمسُّك بِه فقال: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[سورة البقرة].

عِدَّةُ مَن حَضَر حَجَّة الوَداعِ مِن الصَّحابةِ

(عِبَادَ اللَّهِ) أي يا عبادَ اللَّه، بالنَّصْب على أنّه مُنادى محذوفُ حرفِ النّداء. وقد اختُلِف فِي عِدّة الصحابةِ الذين حَجُّوا أو حَضرُوا الخُطبة في حَجّة الوداع مع النبيّ ﷺ، فقال بعضهم: كانوا تسعين ألفًا، والذي نَصّ عليه العِراقي في ألفيّة الحديث أنّهم كانوا مائة ألف وأربعةَ عشَر ألفًا، وقال غيره بل مائة ألف وأربعةٌ وعِشرون وألفًا، ونصّ في المرقاة على أنّهم بلغوا مائة ألفٍ وثلاثين ألفًا.

وقد قَسَّمهم العلماء باعتبار سَبْقِهم إلى الإسلام أو الهجرة أو شهود المشاهد الفاضِلة اثْنَتَا عَشْرةَ طبَقةً أو فوقَ ذلك، وهم: قومٌ أسلَمُوا بمكةَ، ثم أصحابُ دارِ النَّدْوة، ثم مهاجِرَةُ الحبَشَة، ثم أصحابُ العَقَبة الأُولَى، ثم أصحابُ العقَبةُ الثانيةُ، ثم أوَّلُ الْمُهاجِرِين الذِين وصَلُوا قبل أن يَدخُل المدِينَة، ثم أهلُ بَدْرٍ، ثم الذِين هاجَرُوا

بَين بَدْرٍ والحُدَيبِيةِ، ثم أهلُ بَيْعةِ الرِّضْوانِ، ثم مَن هاجَرَ بينَ الحُدَيبِيَةِ وفَتْحِ مكّةَ، ثم مُسْلِمَةُ الفَتْح، ثم صِبيانٌ رأَوهُ عليه الصلاةُ والسَّلامُ يومَ الفَتْح وفي حَجّةِ الوداعِ وفي غَيرِهما، فهذه اثْنَتَا عَشْرةَ طبَقةً.

تَقوَى اللّٰهِ عَزَّ وجَلَّ

أُوصِيكم (**بِتَقْوَى اللَّهِ**) والتَّقوى امتثال المأمورات التي أمَرَ اللَّه بها واجتِناب المنهيّات التي نَهَى عنها، وهي كافلة سعادةَ الدنيا والآخرة لمن تمسك بها، وهي وصِيّةُ اللَّه للأَوَّلين والآخِرين. وقد دَأب على التوصية بها النبيّ ﷺ، فجاء عنه في حديث أبي ذَرٍّ الطويل أنّ أبا ذَرٍّ قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: «**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ**[1]»، وعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيءٍ[2]» وفي رواية: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ**[3]»، وفي التِّرمذِيّ عن يَزِيدَ بنِ سَلَمة أنّه «سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي سَمِعْتُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا فَأَخَافُ أَنْ يُنْسِيَنِي أَوَّلَهُ ءَاخِرُهُ، فَحَدِّثْنِي بِكَلِمَةٍ تَكُونُ جِمَاعًا، قَالَ: «**اتَّقِ اللَّهَ فِيمَا تَعْلَمُ**[4]»، وبذلك أوصَى ﷺ مُعاذَ بنَ جبَلٍ فقال له: «**اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ**[5]»، ورُوِي عن أبي ذَرٍّ رضي اللَّه عنه قال: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ [سورة الطلاق]، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَا لَكَفَتْهُمْ[6]».

ولم يزل السَّلَف الصالح يَتواصَون بذلك، فقد كان أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي اللَّه

---

(١) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، (١/ ١٦٨).
(٢) مسند أحمد، أحمد بن حنبل (١٨/ ٢٩٧).
(٣) المعجم الصغير، الطبراني، (٢/ ١٥٦).
(٤) سنن الترمذي، الترمذي، (٥/ ٤٩).
(٥) المصدر نفسه، (٤/ ٣٥٥).
(٦) مسند أحمد، أحمد بن حنبل (٣٥/ ٤٣٦).

عنه يقول في خُطْبَته: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَنْ تُثْنُوا عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ**[1]»، وَلَمَّا حَضَرتهُ الوَفاةُ رضي اللَّه عنه وعَهِد إلى عُمَر دَعاهُ فوَصّاهُ بوَصِيَّتِه وأَوَّلُ ما قال له: «اتَّقِ اللَّهَ يَا عُمَرَ». وَكَتَب عُمَرُ إلى ابنِهِ عَبدِ اللَّهِ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّقَاهُ وَقَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ جَزَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ زَادَهُ، وَاجْعَلِ التَّقْوَى نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَجَلَاءَ قَلْبِكَ»، واستَعمَلَ عَلِيُّ بنُ أبي طالب رضي اللَّه عنه وكَرَّم وَجهَهُ رَجُلًا على سَرِيَّةٍ فقالَ له: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي لَابُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ[2]، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ وَهُوَ يَمْلِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ»، وكَتَب عُمَرُ بنُ عبد العزيز إلى رَجُلٍ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي لَا يَقْبَلُ غَيْرَهَا»، وكَتَب رَجُلٌ مِن السَّلَف إلى أَخٍ لَه: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا أَكْرَمُ مَا أَسْرَرْتَ، وَأَزْيَنُ مَا أَظْهَرْتَ، وَأَفْضَلُ مَا ادَّخَرْتَ، أَعَانَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَلَيْهَا، وَأَوْجَبَ لَنَا وَلَكَ ثَوَابَهَا»، ورَوَى البيهقيُّ أنّ عَائِشَةَ رضي اللَّه عنها كَتَبَت إلى مُعَاوِيَةَ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّكَ إِنِ اتَّقَيْتَ اللَّهَ كَفَاكَ النَّاسَ، وَإِنِ اتَّقَيْتَ النَّاسَ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ شَيْئًا، فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

الحَثُّ على العمَلِ بالطّاعةِ

قوله ﷺ: وَأَحُثُّكُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَأَسْتَفْتِحُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

(**وَأَحُثُّكُمْ**) أي أُحَرِّضُكم وأحُضُّكُم وأَحمِلُكم بتأكيدٍ واستِعجالٍ وإسراعٍ « وفي اللغة الحَثُّ الإِعْجالُ في اتِّصالٍ، وقيل هو الاستعجالُ، ما كان حَثَّهُ يَحُثُّهُ حَثًّا واسْتَحَثَّه واحْتَثَّه، والمُطاوع من كل ذلك، والحِثِّيثَى الاسْمُ نَفْسُه، يقال اقْبَلُوا دِلِّيلى رَبِّكُمْ وحِثِّيثاهُ إياكم ويقال: حَثَثْتُ فلانًا، فاحْتَثَّ قال الجوهري الحِثِّيثَى الحَثُّ ، وكذلك الحُثْحُوث وحَثْحَثَه كحَثَّه، وحَثَّثَه أَي حَضَّه (**عَلَى الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ**) والطاعةُ من

---

(١) أي تَحمَدُوه بما يليق به تعالَى مِن كُلِّ ثَناءٍ جَميل وشُكرٍ له على كُلِّ عَطاءٍ جَزيل.

(٢) أي الوُقوف في مَوقِف الحساب يوم القيامة حيث عَرضُ الأعمالِ أمام الأوَّلين والآخرين، وليس معناه أنّ اللَّه يكون في أرض المحشَر والْمَنشَر، فالله تعالَى موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا مكانٍ وَلا جِهةٍ ولا يَطرأ عليه تغيُّر سُبحانَه.

الطوع والانقياد ومعناها تلقي الأمر بالقبول، أي الاشتغالِ بالأعمال التي فيها طاعةٌ لله تعالَى وسائر ما هو مِن أعمال البِرّ، فالبِرُّ اسمٌ جامِعٌ لأنواع الطاعاتِ والأعمالِ المقَرّبات مِن رِضا اللَّه.

(وَأَسْتَفْتِحُ) أي أَفتَتِحُ الكلام (بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) أي هو نفسُه خيرٌ أو فيه خيرٌ لَكُم أو هو خيرٌ مِن غيرِه مِن الكلام.

مِن أسبابِ الإقبالِ علَى الطَّاعاتِ

ثُمّ إنّ للاشتغال بأعمال البِرّ والإقبالِ على الطاعاتِ أسبابًا تُساعِدُ على ذلك، مِنها:

مجالسة العلماء والصالحين: قَالَ الإمامُ أَبُو حنيفةَ رضي اللَّهُ عنهُ: «واصْحَبِ الأَخْيَارَ» فالجليس الصالح يأمر بالخير وينهاك عن الشرّ ويسمعك العلم النافع والقول الصادق والحكمة البليغة ويذكرك نِعَمَ اللَّه عليك وءالاءه ويعرفّك عيوبَ نفسِكَ ويشغلك عما لا يعنيك. وإن كان قادرًا سدَّ خَلَّتك[1] وقضى حاجتك، إن ذكَّرته بالله رجا ثوابه وإن خوَّفته من عذابه ترك الإساءة. يجهد نفسه في تعليمك وإصلاحك إذا غفلت عن ذكر اللَّه وإذا أهملت أنذرك.

فالجليس الصالح لا تملُّ قُربَهُ، تُسَرُّ بحديثه إذا حضر، يشهد معك مجالس العلم وحلق الذكر وبيوت العبادة، ويشجّعك على الطاعة ويُنفِّرك من المعصية، ولا يزال ينفعك حتى يكون كبائع المسك وأنت الجليس أو المشتري.

الجليس الصالحُ إذا صحبته زانك، وإذا خدمته صانك، وإذا أصابتك فاقةٌ أعانك إن قدر، وإذا رأى منك حسنةً عدّها وإذا رأى سيئةً كتمها وسترها ونصحك.

حسن الخلق والمعاملة: وذلك من خلال التعامل بأدبٍ ولُطفٍ والتزام الأخلاق

---

(١) أي حاجتك.

الحسنة التي يأمر بها الشرع، وتجنب ذميم الأخلاق من سبٍّ وشتمٍ وسخريةٍ وغيرها. والقدوة التامة في كل ذلك برسول اللَّه ﷺ ، فإن أنسًا رضي اللَّه عنه يقول: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلَا: لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلَا: أَلَا[1] صَنَعْتَ».

أخي المسلم، إن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين بها تنال الدرجات وترفع المقامات، وقد مدح اللَّه نبيه محمدًا ﷺ في القرءان بآياتٍ عديدةٍ منها هذه الآية التي جمعت فيها من محامد الأخلاق ومحاسن الآداب الشيء العظيم فقال أصدق القائلين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[سورة القلم]، فحسن الخلق جالِبٌ للتحاب والتآلف، وسوء الخلق ينتج في العادة التباغض والتحاسد والتدابر.

وقد حَثّ النبي ﷺ على حسن الخلق والتمسك به، وجمع بين التقوى وحسن الخلق فقال عليه الصلاة والسلام عندما سئل عن أكثر ما يدخل النّاس الجنّة: «**تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ**[2]».

وليس المعنى أن من لم يكن تقيًّا أو حسن الخلق كافرٌ، فالإنسان إذا مات على الإيمان لا بد أن يدخل الجنة مهما كان غارقًا في المعاصي.

ومن معاني حسن الخلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى عن الناس، هذا مع ما يلازم المسلم من كلام حسنٍ، ومداراةٍ للغضب، واحتمال الأذى.

وقد أوصى النبي ﷺ أبا ذرٍّ بوصية عظيمة فقال[3]: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى خَصْلَتَيْنِ هُمَا أَخَفُّ عَلَى الظَّهْرِ، وَأَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ غَيْرِهِمَا؟**»، قال: بلى يا رسول اللَّه، قَالَ: «**عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَطُولِ الصَّمْتِ**».

وتأمل يا أخي الكريم الأثر العظيم والثواب الجزيل لهذه المنقبة المحمودة

---

(١) بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى هَلَّا.

(٢) سنن الترمذي، الترمذي، (٤/ ٣٦٣).

(٣) شعب الإيمان، البيهقي، (٧/ ٢٠).

والخصلة الطيبة، فقد قال ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»[1].

تغافل عن ما لا يعنيك: قال ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[2]، فهذا الحديث من الكلام الجامع لمعانٍ كثيرة جليلة بألفاظٍ قليلة.

فقد أرشدنا النبي ﷺ إلى الطريق الذي يبلغ به العبد كمال دينه وحسن إسلامه وصلاح عمله، فبيَّن ﷺ أن مما يزيد المرء حسنًا في دينه أن يدع ما لا يعنيه ولا يفيده في أمر دنياه وءاخرته، وأن لا يتدخل في شؤون غيره على نحو يُفضي إلى التطفل. ففي قوله توجيهٌ للأمَّة بالاشتغال بما ينفعها ويقرّبها من طاعة ربها كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ قال: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**[3]»، فأرشد ﷺ إلى اغتنام الأوقات بالخيرات، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، وعمر الدنيا قصير، فهو كظل شجرة يوشك أن يذهب سريعًا، لذا الإنسان العاقل الذي جعل الآخرة همه والجنة مأربه يغتنم أوقاته كلها.

وإن اهتمام المرء وانشغاله بما يعنيه فيه فوائد عظيمة، فالنفس إن لم تشغلها بالطاعة قد تشغلك بالمعصية، فمن اشتغل بالناس نسي أمر نفسه وأوشك اشتغاله بالناس أن يوقعه في أعراضهم بالقيل والقال، كما أن انشغال المرء بنفسه وبما يعنيه فيه حفظ للوقت ومسارعة في الخير.

كَظمُ الغَيظ: أصل مادة «ك ظ م» يدلُّ على معنًى واحدٍ وهو الإمساك والجمع للشيء.

وفي اللغة يقال: كظم غيظه إذا تجرعه واحتمل سببه وصبر عليه وسكت عليه ولم يظهره بقولٍ أو فعلٍ مع قدرته على إيقاعه بعدوه.

---

(١) سنن أبي داود، أبو داود، (٤/ ٢٥٢).

(٢) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (٢/ ١٣١٥).

(٣) صحيح مسلم، مسلم، (٤/ ٢٠٥٢).

قال اللَّه تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [سورة ءال عمران]. فقد أثنى اللَّه سبحانه وتعالى على الكاظمين وهم من يخالف هوى نفسه ولا يعطيها ما تريد لأنه إن اتبعها وأعطاها ما تأمره به أوصلته إلى النار، فإحياؤها وإكرامها بإماتتها ومخالفتها. ومن لا يخالف هواه لا يترقى. فمن كظم غيظه وردَّ غضبه أخزى شيطانه وسلمت مروءته ودينه، وضبطها يكون بتذكر أن اللَّه مطلع عليك ومجازيك إن أسات وبالاستعاذة والوضوء، فإنَّ الغضب من الشيطان وهو خُلِق من نار، والذي يطفئ النار الماء، وبالتأسي بالنبي وإلا ففارِق المجلس، فإنك بكظمك لغيظك تكسب قلوب الآخرين وتتجنب الندم الذي يحصل بعد الغضب وتكسب الثواب بطاعتك لكلام اللَّه.

البُعد عن الغضب: فالغضب لا في محله ينافي الوقار والهيبة، فقد ذكر الطبري في تاريخه[1] عن طاهر بن حسين أنه أوصى ابنه عبد اللَّه فقال: واملك نفسك عن الغضب وأكثر الوقار والحلم وإياك والحدة والطيش والغرور.

التزام الصمت وقلة الكلام إلا فيما يعني: فكل ذلك من سمات الوقار وعلاماته، فالصمت في محله زين الحلم يلزمك السلامة ويصحبك الكرامة ويلبسك ثوب الوقار.

الحياء الممدوح: قال القرطبي: «إن من الحياء ما يحمل صاحبه على الوقار بأن يوقر غيره ويتوقر هو في نفسه».

الحلم: فإنّ من نُسِب إلى الحلم أُلبس ثوب الوقار والهيبة وأُبَّهَةِ الجلالة.

الصدق: فإن من عُرِفَ بالصدق صار الناس له أتباعًا، فصدق اللَّهجة عنوان الوقار.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري، (٨/ ٥٨٥).

افتِتاحُ خِطابِ التَّودِيعِ

قوله ﷺ: **أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا مِنِّي أُبَيِّنْ لَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِيْ هَذَا فِي مَوْقِفِي هَذَا.**

الكلامُ على «أمّا بَعدُ»

(**أَمَّا بَعْدُ**) هي كلمةٌ تقولُها العرَبُ الأُوَل، و«بَعدُ» فيها مبنِيّةٌ على الضم لِقَطعِها عن الإضافة المنْوِيّةِ، و«أَمّا» فيها معنَى الشَّرطِ، وتُستَعمل لتفصيل ما يُذكَر بعدَها غالبًا، وتأتي مُستأنَفَةً لا لتفصيل، وللتفصيل والتقرير، وهي مِن أفصَح ما انْفَرَدَت بِه، وهُو حَرفٌ وُضِع عندهم لتجديد الخبر عمّا سواه بعد ما تَقَدَّمَهُ، وقد جُعِلَت مقدِّمةً له وفاتِحةً لسَوْقِهِ، ويقال لَهَا «فَصْل الخِطاب» لأنّها فاصِلةٌ بَين كَلامَين، ويؤتى بها للانتقال مِن أسلوب إلى ءاخَرَ، وأكثَرُ استِعمالهما بعد تَقَدُّم قِصّة أو حَمدٍ لله تعالى والصَّلاةِ على النّبيّ عليه الصلاة والسلام، والأصلُ أن يقال: أما بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تعالى فأقول كيتَ وكَيتَ. واختُلِف في أوَّلِ مَن قالها، فقيل: داود عليه السّلامُ، وقيل: يَعْرُب بنُ قَحْطان، وقيل: كَعْب بنُ لُؤَيّ، وقيل: قُسُّ بنُ سَاعِدَة، وقيل: سَحْبان ابنُ وائِل، وفي غرائب الدَّارَقُطني: إنّ أَوَّلَ مَن قالها يَعقوبُ عليه السلام، واللهُ أعلَمُ.

دُنُوُّ أجَلِ النَبِيّ ﷺ

(**أَيُّهَا النَّاسُ**) هو خِطاب للحاضِرين معه يومئذٍ، يعنِي الصّحابَةَ المجتَمِعِينَ في ذلك الموقِف.

(**اسْمَعُوا مِنِّي**) مقالاتِي الآتِيةَ، وهو فِعل شَرطٍ وجوابُه (**أُبَيِّنْ لَكُمْ**) بيانًا شافِيًا، يقال: بانَ الأمرُ يَبِينُ فهو بَيِّنٌ وأبانَ إبانَةً وبَيَّنَ وتَبَيَّنَ واستَبان كُلُّها بمعنَى الوُضوحِ والانكِشافِ، والبيانُ إظهارُ المقصُودِ بأَبْلَغِ لَفْظٍ.

(فَإِنِّي لَا أَدْرِي) ولا أعلَمُ متَى يَحِلُّ أَجَلِي وأموتُ. وفي ذلك دليل على أنّ الرسُول ﷺ لا يَعلَم كُلّ شيء خِلافًا لِمَا ادّعاه بعضُ الغُلاة، فلا أَحدَ يُشارِكُ اللَّه في صِفةٍ مِن صفاته لا صِفة العِلم ولا غيرِها مِن الصِّفاتِ، فالرَّسُول لا يَعلم كُلَّ ما يَعلَمُه اللَّه، إنّما اللَّه تعالى أَطْلَعَه على بعض الغَيْبِيّات، ومَن قال بخِلاف ذلك فهو كافِر ليسَ مِسْلِمًا، لأنّ المقرَّر عند المسلِمينَ أنَّ اللَّه تعالى وَحْدَهُ المتَّصِف بالعِلْم بِكُلِّ شيء، وقد قال تعالَى: ﴿الحاقة﴾ [سورة البقرة] فلو صحَّ العِلمُ بكل شيء لغير اللَّه تعالى لم يكن للتَّمَدُّح بوَصفهِ نفسَه بالعِلمِ بكل شيء معنًى، حاشَا لله.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿قُل﴾ أي يا مُحَمَّد ﴿لَآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [سورة الأعراف] وقد مَسَّ النبيَّ ﷺ مِن الكافِرين أذًى كَثِيرًا، فقد جاء في الحديث الصحِيح أنّ رسول اللَّه ﷺ أُوذِيَ يوم أُحُدٍ «فَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَشُجَّ فِي وَجْهِهِ وَقَدْ دَخَلَ فِي وَجْنَتَيْهِ حَلْقَتَانِ مِنْ حِلَقِ الْمِغْفَرِ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ».

وكذلك جاء في القرءان الكريم: ﴿قُل﴾ أي يا مُحمَّد ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي لَستُ بِأَوَّلِ مُرسَلٍ فَتُنكِرُوا نُبُوَّتِي ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩﴾ [سورة الأحقاف] فالذي يَدَّعِي أنّ الرسول يَعلمُ كلَّ شيء فهذا مُكَذِّب للقرءان وُمَدَّعٍ بأنّ القرءان يأمر النبيّ أن يَكذِب، حاشا، ومعنَى الآية أنّ النبيّ ﷺ لا التفاصيل التي تكون في الآخرة أي تفاصيل ما يكون له وما يُفعَل بأُمَّتِه، لأنّ اللَّه تعالَى لم يُطْلِع نَبِيَّه على تفاصيل أمور الآخرة كُلِّها، لكن لا شكَّ أنّه ﷺ مأمونُ العاقبة ولا يلحقُه شيء مِن نَكَدٍ أو نحوِه بل هو ءامِنٌ سيّدُ الأوَّلين والآخِرين، فليس معنى ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي﴾ [سورة الأحقاف] أنّ النَّبِيّ يكون عِندَه شَكٌّ هل يَنجُو أو لا، حاشا، فعُلِم من ذلك بُطلَان ما ورد في بعض الكتب مِن أنّ الأنبياء يفزَعون يوم القيامة وترتعد فرائصهم أي يدخل قلوبَهم الرعبُ من أن يصيبهم العذاب فذلك كذب وافتراء على دين اللَّه وأنبيائه، ويكفي في رَدِّ هذا الافتراء قولُ اللَّه تعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [سورة يُونُس: ٦٢].

ثُمّ إنّ مِن صريح ما جاء في بيان أنّ النبيَّ ﷺ لا يَعلَمُ الغَيب كُلَّه قول اللَّه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [سورة التوبة] صَدقَ اللَّهُ وكَذَب أولئك المتَنَطِّعُون الْمُغَالُون الذّين يَظُنُّون بأَنفُسِم أنّهم للرسول مُعَظِّمُون، وما هم في نفس الأمرِ إلا في فساد مِن العَقْد يَغرَقون، وعن جادَةِ الصواب مَحِيدون، أخزاهم اللَّه ألا إنّهم مَقبُوحون مَفضُوحُون.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن ابنِ عبّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾[سورة النصر] دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاطِمَةَ فَقَالَ: «**قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي**»، فَبَكَتْ، فَقَالَ: «**لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي**[1]»، فَضَحِكَتْ، فَرَءَاهَا بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَ: يَا فَاطِمَةُ، رَأَيْنَاكِ بَكَيْتِ ثُمَّ ضَحِكْتِ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ لِي «**لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لَاحِقٌ بِي**» فَضَحِكْتُ.

(**لَعَلِّي**) أي يَحتَمِلُ أنْ أموتَ هذا العامَ (**فَلَا أَلْقَاكُمْ**) في حَياتِي (**بَعْدَ عَامِيْ هَذَا**) غير تِلكَ المرّة (**فِي مَوْقِفِي هَذَا**) الذي أقِفُه خاطِبًا فيكم بِمنًى يوم النَّحْر، لأنّي قد أموت قبل مَجِيء الموسِم القابِل فلا ألقاكُم في الحياة بَعد ذلك، الموقِف في اللُّغة مكان الوقوف حيث كان.

(١) () **سنن الدارمي**، الدارمي، (٢١٩٧).

حِفْظُ الدِّماءِ والأَموالِ والأَعراضِ

قوله ﷺ: أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ.

اليَوم الحَرامُ والشَّهرُ الحَرامُ والبَلَدُ الحَرامُ

(أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا) أي الذي نحنُ فيه مُجتَمِعُون **(قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ)** ووصفُ اليوم بالحرام هو مَجازٌ مُرْسَل نَظِير قولهم: رَجُلٌ عَدْلٌ، وذلك أنّ الحرام ليس هو عينَ اليومِ إنّما هو يومٌ يَحرُم فيهِ القِتالُ، وكذلك يقال في قولهم: «بَلَدٌ حَرامٌ» و«شَهْرٌ حَرَامٌ»، فالمراد أنّ الحَرام ما يَقَع فيه مِن مُجاوزةٍ للحَدّ. وجاء في رواية أخرى: «قَالُوا: يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ»، أي يوم العِيد لأنّ فيه تمام مُعظَمِ أفعال الحَجّ بِتمام أركان الحَجّ يوم العِيد، ولِمَا رُوِي أنّه ﷺ وقَفَ يومَ النَّحر عند الجَمَرات في حَجَّة الوَداعِ فقال: «**وَهَذَا يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ**[1]».

(قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا) أي الذي نحنُ فيه هنا **(قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ)** أي القِتالُ فيه **(قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا)** أي الذي نحنُ فيه الآنَ **(قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ)** أي القِتالُ فيه.

وقد خرج قوله ﷺ في الجُمَل الثلاثةِ مَخرجَ الاستِفهام وأراد بِه التَّقرِيرَ وذلك أبلَغُ، وهو كذلك في حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما.

وقد جاء في حديث أبي بَكْرَةَ: «أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟[2]»، قالوا: اللَّهُ وَرَسولُه أعلَمُ، فسكت حتَّى ظَنَنَّا أنه سُيَسَمِّيهِ بغير اسْمٍ، قال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْر»، قُلنا: بَلَى،

(١) مسند الإمام أحمد، الإمام أحمد، (٢٥/ ٢٢١).

(٢) صحيح البخاري، البخاري، (٨/ ١٥).

وكذا حَدِيثُ ابنِ عُمَر وَرَد بذلك إلا أنه ليس فيه «فسَكَتَ» إلخ، بل فيه بَعد قولهم: «اللهُ ورَسولُه أعلَمُ»، قال: «هَذَا يَوْمٌ حَرَامٌ»، وقيل في الجمع بينهما: إنّ بعضهم بادَر بالجواب وبعضَهم سَكَت، وقيل في الجمع: إنّهم فَوَّضُوا أَوَّلًا كُلَّهم بقولهم: «اللهُ ورَسولُه أعلَمُ»، فلَمَّا سَكَت أجاب بعضُهم دُون بَعضٍ، وقيل: وقعَ السُّؤال في الوقت الواحد مَرَّتَين بلفظَين فلَمَّا كان في حديث أبي بَكْرَةَ فخامةٌ لَيسَت في الأول لقوله فيه: «أَتَدْرُونَ؟» سَكَتُوا عن الجواب، بخلاف حديثِ ابن عباس لِخُلُوِّه عن ذلك، قاله الكرماني وغيرُه، وقيل: في حديث ابنِ عَبّاسٍ اختِصارٌ بَيَّنَتْهُ روايةُ أبي بكرة، وأمّا عند ابن عمر فكأنه أَطْلَق قولَهم: «يَوْمٌ حَرَامٌ» باعتبار أنهم قَرَّرُوا ذلك بقولهم: «بَلَى»،فسَكَت في رواية ابن عمر عن ذِكْر جَوابِه.

وكان ﷺ يريد تذكِيرَهُم حُرمة ما ذُكِرَ وتَقريره ذلك في نفوسهم ليَبنِي عليها ما أراد تقريره حيث قال: «إِنَّ دِمَاءَكُم وَأَمْوَالَكُم وَأَعْرَاضَكُم» إلخ.

حِفظُ الأنفُسِ

(أَيُّهَا النَّاسُ) أي من يسمع ويحضر فليتنبه لكلامي وليحفظه لأنه مهم وفيه ما فيه من المحاسن والإرشادات التي توصلكم لبرِّ الأمان والسلام إِنَّ دِمَاءَكُمْ أي سَفْكَ دَمِ واحِدٍ مِنكُم بغير حق حرامٌ، وليس الكلام مِن باب مُقابلة الجَمْع لِلْجَمْع لإفادة أنّ دَمَ كُلِّ واحِدٍ مِنكُم دَمُه حرام عليه، بل هو لإفادة العموم أي دَمُ كُلِّ أحَدٍ حَرام عليه وعلى غيرِه، وأمّا حُرمة دَمِ المرء نَفسِه على نَفْسِه فمَعلُومٌ لا يَجهَلُه الحاضِرون.

وبدأ ﷺ بالتحذير مِن قتَل النَّفسِ بغيرِ حَقٍّ لأنّها ءاكَدُ مِن غَيرِها وأخطَرُها حيث إنّ قتَل النَّفس التي حَرَّم اللَّه بِغَير حَقٍّ أكبرُ الكبائِر بعد الكُفر على الإطلاق.

وأما قولُ اللَّه تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[سورة البقرة] وقولُه:﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [سورة البقرة] فمعناه أنّ الفِتنةَ في الدِّين أيِ الكُفرَ والخروجَ عن دين الإسلام هو أشدُّ مِن القَتل ظُلْمًا وليس معناه أنَّ مجرد الإفساد بين اثنين بنَمِيمةٍ أو غيرِها

تكون أشدَّ مِن قتل المسلِم ظُلْمًا، بل الذي يعتقد ذلك يكون قد كَذَّب الشَّرِيعة لأنه مَعلُوم مِن الدِّين بالضرورة عند الخاصّة والعامّة أنه لا شيءَ أكبَرُ ذنبًا بعدَ الكُفر مِن قتل المسلِم ظُلمًا، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ**»[1] **وفي رواية: «مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»**[2].

وسبب نزول هذه الآية الكريمة ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [سورة البقرة] أنَّ المشركِين كانوا اعترَضُوا على المسلِمِينَ وعابُوهم بأنهم قتَلُوا في الشَّهر الحرام، والأمر أنّه كان في المسلمين رَجُلٌ يقال له واقد ابن عبد اللَّه الليثي قد قتل رجلًا من المشركين ضِمن حدود حرَم مكّة يقال له عمرو بن الحضرمي وهو أخو الصحابيّ الوليّ الكبير العلاء بن الحضرمي، وكان عمرو بن الحضرمي من جُملةِ مُشْرِكِي أهلِ مكة الذين كان أذاهم على المسلمين شديدًا، فعَيَّر المشركون المسلمين قالوا لهم: كيف تَقتُلون في حَرَمِ اللَّه؟ مع أنّ العادة كانت أن لا يُقاتل في الأشهر الحُرُم الأربعة ذي القعدة وذي الحجة والمحَرَّم ورَجَب، فرَدَّ اللَّه على الكافرين وذَمَّهم بقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [سورة البقرة] أي ارتكب المشركون الأمر الذي هو رأس الذنب وهو الشرك والكفر بالله والعياذ بالله تعالى، فكيف يَعِيبون على المسلمين أنهم قاتلوا في الشهر الحرام مع كون المشركين العائبين عليهم متلَبِّسين بما هو أشَدُّ من ذلك وهو الشرك بالله الذي هو أعظمُ الظلم وأكبَرُه، ناهيك عن أنّ القتال في ذلك الوقت في الأشهر الحرم الأربعة كان حرامًا على المسلمِين ثم نُسِخَ، وعلى هذا جَرَى الجمهور، فلم يُصِب المشركون في شيء مِمّا عابُوه على المسلمين صوابًا بل ازدادوا خِزيًا وخُسرانًا.

---

(١) سنن النسائي، النسائي، (٧/ ٨٢).

(٢) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (٢/ ٨٧٤).

حِفظُ الأَموالِ

(**وَأَمْوَالَكُمْ**) أي ما تَملِكُون. قَالَ ابْنُ الأَثير: الْمَالُ فِي الأَصل مَا يُملك مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ثُمَّ أُطلِق عَلَى كُلِّ مَا يُقْتَنَى ويملَك مِنَ الأَعيان، وأَكثر مَا يُطلق الْمَالُ عِنْدَ الْعَرَبِ عَلَى الإِبل لأَنها كَانَتْ أَكثر أَموالهم. وفي اللغة مِلْتَ بَعْدَنَا تَمالُ ومُلْت وتَمَوَّلْت، كُلُّهُ: كثُر مالُك. وَيُقَالُ: تَمَوَّلَ فُلَانٌ مَالًا إِذا اتَّخذ قَيْنة، والمراد مِن قوله علَيه السلامُ التحذيرُ وبيانُ أنّ انتِهاكَ أموالِ بعضِكم بَعضًا فيما بينكم أي بالباطل حرامٌ، وإنما ذكره مختصرًا من باب الاكتفاء بعِلم المخاطَبِين بذلك، فجعل «**أَمْوَالَكُم**» قَرينةَ «**دِمَاءَكُم**»، وقَد قدَّر بعضهم «أخْذَ» بدل «انتهاكَ» ولكن تكون خاصّة بذِكر الأموال ولا تنسَحِب على الأعراض ولا تتعلَّق بالدِّماء، أمّا لو قُدِّر الانتهاك عِند ذِكر الدِّماء أوَّلًا كما ذَكَرتُ هُنا لَما احتِيجَ إلى تقدير لفظٍ مع كل واحِدٍ من الأمور الثلاثة وذلك لصِحّة انسحاب «انتهاك» على الجميع لأنّ انتهاك الشيء هو تناوُلُه بغير حقّ، وأمّا الأخْذُ فلا بُدّ مِن تقييده بكونه «بغير حقٍّ» ليكون باطِلًا مُحَرَّمًا، وتأمّل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [سورة البقرة] معناها لَا يَأْكُل بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ بِالْبَاطِلِ، أَيْ: مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي أَبَاحَهُ اللَّهُ، وَأَصْلُ الْبَاطِلِ: الشيء الذَّاهِبُ، وَالْأَكْلُ بِالْبَاطِلِ أَنْوَاعٌ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقِ الْغَصْبِ وَالنَّهْبِ، وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقِ اللَّهْوِ كَالْقِمَارِ وَأُجْرَةِ الْمُغَنِّي وَنَحْوِهِمَا، وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقِ الرِّشْوَةِ وَالْخِيَانَةِ.

حِفظُ الأَعراضِ

(وَأَعْرَاضَكُمْ) أي انتِهاكَ أعراضِ بعضِكُم بَعضًا أي بالباطل حرامٌ، والأعراضُ جمع عِرْض، والمراد منه تحريم التَّعَرُّض للإنسان بما يُعَيَّر أو يُنَقَّص به في نَفسِه أو أحَدٍ مِن أقارِبِه بغير حقٍّ، بل يلحق به كل من له به عُلْقة بحيث يَؤُول تنقيصه أو تَعييرُه إليه، وهذا أعَمُّ مِن قول: «إنّ العَرَض مَوضِعُ المدح والذّمّ مِن الإنسانِ، سواءٌ كان في نَفْسِه أو في سَلَفِه»، وفي العِرض أيضًا تعريفات كثيرة، فقد قيل: هو ما يَحمِيهُ الإنسانُ ويَلزَمُه القِيامُ به، وقيل: العِرضُ الحَسَب، وقيل: الخُلُق، وقيل: النَّفْس، يقال فلان نَقِيُّ العِرْض أي بَرِيء مِن أن يُشتَم أو يُعابُ، والعِرضُ كذلكُ رائِحةُ الجَسَد أو غَيرِه طَيّبةً أو خَبِيثةً.

وشَبَّه الدماء والأموال والأعراض في الحُرمة باليوم والشهر والبلد لاشتهار الحرمة فيها عِندَ السَّامِعين، وإلاّ فالمشَبَّه إنما يكون دُون المشَبَّه به، ولهذا قَدَّم السؤال عنها مع شهرتها لأنّ تحريمها أُثْبِتَ فِي نُفوسِهم.

ومِن جُملة انتِهاك عِرض المسلم تناوُله بما يسوؤه مِن الكلام كالشّتم والغيبة المحرَّمَتين، وقد تكون الغيبة جائزة بل واجبة وذلك في التحذير الشرعي مِن ذي فِسق عملي أو بدعة اعتقادية ولو من البدع التي هي دون الكفر كالتحذير من التاجر الذي يغش في معاملاته وتحذير صاحب العمل من عامله الذي يخونه، وكالتحذير من المتصَدِّرين للإفتاء أو التدريس أو الإقراء مع عدم الأهلية، فهذه الغيبة واجبة.

ومِن الجهل بأمور الدين استنكارُ بعض الناس التحذيرَ مِن العامل الذي يَخُون صاحب العمل احتجاجًا بقولهم: «إنّ هذا قطع الرّزق على الغير»، فهؤلاء يُؤْثِرُون مراعاة جانب العبد على مراعاة شريعة اللَّه.

وليس ذِكر بعض المنحرفين عن شريعة اللَّه داخلًا في الغيبة المحرّمة، إنما هو من التحذير الواجِب، وقد ثَبَت أنّ فاطمة بِنتَ قَيسٍ سألَت رسول اللَّه ﷺ في شأنِ

خِطبَةِ مُعاويةَ وأبي جَهمٍ لها فقال ﷺ: «**أَمَّا أَبُو جَهْمٍ، فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ**»[1] رواه مسلم.

فإذا كان الرسول ﷺ قد حَذَّر فاطِمةَ مِنهُما وذكرهما في خلفهما بما يكرهان لهذين السَّببين، أحدهما: كون معاوية شديدَ الفقر لا يقوم بحاجتها لأمرِ النفقة، والثاني: أنّ أبا جَهْم يُكْثِر ضَرْب النساء، فكيف بالتحذير مِن أُناس ادَّعَوُا العِلمَ وغَشُّوا الناس وجعلوا الكُفر إسلامًا.ولهذا فقد حَذَّر الشافعِيُّ مِن حَفْصٍ الفردِ أمام جمع وقال له: «لقَد كَفَرْتَ بِاللهِ العَظِيم»، وقال في مُعاصِرِه حَرامِ بنِ عُثمان – وكان يروي الحديثَ ويَكذِب–: «الرِّوايةُ عَن حَرامٍ حَرامٌ»، وكذلك جَرَح الإمام مالكٌ في بَلَدِيّه ومُعاصِرِه مُحَمَّدِ بن إسحاق صاحب كتاب المغازي فقال فيه: «كَذَّابٌ»، وقال الإمام أحمد: «الواقِدِيُّ رُكْنُ الكَذِبِ»، والغرضُ من ذلك كُلِّه حِفظُ الشريعة، لأنهُ لولا تَجَنُّب الرواة الذين لا يَستَحِقُّون أن يُروى عنهم لضاعَ الدِّينُ.

وقد قَدَّم ﷺ الأموال على قوله «**وَأَعْرَاضَكُم**» لأنّ ابتلاء الناس بالجِناية فيها أكثرُ.

(**عَلَيْكُمْ حَرَامٌ**) أي دِماءُ بَعضِكم وأموالُه وأعراضُه حرامٌ على البعض الآخر حُرمةً شَدِيدةً، فأَخْرَجَ الخبرَ عن تحريم ذلك على وَجهِ الخطاب لَهُم إذ كان المخاطبُونَ كلُّهم على الإسلام، وكان جميعهم فيما لِبَعضِهم على بعضٍ من الحق فى معنَى الواحد فيما لِنَفسِه وعليه.وفي كتاب اللَّه تعالى:﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [سورة النساء] والمعنى لا يأكُل بَعضُكم مالَ بعضٍ بالباطل، ولا يَقتُل بَعضُكم بعضًا، وذلك أنّ المؤمنين بعضَهم إخوةُ بَعضٍ، فما أصاب أخاه مِن مكروه فكأنّه المصابُ به، فقد بيّن ﷺ في هذا الحديث أنّ اللَّه حَرَّم مِن مال المسلِم وعِرضَه نَظِير الذي حَرَّم من دمه وسوَّى بين جَمِيعه فلا يُستَحَلُّ مالُه، وكذلك قال ابن مسعود في خطبته: «حُرْمَةُ مَالِ الْمُسْلِمِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ».

---

(١) صحيح مسلم، مسلم، (٢/ ١١١٤).

فائدة: ذَهَب التُّورِبِشتيُّ إلى أنّ معنى»وَأَعْرَاضَكُمْ» أنفُسَكُم وأَحسابَكُم، فإنّ العِرْض يُقال للنَّفْس والحَسَب، وتُعُقِّبَ بأنّه لو كان المرادُ مِن الأعراض النُّفوسُ لكان تَكْرارًا، لأنّ ذِكْرَ الدِّماءِ كافٍ إذِ المراد بها النُّفوسُ.وقال الطِّيبِيّ: «الظاهِرُ أنْ يرادَ بالأعراض الأخلاقُ النَّفْسانِيّةُ، والكلام فيها يحتاج إلى فَضلِ تَأَمُّل، فالمرادُ بالعَرَض هنا الخُلُق»، ثم قال:»وحِين كان المدح نِسبةَ الشخص إلى الأخلاق الحميدة والذَّمُّ نِسبَتَه إلى الذَّمِيمة سواء كانت فيه أو لا قال من قال: العِرْضُ الخُلُق إطلاقًا لاسمِ اللازِم على الملزُومِ».

فائدة أخرى: العَرْض في اصطلاح الفقهاء هو ما ليس ذهبًا ولا فضّةً وجمعه عروض، وأمّا العِرْض بالكسر فهو محلُّ الذمّ والمدح من الإنسان، وأَمَّا العُرْض بضمّ العين فهو الجانب يقال عرض الحائط ومعناه جانب الحائط، وأما العَرَض بفتح الراء فهو ما لا يدوم. وأمَّا الذهب والفضّة فقد خُصّا في عرف الفقهاء باسم النقد، فإذا قال الفقهاء النقد فهو الذهب والفضّة وما سوى الذهب والفضّة يقال له كما مرَّ عَرْضٌ.

معنَى لِقاءِ العَبدِ رَبَّهُ

(إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ) أي إلى أن تَموتوا. أما الحديث: «من كرِه لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه[1]» معناه عند الاحتضار إذا أُخبر بالعذاب الكافر يكره الموت هذا المقصود بهذا الحديث. وروى مسلم أنّ الرسول ﷺ أمر أصحابه شيئًا لأناس ضربهم الفاقة والبؤس والشدة فجمع لهم مال فقال: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ**»[2] وهذا دليل على أن المسلم لا بُدّ أن يدخل الجنة لو لم يكن يصلي أو يصوم أو يحجّ.

فائدة: أما قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الأنفال] أي سبب الوقوع فى الفتنة وهى الإثم والعذاب أو محنة من اللَّه ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الأنفال] فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك وتزهدوا فى الدينا ولا تحرصوا على جمع المال وحُبّ الولد.

(١) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (٢/ ١٤٢٥).

(٢) صحيح مسلم، مسلم، (١/ ٥٦).

تَشبيهُ حُرمة الأنفُس والأَعراض والأَموالِ بحُرمة اليَوم والشَّهرِ والبلَد الحَرامِ

قوله ﷺ: **كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا.**

(كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا) أي تَعَرُّض بَعضِكم لدِماء بعضٍ وأَعراضِه وأموالِه في غير هذه الأيام حرامٌ كحُرْمة التَّعَرُّض لَهُما في يوم عرَفةَ مِن إنّ الكُلَّ ممنوعٌ.

قال الطِّيبِيُّ رَحِمهُ اللَّهُ: «هذا مِن تَشبِيه ما لم تَجْرِ به العادة بما جرت به العادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [سورة الأنفال]، كانوا يستبيحون دماءهم وأموالهم في الجاهلية في غير الأشهر الحرم ويحَرّمُونها فيها كأنه قيل: إنّ دماءكم وأموالكم مُحَرَّمَةٌ عليكم أبدًا كحُرْمة يومكم وشهركم وبلدكم»، ومعنَى ذلك أنَّهُ متأكّدٌ شَدِيدُ التّحريم.

فإن قيل: قد استَشكَل قوله: «كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا» لأنّ حُرمةَ الدِّماء أعظَمُ مِن حُرمة حَشِيش الحَرَمِ وقَتلِ صَيدِه، فكيف شُبِّهت بما هو دُونَها؟

فقد أُجِيب، كما قال ابنُ الدَّمامِيني سِبطُ الناصِر بنِ الْمُنَيِّر، بأنّ مَناط التشبيه ظُهورُه عند السامع وتحريمُ اليوم كان أَثْبَتَ في نفوسهم مِن حُرمة الدِّماء إذ هي عادة سَلَفِهم، وتحريم الشرع طارِئٌ[1]، فإنّما شَبَّه الشيء بما هو فوقَه باعتبار ظُهورِه عِندَ السَّامِع.

وقال ابنُ الْمُنَيِّر: «قد استَقَرَّ في القواعد أنّ الأحكام لا تتعلق بأفعال المكَلَّفِين، فمعنى التحريم اليومَ والبلدِ والشهرِ تحريمُ أفعال الاعتداء فيها على النفس والمال

(١) أي جاءَتِ الشَّرِيعة بعد هَيمَنة عادات الجاهليّة الفاسدة.

والعِرض، فما معنى إذَن تشبيه الشيء بِنَفسِه»؟.

فأجاب القَسطَلّانيُّ عن ذلك «بِأَنّ المراد أنّ هذه الأفعال فِي غير هذ البلد وهذا الشهر وهذا اليوم مُغَلَّظةُ الحُرمة عَظِيمةٌ عند اللَّه فلا يَسْتَسْهِل المعتدي كونَه تَعَدَّى في غَيرِ البَلَدِ الحَرامِ والشَّهْر الحَرامِ، بل يَنبَغِي له أن يَخافَ خَوْف مَن فعل ذلك في البلد الحرام، وإِنْ كان فِعلُ العُدْوان في البلد الحرام أَغْلَظَ فلا يَنْفِي كونَ ذلك في غَيرِه غَلِيظًا أيضًا، وتَفَاوُت ما بَينَهُما في الغِلَظِ لا يَنْفَع المعتَدِي في غيرِ البَلَدِ الحرام، فإنْ فَرَضناه تَعَدَّى في البلد الحرام فلا يَسْتَسهِل حُرمةَ البَلَد بل يَنْبَغِي أن يَعْتَقِد أنّ فِعلَه أقبَحُ الأفعالِ[1] وأَنَّ عُقوبَته بِحسَبِ ذلك فيُراعِي الحالتَين».

جِماعُ الكُلّيّاتِ الخَمْسِ

واعلم أنّ هذه الخطبة النَّفِيسة قد اشتملت على الكليات الخمس فقَدْ قَرَّرَتِ الشَّرَائِعُ الْمُنَزَّلَةُ كُلُّهَا حِفْظَ خَمْسَةِ أُمُورٍ عُرِفَتْ عِنْدَ الْأُصُولِيِّينَ بِاسْمِ الْكُلِّيَّاتِ الْخَمْسِ وَزَادَ عَلَيْهَا السُّبْكِيُّ فِي جَمْعِ الْجَوَامِعِ وَالطُّوفِي[2] قبله «العِرْض»، وَقَدْ جَمَعَهَا النَّاظِمُ فِي هَذَا الْبَيْتِ عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبٍ فِيهَا فَقَالَ:

وَحِفْظُ دِينٍ ثُمَّ نَفْسٍ مَالْ نَسَبْ[1] وَمِثْلُهَا عَقْلٌ وَعِرْضٌ قَدْ وَجَبْ

وَأَمَّا ذِكْرُ الْخَمْسَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ فَهُوَ: الدِّينُ أَيِ الْإِسْلَامُ وَالنَّفْسُ وَالْعَقْلُ وَالنَّسَبُ وَالْمَالُ، فَقَوْلُهُ: (**وَحِفْظُ دِينٍ**) أَيْ صِيَانَةُ الْمَرْءِ اتِّبَاعَهُ دِينَ الْإِسْلَامِ وَحِفْظُهُ دِينَهُ عَمَّا يُبْطِلُهُ وَيَقْطَعُهُ وَهُوَ الرِّدَّةُ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى (**ثُمَّ**) حِفْظُ (**نَفْسٍ**) فَلَا يَحِلُّ لِلْمَرْءِ قَتْلُ

(١) أي مِن أقبَحِها، لأنّ الكُفر هو أشنَع الجرائم على الإطلاق.

(٢) هو أبو الفتح عبيد اللَّه بن عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري الطوفي من أهل نيسابور، سكن إسفراييين، من بيت العلم والحديث والتصوف، عمر العمر الطويل، وحدث بالكثير وسمع منه الأستاذ أبا القاسم القشيري، وأبا الوليد الحسن بن محمد بن علي الدربندي الحافظ.

(١) قال الأمير في حاشيته: «قوله (مالْ) بالسكون وحذف الألف» أي يُقرأ بسكون اللام وحذف الألف]هكذا مَلْ نسَب[أي (و) مالٍ (و) نسب، فهو على حذف حرف العطف.

نَفْسِهِ وَلَا قَتْلُ نَفْسٍ غَيْرِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَدْ قَرَّرَ الشَّرْعُ القِصَاصَ وَأَقَرَّ قَوَاعِدَهُ، وَأَبَاحَ التَّصَرُّفَ بِالْبَهَائِمِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ شَرْعًا كَذَبْحِ الْمَأْكُولِ لِأَكْلِهِ ثُمَّ يَنْتَفِعُ بِمَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْهُ، وَحِفْظُ (**مَال**) وَهُوَ مَا يَحِلُّ تَمَلُّكُهُ شَرْعًا وَلَوْ قَلَّ، وَقَدْ تَقَرَّرَ حِفْظُهُ بِإِيجَابِ الضَّمَانِ عَلَى مُتْلِفِهِ وعُقُوبَةُ السَّارِقِ وَالْمُحَارِبِ، وحِفْظُ (**نَسَب**) وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلَى وِلَادَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ جِهَةِ الْآبَاءِ، فَلا يُبَاحُ بِالزِّنَا، وَقَدْ شُرِعَ فِيهِ الْحَدُّ لِذَلِكَ (**وَمِثْلُهَا**) أَيْ وَمِثْلُ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ (**عَقْلٌ**) فَقَدْ قَرَّرَ الشَّرْعُ حِفْظَهُ فَحَرَّمَ مَا يُتْلِفُ الْعَقْلَ وَأَقَرَّ الْحَدَّ عَلَى شَارِبِ الخَمْرِ (وَ)مِثْلُ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ (**عِرْضٌ**) وَهُوَ مَوْضِعُ الذَّمِّ وَالْمَدْحِ مِنَ الْإِنْسَانِ ووجد هذا في قوله: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وأَمْوَالَكُمْ وأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»، وتَحْرِيمُ الأَعْرَاضِ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ وَقَدْ قَرَّرَ الشَّرْعُ حِفْظَهُ بِحَدِّ القَذْفِ، فـ(**قَدْ وَجَبْ**) حِفْظُ هَذِهِ الْكُلِّيَّاتِ الْخَمْسِ وَالْعِرْضِ: الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالعَقْلِ وَالنَّسَبِ وَالْمَالِ وَالْعِرضِ فِي شَرْعِ اللَّهِ.

الخلاصة: أَنَّهُ قَدْ شُرِعَتْ الْحُدُودُ حِفْظًا لِلدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالعَقْلِ وَالنَّسَبِ وَالْمَالِ وَالْعِرْضِ. فَشُرِعَ الْقِصَاصُ حِفْظًا لِلنَّفْسِ فَإِذَا عَلِمَ الْقَاتِلُ أَنَّهُ إِذَا قَتَلَ قُتِلَ انْكَفَّ عَنْ الْقَتْلِ، وَشُرِعَ حَدُّ الزِّنَا حِفْظًا لِلْأَنْسَابِ فَإِذَا عَلِمَ الشَّخْصُ أَنَّهُ إِذَا زَنَى رُجِمَ أَوْ جُلِدَ انْكَفَّ عَنْ الزِّنَا، وَشُرِعَ حَدُّ الشُّرْبِ حِفْظًا لِلْعَقْلِ فَإِذَا عَلِمَ الشَّخْصُ أَنَّهُ إِذَا شَرِبَ الْمُسْكِرَ الْمُذْهِبَ لِلْعَقْلِ حُدَّ انْكَفَّ عَنْ الشُّرْبِ، وَشُرِعَ حَدُّ السَّرِقَةِ حِفْظًا لِلْمَالِ فَإِذَا عَلِمَ السَّارِقُ أَنَّهُ إِذَا سَرَقَ قُطِعَتْ يَدُهُ انْكَفَّ عَنْ السَّرِقَةِ، وَشُرِعَ قَتْلُ الرِّدَّةِ حِفْظًا لِلدِّينِ فَإِذَا عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا ارْتَدَّ قُتِلَ انْكَفَّ عَنْ الرِّدَّةِ. وَكَذَلِكَ العِرْضُ حُفِظَ عَنْ أَنْ يُرْمَى بِالفَاحِشَةِ بِالحَدِّ عَلَى القَاذِفِ.

النَّبيُّ لا يُقَصِّر في تَبليغِ الشَّريعةِ

قوله ﷺ: **أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ، مَرَّتَين، اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.**

(أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ) بتخفيف اللام في «**أَلَا**» كأنه قال ألا يا قوم هل بَلَّغتُ أي هل عَمِلتُ بمقتضى قول اللَّه تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[سورة المائدة]، فأجابوه: «نَعَم» أي قَد بَلَّغتَ يا رسول اللَّه. و«أَلَا» حرف استِفتاح فيه معنَى الحَثُّ على سماع ما يأتي نظير ما في «ها» التَّنبِيه مِن أسماء الإشارة نحو: هـٰأنتم.

وسؤاله ﷺ لهم هو استِفهامٌ تَقرِيريٌّ و«هل» فيه بمعنَى «قَد» أي الاستفهام خارِجٌ في ذلك مَخرجَ التَّقرِيرِ والتأكيدِ وذلك أبلَغُ وأَوْقَع في النَّفسِ، وكأنّه ﷺ قال: قَد بَلَّغْتُكم ما أُمِرتُ بِتَبلِيغه لَكُم فَلا عُذرَ لَكُم بعد ذَلِك إن خَالَفْتُم إذْ لم يَقَعْ مِنّي تَقصِيرٌ في التَّبلِيغ.

وإنّ المستَقِرّ في نَفسِ كُلِّ مُسلِمٍ أنّ الرسولَ لا يُقَصِّر في ما أمرَه اللَّه تعالَى أن يُبَلِّغَهُ أُمَّتَه، وهذا هو حالُ جميع الأنبياء رُسُلًا كانوا أو غيرَ رُسُلٍ، فلا يَصِحُّ قول بعض الشُّرّاح: «إنّ النَّبِيّ إنسانٌ أُوحِيَ إليه بِشَرعٍ وإن لم يُؤْمَر بِتَبلِيغِه، فإنْ أُمِر بِتَبلِيغِه فرَسُولٌ»، لأنّ الصّوابَ أنّ كُلًّا مَأمُورٌ بالتَّبلِيغ، وعدَمُ التَّبلِيغُ مِمّن هو مأمورٌ بذلك خِيانةٌ، والأنبياءُ مُنَزَّهُون عَن ذَلِك، وقد ذَكَرنا قوله تعالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [سورة الحج] أي دَعا قَومَه، وإلا فلا يكون للنبيّ وظيفةٌ إن قِيل إنّه ليس مأمورًا بالتبليغ، ثم لا معنى للإرسال بِدُون الأمرِ بالتبليغ، كما قاله الفخر الرازيُّ، فالرسول والنَّبِيُّ كلاهما مأموران بالتبليغ إنما الفرق بينهما، كما قال الإمام أبو منصور البغداديّ، أنّ النّبيّ مَن أتاه الوَحيُ مِن اللَّهِ عّز وجل ونزل عليه الملَكُ بالوَحيِ، والرسول مَن يأتي بِشَرعٍ على الابتِداء أو يَنْسَخُ بعضَ أحكام شَرِيعَةِ مَن قَبْلَه.

وقال الحافظ أحمد الغُمارِيُّ في «جُؤْنةِ العَطّار في طُرَف الفَوائِد ونَوادِر الأَخبار»

ما نَصُّه: «الفَرْقُ بَين النَّبِيّ والرَّسُولِ دَقِيقٌ، وقد خَفِيَ على كثير مِن الناس، والمشهُور في كُتُب المتكَلِّمِين في الفَرْق بينَهُما أنّ الرَّسُولَ إنسانٌ أُوحِيَ إليه بِشَرعٍ وأُمِرَ بِتَبلِيغه، والنَّبِيُّ إنسانٌ أُوحِيَ إليه بِشَرعٍ فلَم يُؤمَر بِتَبلِيغه، وهذا كلامُ جَاهِلٍ بالسُّنّة والأخبارِ بل وبِصَرِيح القُرءان، فإنّ قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [سورة الحج] صَرِيحٌ في إرسالهما حقًّا، وكذلك قولُ النّبِيّ ﷺ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصّةً وَبُعِثْتُ إلى النّاسِ كافّةً**»، والأخبارُ والأحادِيثُ الَّتِي فيها: «فأَوْحَى اللَّه إلى نَبِيٍّ مِن أَنبِيائِه أنْ قُل لِفُلانٍ العابِد أو لِلْمَلِك الفُلانِيّ أو لِلقَرْيَةِ الفُلَانِيّةِ» لا تكاد تَنْحَصِر وهذا هو الإرسالُ، والذي عِندَنا أنّ الرَّسُولَ يُفارِقُ النَّبِيَّ في ثَلاثة أمورٍ»، ثم قال: «الثالثةُ: أنّ الرَّسُولَ يُبْعَثُ بِشَرِيعةٍ مُسْتَقِلّةٍ والنَّبِيّ يُبْعَثُ بِتَقرِيرِ شَرِيعةِ مَن قَبْلَه» .

والتعريفُ الصحيحُ الذي ذكرناه هو الذي جرى عليه جمهور السلف وكثيرٌ مِن الخلف كالشيباني في شرح الفقه الأكبر، وأبي منصور البغدادي في أصول الدين، والفخر الرازي في تفسيره، والبياضي الحنفي في إشارات المرام، والمفسر البيضاوي في تفسيره، والقُونَوِيّ النسفي في شرح العقيدة الطحاوية، وغيرهم مِن أفذاذ العلماء المحقِّقين المعتبرين.

(**مَرَّتَين**) أو قال: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ**» مَرَّتين، وفي رِواية: «**ثلاثًا**»، وفي رواية بلا تحديد عَدَدٍ أي مَرَّةً واحِدةً، ومعناه أنه قال: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ**» مرتين لا أنه قال الجميعَ مَرَّتين إذْ لم يَرِ ذلك أحَدٌ مِمَّن يُعتَدُّ به، وانتصابُ: «مَرَّتَين و«ثلاثًا» على أنه صفة لمصدَرٍ محذوف أي قاله قولًا مَرَّتَين أو ثلاثًا.

(**اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ**) أي على عِبادِك، فإنّهم أَقرُّوا بأَنّي قَد بَلَّغتُهم رِسالَتَك، وفي روايةٍ أنّه قال ذلك ثَلاثًا.

وُجوبُ تأدِيةِ الأماناتِ إلى أهلِها

قوله ﷺ: فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَن ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا.

(**فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ**) أي بأنْ كان مُؤتمنًا على أمَانةٍ لِغَيره وُضِعَت عِندَه (**فَلْيُؤَدِّهَا**) أي تِلكَ الأمانة (**إِلَى مَن**) أي صاحِبِها الذِي (**ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا**) أي الأمانةِ، لأنّ أكلَ الأماناتِ بِغَيرِ حَقٍّ خِيانةٌ، وأمّا ما جاءِ في قول اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[سورة الأنفال] فمعناهُ لا تُعَطِّلوا أحكام الشريعة، ثُمّ نَهَى عن الخِيانةِ في أكلِ الأماناتِ بِغير حَقٍّ فقال: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾[سورةالأنفال] أي لا تَفعَلوا ذلك، وقال تعالَى أيضًا: ﴿فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [سورة البقرة]، وأكّد عزَّ وجلَّ على ذلك بقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[سورة النساء]، ثُمّ هذه الآيةُ وإنْ كان نزولها في مِفتاح الكَعبة إلا أنّها عامّةٌ في جميع الأماناتِ، فالخِيانة في الأمانة مِن خصال المنافِق في العَمَل، وقد جاء في الحديث الصحيح عن أنسٍ أنّ رسول اللَّه ﷺ قال: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ»[1] أي مَن لا يحافظ على الأمانة لا يكون مُؤمِنًا كَامِلًا، وقال أيضًا: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ»[2].

وقال الإمام الهرري رحمه اللَّه: «تُطلَقُ الأمانَةُ على ما يَستَأمِنُ الناسُ بَعضُهم بَعضًا عليه مِنْ نَحوِ الوَدائع، وتُطلَقُ على ما أَلزم اللَّه تَعالى عِبادَه مِنْ نَحوِ الغُسْلِ مِنَ الجَنابةِ، وتَشمَلُ الأمانَةُ ما يَأتَمِنُ الرّجلُ علَيه أجِيْره مِنَ العَمل وما يَأتَمِنُ عليه الزّوجُ زَوْجتَه في بَيته بأنْ لا تَخُونَه في فِراشِه أو مَالِه، قال ﷺ «**كلُّكُم رَاعٍ وكلُّكُم مَسئُولٌ عن رَعِيّته**»[3] ورَوى الإمامُ أحمدُ وابنُ حِبّانَ مِنْ حديثِ أنَس «لا دينَ لِمَنْ لا عَهْدَ

---

(١) صحيح ابن حِبّان، ابن حِبّان، (١/ ٤٢٣).

(٢) سنن أبي داود، أبو داود، (٥/ ٣٩٥).

(٣) صحيح البخاري، البخاري، (٢/ ٥).

لهُ ولا إيْمانَ لِمَنْ لا أمانَةَ لَهُ» أي لا يكونُ مَنْ لا يُحافِظُ على الأَمانةِ مُؤْمنًا كامِلًا ولا يَكونُ دِينُ منْ لا عَهْدَ له كامِلًا مع إضَاعةِ العَهْدِ».

فائدة: الفرقُ بين الخائن والسارق والغاصب أنّ الخائن هو الذي خان ما جُعِل عليه أمينًا، والسارق مَن أَخَذ مالَ غَيرِه خُفيةً، وقد قيل: كُلُّ سارِقٍ خائِنٌ دُونَ العَكس، والغاصب مَن أخَذَ جِهارًا مُعتَمِدًا على القُوّة.

إبطالُ الجاهِليّةِ وحُكم ما فُعِل فيها

قوله ﷺ: أَلاَ كلُّ شَيءٍ مِنْ أَمْرِ الجاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ ودِمَاءُ الجاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دِمَاؤُنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِث كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي سَعْد فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَإِنَّ رِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ رِبًا أَبْدَأُ بِهِ رِبَا الْعَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَإِنَّ مَآثِرَ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ غَيْر السِّدَانَةِ وَالسِّقَايَةِ.

معنَى الدِّين والدِّيانةِ

(أَلاَ كلُّ شَيءٍ) أي فَعَلَهُ أحَدُكم **(مِنْ أَمْرِ الجاهِلِيَّةِ)** أي قبل الإسلام وقد تَعَدَّدَ مَا يَدِينُ بِهِ النّاسُ فِي فترةِ الجاهِلِيّةِ قبل بِعثةِ النّبِيّ مُحمّدٍ ﷺ ويتّخِذُونهُ دِينًا لهُم مِن دُونِ الإِسلامِ، فلم يكُونُوا على دِينٍ واحِدٍ باطِلٍ فقط بل كانت لهُم أديانٌ باطِلةٌ مُتعدِّدةٌ، وكُلُّ ما اتّخذُوهُ مِن دُونِ الإِسلامِ دِينًا فهُو باطِلٌ، والدِّينُ الحقُّ واحِدٌ لا غيرُ، وما زالتِ الأديانُ الباطِلةُ مُتعدِّدةً إِلى يومِنا. وقد أرسل اللَّهُ تعالى نبيّنا محمدًا رحمةً للخلق، كما أرسَل مِن قَبلِه أنبياءَ كَثِيرينَ، فهَدَى اللَّه به خَلْقًا كثيرًا عاش ثلاثًا وعشرين سنة بعد ما نزل عليه الوحي، اللَّه تعالى يسّر له خلقًا كثيرًا اتبعوه وءامنوا به، الجزيرة العربية مع اتساعها انتشر فيها الإسلام ثم بعد موته عليه السلام، عمر بن الخطاب فتح بلاد الشام سوريا والأردن وفلسطين ولبنان هو فتح هذه البلاد ومصر في أيامه فُتِحَت، ثم أيام عثمان فتحت البلاد إلى إيران إلى طنجة، إلى المغرب

الأقصى وصلوا كل هذا كان يحكمه عثمان فصلى اللَّه على سيدنا محمد ورضي اللَّه عن هؤلاء الصحابة الأعلام.

كَيفيّة وَضْع دِماءِ الجاهليّة

قال ﷺ إنّ كُلَّ مَفعولٍ في الجاهليّة مِمَّن أسلَم اليوم هو (**تَحْتَ قَدَمَيَّ هاتَينِ مَوْضُوعٌ**) أي كالشيء الموضوع تحت القَدَم وهذا مَجَازٌ عَن إبطاله وإسقاطِه، وفي رواية: «قَدَمِيْ» بالإفراد، والمعنى أنّي قد عَفَوتُ عن كل شيءٍ فَعَلَهُ رَجُلٌ قبل الإسلام وتَجافَيتُ عنه حتى إنّه صار كالشيء الموضوع تحتَ القَدَمِ، فإنّ العرب تقول في أمرٍ لا تكاد تُراجِعُه وتَذكُرُه: «جَعَلتُ ذلك دُبُرَ أُذُنِي وتحتَ قَدَمِي» (**ودِمَاءُ الجاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ**) أي مَتروكةٌ مَحطوطَةٌ لا قِصاصَ ولا دِيةَ ولا كَفَّارةَ فيها اليومَ على مَن أسلَم بعدما قتَلَ في الماضي أحَدًا حِين كان على كُفرِه الأصليّ.

قال أبو زُرعة العِراقي: «يُمكن أنّه مِن عَطْف الخاصّ على العامّ لاندِراج دمائِها في أمرِها، ويُمكِنُ أنّه لا يَنْدَرج لِحَمْلِ أُمورها على ما ابتَدَعُوه وشَرَّعُوه، وإيجابُ القِصاص على القاتل ليس مما ابتَدُعوه وإنما أُرِيدَ قَطْعُ النِّزاعِ بإبطال ذلك لأنّ مِنها ما هو حَقٌّ ومِنها ما هو باطِلٌ، وما يَثْبُت وما لا يَثْبُت».

وَضْعُ دَمِ ابنِ رَبِيعةَ بنِ الحارِثِ بنِ عَبدِ المطَّلِب

(**وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ**) أي أترُكُ القِصاص والدِّيةَ والكفّارة فيه (**دِمَاؤُنَا**) أرادَ دَمَ مَن قُتِلَ مِن المسلِمين مِن أقارِبِه، قال الطِّيبيُّ رحمهُ اللَّهُ: «ابتدأ في وضع القتل والدِّماء بأهل بيته وأقارِبِه ليكون أمْكَن في قلوب السامِعِينَ وأَسَدَّ لِباب الطَّمَعِ بِتَرخُّصٍ فيه»، فَبَيَّن ذلك ﷺ بقَولِه: (**دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِث**) أي أضَعُهُ فلا أقتَصُّ به، وربيعةُ بنُ الحارث بن عبد المطلب هو ابنُ عَمّ رسول اللَّه ﷺ، وكان أسَنَّ مِن العَبّاس بِسَنَتَين، فَلَمَّا خرج المشركون إلى بَدْرٍ كان ربيعةُ غائِبًا بالشام فلم يَشْهَدْهَا معهم، فلَمَّا خرج

العباس ونَوفَلٌ مهاجِرين إلى رسول اللَّه ﷺ أيّامَ الخَنْدَقِ شَيَّعُهَما رَبِيعةُ، فلَمَّا أرادَ الرُّجُوعَ قالا له:أين نَرْجِعُ وقد عَزَّ رسول اللَّه وكَثُرَ أصحابه؟ فأَقْبَل مَعَهُم حتى قَدِمُوا على رسول اللَّه ﷺ مُسلِمِينَ مُهاجِرِين، وشَهِدَ ربيعةُ مع رسول اللَّه ﷺ فَتْحَ مَكَّةَ والطائِفِ وَثَبَتَ مَعهُ يومَ حُنَينٍ.

وابنُ رَبِيعةَ الذي وَضَعَ رسول اللَّه ﷺ دَمَه فقيل: هو إِيَاسٌ، وقيل: تَمّامٌ، وقيل: حارِثةُ، وقيل: ءَادَمُ، وقال الدارقطنيّ: في هذا الأخير تصحيف، والجمهور على أنّه إياسٌ»، كما ذكَر النوويّ. وقال الحافظ ابن الجَوزِيّ: «وإنما خص الرسول ﷺ ابنَ عَمِّه بالذِّكْر لِيُعْلَم أنه لا رُخصة لأحَدٍ في هذا».

وأخبَر النبيّ ﷺ أنّ ابن رَبِيعةَ **(كَانَ)** طِفلًا رَضِيعًا **(مُسْتَرْضَعًا)** بفتح الضاد على البناء للمجهول أي كان له مُرضِعةٌ تُرضِعُه **(فِي)** نِساءِ **(بَنِي سَعْد)** بن بَكرٍ، والاسترضاعُ استِئجارُ مُرضِعةٍ للإرضاع **(فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ)** يعني قبيلةَ هُذيلِ بنَ مُدْرِكَة ابن إلياسِ، وذلك أنّ الطِّفلَ كان يَحبُو أمام البيُوت فرمَتهُ هُذَيلٌ بِحَجَرٍ في حربٍ بينَها وبين بَنِي سَعدٍ فرَضَخُوا رأسَه فماتَ.

وَإِنَّ رِبَا الجَاهِلِيَّةِ أي الرِّبا الذي كان معروفًا فيما بين أهل الجاهِليّة، فإنّ الزّائِدّ فيه على رأسِ المالِ **مَوْضُوعٌ** أي ساقِطٌ أو أنّ العملَ بربا الجاهِليّة موضوعٌ أي مَتروكٌ باطِلٌ ويُقتَصَر على رأس المال فقط، فكلُّ قرض أعطاه الرجلُ ليأخذَه أكثرَ مما أعطاه فقد سَقَطت الزيادةُ وَلَغَتْ ولا يجوزُ له أن يأخذَ إلا قَدرَ ما أعطاهُ وتَحرمُ عليه الزيادةُ، ويَشهَدُ لذلك قول اللَّه تعالَى:﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[سورة البقرة].

قال أبو زُرعة العِراقي: «ولا شَكَّ أنَّ عَطْفَ هذا على أَمرِ الجاهِلِيّة مِن عَطْفِ الخاصّ علَى العامّ لأنّه مِن إِحدَاثاتِهم الفاسِدة».

وَضْعُ رِبا العَبّاسِ بنِ عَبدِ المطَّلِب

(وَإِنَّ أَوَّلَ رِبًا أَبْدَأُ بِهِ) أي أضَعهُ وأُبطِلُه (رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ) عَمُّ النبيّ ﷺ وهو جَدُّ الخلفاء العبّاسِيّين. أُمُّهُ نُتَيْلَة بِنت جَناب بن كُلَيب، ويقال: إنها أوّل عربية كَسَتِ البيتَ الحرام الدِّيباجَ وأصنافَ الكِسوة، وذلك أنّ العباس ضَلّ عنها وضاعَ وهو صَبِيّ فنَذَرَت إنْ وَجَدَتْه أن تَكْسُوَ البيتَ، ففعَلَتْ. أَسْلَم العبّاس رضي اللَّه عنه وحَسُن إسلامه وأَرْغَم النّاسَ بإسلامه وذلك أنّه لَمَّا أَسْلَم شَقَّ على كُفّار قُرَيشٍ وعَلِمُوا أنّ إسلامه عِزٌّ ومَنَعَةٌ لِرَسول اللَّه ﷺ. كان العبّاس رضي اللَّه عنه طويلًا جميلًا أبيضَ، وقد تُوفِّي بالمدينة في رجَبٍ أو رَمضانَ مِن سنةِ اثنتين وثلاثين من الهِجرة.

وبدأَ رسول اللَّه ﷺ في هذا الحديث بوضع ما لأهلِ القَرابة أوَّلًا قَبل غَيرِهم لأنّ ذلك أمكَنُ في النُّفوسِ وأوقَع فيها، وفي قولِه ﷺ إبطالٌ لأفعال الجاهلية وبيوعها التي لم يتصل بها قَبْضٌ وأنّ الإمامَ وغيَره ممن يأمر بمعروفٍ أو يَنْهَى عن مُنْكَرٍ يَنبَغِي أن يبدأ بنفسه وأَهْلِه فهو أقرب إلى قَبولِ قَولِه وإلى طِيبِ نَفْسِ مَن قَرُبَ عَهْدُه بالإسلام، قاله النوويّ.

وقال أبو العبّاس القرطبي: «والرِّبا لُغَةً الزيادةُ والكثرة، ثم إنهم كانت لهم بُيُوعاتٌ يُسَمُّونها بيعَ الرِّبا، منها أنهم كانوا إذا حَلَّ أجَلُ الدَّين يقول الغريم لِرَبِّ الدين: أَنْظِرني وأَزِيدُك، فيُنْظِرُه إلى وقتٍ ءَاخَرَ على زيادةٍ مُقَرَّرةٍ، فإذَا حَلَّ ذلك الوقتُ الآخَرُ قال له أيضًا كذلك، فَرُبَّما يُؤَدِّي ذلك إلى استِئصال مالِ الغَرِيمِ فِي نَزْرٍ يَسِيرٍ كان ءَاخِذَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فأَبْطَلَ اللَّه سُبحانَه ذَلِكَ وَحَرَّمَه وتَوَعَّدَ عليه بقَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ [سورة البقرة] وبَلَّغ رسولَ اللَّه ذلك ﷺ قُرْءانًا وسُنّةً ووَعَظَ الناسَ وذَكَّرَهُم بذلك في ذَلِك الْمَوْطِن مُبالَغةً في التَّبلِيغ، وبَدَأ رَسُول اللَّه ﷺ بربَا العَبّاس لِخُصُوصِيّتِه بالنَّبِيّ ﷺ

لِيَقْتَدِيَ الناسُ به قَولًا وفِعلًا فيَضَعُون عن غُرَمَائِهم ما كان مِن ذَلِك» .

وقال الإمام أبو سُلَيمانَ الخطّابِيُّ رَحِمهُ اللَّه: «في هذا مِن الفقه أنّ ما أدركه الإسلامُ من أحكام الجاهلية فإنّه يُلَقَّاه بالرّدِّ والنَّكِير، وأنّ الكافر إذا أَرْبَى في كُفْرِه[1] ثم لم يَقْبِض المالَ حتى أَسْلَم فإنه يَأخُذُ رَأسَ مالِه ويضع الربا[2]، فأما ما كان قد مضى مِن أحكامهم فإنّ الإسلام يُلَقَّاهُ بالعَفْو فلا يُعْتَرَض عليهم في ذلك ولا يُتْبَعُ أفعالُهم في شيء منه، فلو قَتَل في حال كُفْرِه وهو في دار الحرب ثُمّ أَسْلَمَ فإنّه لا يُتْبَع بما كان فيه في حالَ الكُفْر».

ثم اعلم أنه يَحرُمُ الرِبا فِعلُهُ وأكلُهُ وأخذُهُ وكتابتُهُ وشهادتُهُ وهوَ بَيعُ أحَدِ النقدَينِ بالآخَرِ نَسيئةً، والنَّقدانِ هُما الذّهبُ والفِضَّةُ مضرُوبَينِ سِكَّةً أمْ لا والحُليُّ والتِّبْرُ وهو الذّهَبُ غير المضروب، أو بغَيرِ تَقابُضٍ أي افتِراقِ المُتَبايعَينِ قبلَ التّقابُضِ أو بجنسِهِ كذلكَ أي الذّهَبِ بالذّهَبِ أو الفِضَّةِ بالفِضّةِ نَسيئةً أو افتِراقًا بغيرِ تقَابُضٍ أو متفاضلًا أي بيعُ الذهبِ بالذّهبِ أو الفِضةِ بالفِضةِ معَ زيادةٍ في أحدِ الجانبينِ على الآخَرِ بالوَزنِ.

والمَطعُوماتُ بَعضُها ببَعضٍ كذَلكَ أي لا يَحِلُّ بَيعُها معَ اختِلافِ الجِنسِ كالقَمحِ معَ الشّعِيرِ إلا بشَرطَينِ انتفاءِ الأجلِ أي عدَم ذِكْر الأجَل وانتفاءِ الافتراق قبل التقابض. ومَعَ اتّحادِ الجِنْسِ كالبُرّ بالبُرّ يُشتَرطُ هذانِ الشَّرطانِ معَ التّماثُلِ فلا يَحِلُّ بَيعُ شَعيرٍ بشَعِيرٍ إلا مِثْلًا بمِثلٍ كَيلًا معَ الحلُولِ أي مع شَرط أن يكون ليسَ فيه أَجَلٌ والتّقابضِ قَبلَ الافتِراقِ.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [سورة البقرة]، ففي هذه الآية إنكار على الذين قالوا إنما البيع مثلُ الربا إذ الحِلُّ مع الحُرمة ضِدَّان فأنَّى يتَماثلان. وروى مسلم من حديث جابر رضي اللَّه عنه قال «لعَنَ رسولُ اللَّه ﷺ ءاكِلَ الربا

(١) أي تعامَل بالرّبا حال كُفرِه.

(٢) أي يُسقِطُه ولا يأخُذ مِنه شيئًا.

ومُوكِلَه وكاتِبَه وشاهدَيْه وقال هُم سَواءٌ[1]».

وروى مسلمٌ من حديث عُبادة بن الصّامتِ رضي اللَّه عنه قال قالَ رسولُ اللَّه ﷺ «**الذَّهَبُ بالذَّهَب والفِضَّةُ بالفِضَّةِ والبُرُّ بالبُرِ والشَّعيرُ بالشَّعير والتَّمْرُ بالتمر والمِلحُ بالملحِ مِثْلًا بمثل سواءً بسَواء يدًا بيد فإذا اختلفت هذه الأصنافُ فبِيعوا كيف شئتُم إذا كان يدًا بيد**»[2].

وروى البيهقي أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**كلُّ قَرضٍ جرَّ مَنفَعةً فهو ربا**»[3]. اتفق العلماء على العمل بهذا الحديث وإن كان إسنادُه ضعيفًا. القَرضُ شرَعَه اللَّه للمواساةِ بين العبادِ فلا يجوز شَرْطُ جَرِ المنفعة. القَرضُ شُرِعَ للإحسَانِ إلى الناسِ ليسَ لِطلَبِ الرّبْح. والرّبا من أكبر الكبائر وهو عَقدٌ يشتملُ على عِوَض مَخصُوص غَيرِ مَعلُوم التَّمَاثُل في المِعيار الشّرعيّ حالةَ العَقْد أو معَ تأخِير في العِوَضين أو أحدِهما. وهذا الربا لم يكن مَعروفًا مَشهُورًا بين العرَب عند الجاهلية قبلَ نُزولِ ءايةِ التّحريم، وإنّما الرِبا الذي كان مَشهُورًا عندَهم هو ربا القَرضِ وهو أنْ يكون للرّجُلِ على الرّجُلِ دَينٌ إلى أجَلٍ ثم إذا حَلَّ الأجَلُ يقولُ صَاحبُ الدَّين للمَدِين «إمّا أنْ تدفَع وإمّا أنْ أزيدَ علَيكَ»، قالَ بعضُ الحنفيّةِ هذا أوّلُ ما نزلَ تَحرِيمهُ منَ الرِبا ولم يُحرَّم الرّبا إلا بعد الهجرة.

وينقَسِمُ الربا، عدا ربا القرض، إلى ثلاثَةِ أنواعٍ:

أَحدُها: رِبا الفَضْلِ: وهوَ بَيعُ أحَدِ العِوَضَينِ وهُما مُتّفِقَا الجِنْسِ بالآخَرِ زَائدًا عليه كبَيع دِينارٍ بدِينارَينِ أو دِرْهَم بدِرهَمَينِ أو صَاعِ قَمْحٍ بصَاعَي قَمْح.

والثّاني: رِبا اليَدِ: وهوَ البَيعُ مع تَأخِير قَبْضِهما أو قَبْضِ أحَدِهما بأنْ يفترِقَ المُتَبايعَانِ قبلَ القَبْضِ أو يتَخايَرا فيهِ قبلَ القَبْضِ أي يُمْضِيَا إثْباتَ العَقدِ بشَرطِ

(١) صحيح مسلم، مسلم، (٣/ ١٢١٩).

(٢) المصدر نفسه، (٣/ ١٢١٠).

(٣) السنن الكبرى، البيهقي، (٥/ ٥٧١).

اتّحادِ العِوضَينِ أي اتّفاقِهما في عِلّةِ الرّبا بأنْ يكونَ كلٌّ منهُما مَطعُومًا أي مَقصُودًا للأَكْل غالبًا تقَوُّتًا كالقمح أو الشعير أو تأدُّمًا أو تفكُّهًا أو تَداوِيًا أو غَيرَ ذلك مائعًا كان أو جامدًا كالزيت واللبن والجبن ونحو ذلك كبيع البُر بالشّعِير أو المِلْح والتّمرِ بالزّبيبِ والتُّفاح بالتّينِ، أو أنْ يكونَ كلٌّ منهُما نقدًا وإن اختلفَ الجنسُ كالذهَبِ بالفِضَّةِ والعَكسُ ثم يفترِقا بلا تَقابضٍ للعِوَضَينِ أو أحَدِهما. فإن قال له بعتُكَ وسْقَ شعير بوَسْقِ قمح ثم ذهب هذا وهذا من غير تقابض أو أحدُهما قبضَ والآخرُ لم يَقبض صار ربا. أما لو قال له أقرضتُك هذا القمح على أن ترُدَّ لي مثلَه بتاريخ كذا لم يكن ربا لكنّ التأجيل في القَرض ممنُوع عند الشافعي، هذا ليسَ بَيْعًا وشِراءً. ولو باعَه الذهب بالذهب متساويًا في الوزن ثم تماشيا مسافة وقبل أن يفترقا تقابضا جاز ذلك ويُعتَبَران كأنهما في مجلس واحد.

والثّالثُ: رِبا النَّسَاء: بفَتْح النُّونِ أي التّأجِيلِ وهوَ البَيعُ للمَطعُومَينِ أو للنّقدَين المُتّفِقَي الجِنْسِ أو المُختلفَيْهِ لأَجَلٍ ولو كانَ الأجَلُ قَصِيرًا جِدًّا كلَحْظَةٍ أو دَقِيقة، أي أنْ يُشْرَطَ ذلك لفظًا بأنْ يقولَ أحَدُهما بِعتُكَ هذا الدِينارَ بهذا الدِينارِ أو هذا الدِينارَ بهذهِ الدّراهِم أو هذا القمحَ بهذا القَمْح أو هذا القَمْحَ بهذا الشّعير على أن تُسَلّمَنيه غَدًا أو في سَاعةِ كذا أو لسَاعَة كذا أو في الدّقيقة السّادِسَةِ منَ الآنَ أو نحوَ ذلكَ فهَذا هو معنى الأَجلِ. ولا يَحصُل الأجَلُ بدُونِ الذِّكْرِ.

فعُلِمَ مِنْ ذلكَ أنّه يَحرُم بَيعُ أحَدِ النّقدَينِ أي الذّهَبِ والفِضَّةِ ولو غيرَ مَضرُوبَينِ كحُلِيّ أو تِبْرٍ نَسِيئةً أي مُؤَجّلًا ولو بلَحْظَةٍ، أو بغَير تَقَابُضٍ، أو بجِنْسِه كذلك أي نسِيئةً أو بغَير تقَابُض في المَجلِس أي قبلَ التّفَرُّقِ، أو مُتَفاضِلًا أي بزيادةِ أحَدِهما على الآخَرِ مع اتّحادِ الجِنْسِ كدِرْهَمٍ فِضَّة بدِرْهَمي فِضّةٍ ويحرم بَيعُ أحدِ المَطعُومَينِ بالآخَرِ نسِيئَةً أو بلا تَقابُضٍ، أو بجِنْسِه كذلكَ أي بأجَلٍ أو بلا تقَابُضٍ أو معَ التّفاضُلِ.

والحَاصِلُ أنَّه متَى استَوى العِوَضانِ جِنْسًا وعِلَّةً كَبُرّ ببُرّ أو ذَهَب بذَهَبٍ لا يَحِلُّ إلا بثَلاثةِ شُروط التّساوِي بمِعيار الشَّرْع أي الوَزْنِ في النّقْدِ والكَيْلِ في البُرّ ونَحوِه

وعِلْمُهما بالتّسَاوِي يقينًا عند العَقْدِ والتَّقابضُ والحُلولُ أي تَركُ ذِكْرِ الأجَلِ. ومتى اختَلفا جِنْسًا واتّحَدا عِلّةً كبُرّ بشعِير أو ذهَب بفِضّة اشتُرِط شَرطان الحلُولُ أي تَرْكُ ذِكْرِ الأجَلِ والتَّقابُضُ، وجَازَ التّفاضُل أي بالوَزنِ فِيما هو مَوزُونٌ كالذهب والفضة وفي الكَيلِ فيما هو مَكِيْلٌ كالقَمح والشعير. ومتى اختلَفا جِنْسًا وعِلَّة كبُرٍّ بذَهَبٍ أو ثَوبٍ لم يُشتَرط شيءٌ مِنْ هذهِ الثّلاثَةِ.

وعلة الرّبا أمْران الطُّعم والنقدية فعِلَّةُ الرّبا بينَ البُرّ والبُرّ أو الشّعِير كونهما مَطعُومين أي أنّ أظْهَر مقَاصِدِهما الأكل، وأمّا النّقدِيّةُ فمعناها الكَونُ ذَهبًا أو فِضَّةً فالذّهَبُ بالذّهَب مُتّفِقانِ في علّةِ الرّبا وهيَ النّقديَّةُ وكذلك الفِضَّةُ بالفِضَّةِ مُتّفِقانِ في عِلَّة الربا وهي النّقدِيةُ وكذلك الذهَبُ بالفِضّةِ مُتّفقانِ في عِلَّةِ الرّبا مُختَلِفانِ في الجِنْسِ فظهرَ مِنْ ذلكَ أنّه لا رِبا في الفلُوسِ أي إذا بِيْعَ الفَلْسُ بالفَلْسِ فهو حَلالٌ بل يَجُوزُ بَيعُ فَلْسٍ بألفِ فَلْس، لكن يُشتَرطُ عندَ الحَنفيةِ لجَوازِ بَيْعِ الفَلْسِ بفَلْسَينِ فأكثرَ أنْ يكونَ العَقدُ بأعيانِهما، أما في المذهبِ الشّافعِيّ فيجوز إن تقابضَا في المَجْلِس أو لم يتقابَضا أو تَبايعَا مع التّفاضُلِ.

إقرارُ السَّدانة والسِّقاية

(**وَإِنَّ مَآثِرَ**) مُشْرِكِيْ العَرَبِ أي مكارِمَهم ومَفاخِرَهم التي تُؤثَر عنهم وتُروَى أثناء فترةِ (**الجَاهِلِيَّةِ**) كُلَّها (**مَوْضُوعَةٌ**) أي ساقِطةٌ، وفي رواية: «تَحْتَ قَدَمِيْ» واستَثنَى مِن ذلك ما يأتي.

فكُلُّ مأثرةٍ في الجاهليّة موضوعةٌ غَيْر السِّدَانَةِ أي سِدانة الكعبة بِتَوَلّي حِفْظِها وقَبْضِ مِفتاحِها، وكانت أَوَّلًا في بَنِي عَبدِ الدّار ثم صارَت بعد ذلك في بَنِي شَيبةَ.

قال الحافظ السُّيوطيّ في «لُباب النُّقول في أسبابِ النُّزول» عِند قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [سورة النساء] ما نصُّه: «أخرج ابن مَرْدَوَيهِ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: لَمَّا فَتَحَ رسول اللَّه ﷺ

مَكّة دعا عُثمانَ بن طلحة، فلَمَّا أتاه قال: «**أَرِنِي الْمِفْتَاحَ**»، فأتاه به، فلَمَّا بَسَط يده إليه قام العباس فقال: يا رسول اللَّه بِأَبِي أنتَ وأُمِّي اجْمَعْهُ لِي مَعَ السِّقاية، فكَفَّ عُثمانُ يَدَه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هَاتِ الْمِفْتَاحَ يَا عُثْمَانَ**»، فقال: هاكَ أمانةَ اللَّهِ، فقامَ ففَتَحَ الكَعبة ثُمّ خَرَج فطاف بالبيت، ثُمّ نَزَلَ عليه جِبريلُ بِرَدِّ الْمِفْتَاحِ، فدَعَا عُثمانَ بنَ طلحةَ فأعطاهُ الْمِفتاحَ ثُمّ قال:﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [سورة النساء] حتى فَرَغَ مِن الآية.

وأَخْرَج شُعبة في تَفسِيره عن حَجّاج عن ابنِ جُرَيجٍ قال: نَزَلت هذه الآية في عُثمانَ بنِ طَلحةَ، أخَذَ مِنه رَسولُ اللَّه مِفتاحَ الكعبة فَدَخَل به البيتَ يَومَ الفَتْح، فخَرَج وهو يَتلُو هذه الآيةَ، فَدَعَا عُثمانَ فنَاوَلَهُ الْمِفتاحَ، قال: وقال عُمَرُ بنُ الخَطّاب لَمَّا خَرَج رَسولُ اللَّه مِن الكَعبة وهو يَتلُو هذه الآيةَ:»فِدَاهُ أَبِي وَأُمِّي، ما سَمِعتُه يَتلُوها قبل ذلكِ». قلت: ظاهِرُ هذه أنّها نَزَلَت في جَوفِ الكَعبة» وهذا كلام الحافِظ السيوطيّ.

فمآثِرُ الجاهليّة موضوعةٌ غَيرَ السِّدَانةِ (**وَالسِّقَايَةِ**) فقد أقَرَّهُما ﷺ، والسِقَاية هي سَقيُ النّاسِ الشَّراب، ماءً كان أو غَيرَهُ، فقد حَكى أبو الوَلِيد الأزرقيّ أنّه لم تَزَلِ السِّقاية بِيَدِ عَبدِ مَنافٍ فكان يَسْتَقِي الماء مِن بئر كرادم و بِئر خُم على الإبل في الْمَزاوِد والقِرَب ثم يَسكُب ذلك الماء في حِياضٍ مِن أَدَمٍ بفِناء الكعبة فيَرِدُهُ الحاجُّ حَتَّى يتفرّقوا، وكان يُسْتَعذَبُ لِذَلِك الماء، ثُمّ وَلِيَها مِن بَعدِه ابنُه هاشِمُ بنُ عَبدِ مَنافٍ، ولم يَزَل يَسْقِي الحاجّ حتى تُوُفّي، فقام بأَمْرِ السِقايةِ مِن بَعدِه ابنُه عَبدُ المطَّلِب بنِ هاشم، فلَم يزل كذلك حتى حَفَر بِئرَ زَمزمٍ فعَفَت على ءَابَار مَكةَ كُلِّها فكان منها يَشرَبُ الحاجّ، وكانت لِعَبدِ المطّلِب إبِلٌ كثيرة، فإذا كان الموسِمُ جَمَعَها ثم يُسقِي مِن لَبَنِها بالعَسَل في حَوضٍ مِن أَدَمٍ عِند زَمزم ويَشتَرِي الزَّبِيبَ فيَنْبِذُه بماء زمزم، وكانت إذ ذاكَ غَلِيظةً جِدًّا، وكان للنّاس أَسْقِيةٌ كَثِيرةٌ يَسْتَقُون منها الماء ثم يَنْبِذُون فيها القَبَضاتِ مِن الزَّبِيب والتَّمر لِيَكسِر غِلَظَ الماء، وكان الماء العَذبُ بمَكّة عزيزًا لا يوجد إلا لإنسانٍ يُسْتَعذَبُ له مِن بِئر مَيمُون وخارج مِن مكة، فلَبِث عبدُ المطّلِب

يَسقِي النّاسَ حتى تُوُفِّي، فقام بأمر السِّقاية بَعدَه ابنُه العَبّاس بنُ عبد المطّلِب، فلَم تَزَل في يَدِه، وكان للعَبّاس كَرْمٌ بالطّائِف، فكان يَحْمِل زَبِيبَه وكان يُدابِنُ أهلَ الطائف، ويَقتَضِي منهم الزبيب فيَنبِذُ ذَلِكَ كُلَّه ويَسقِيه الحاجَّ في أيام الموسِم، حتى مَضَتِ الجاهلية وصَدْرٌ مِن الإسلام، ثُمَّ أقَرَّ النبيُّ ﷺ السِّقايةَ في يَدِ العَبّاس يومَ الفتح، ثُمّ لم تَزَل في يَدِ العَبّاس حتى تُوُفِّي فَوَلِيَها بَعدَه ابنُه عبدُ اللَّه بنُ عَبّاسٍ رَضِي اللَّه تعالى عَنهُما، فكان يَفعل ذَلِكَ كَفِعله ولا يُنازِعُه فِيها مُنازِع، حتَّى تُوُفِّي فكانت بِيَدِ ابنِه عَلِيّ بنِ عبد اللَّهِ يَفعَلُ كفِعل أبِيهِ وَجَدِّه، يَأتِيه الزَّبِيبُ مِن الطائِف فيَنبِذُه حتَّى تُوُفِّي ثم كانت بيد وَلَدِه بَعدَهُ.

التحذيرُ مِن مَكائِد الشَّيطان

قال رسول اللَّه ﷺ: **أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِأَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فِيمَا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ.**

(أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّيْطَانَ) يَحتمِلُ الجِنس أو إبليسَ نفسَه، وقيل هذا الثاني هو الأظهر، وإنّه **(قَدْ أَيِسَ)** وفي رواية: «يَئِسَ» أي صار مَحرومًا يائِسًا قاطِعًا للأملِ مِن أَنْ يُعْبَدَ أي أن يَعُود مِن المؤمنين أحَدٌ إلى طاعةِ الشيطانِ في عبادةِ الصَّنَمُ، وإنَّما نسبها إلى الشيطان لكَونِه دَاعِيًا إليها، واحتُجَّ لذلك بقول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ﴾ [سورة مريم] أي لا تُطِعهُ فِيما سَوَّل لَكَ مِن عِبادة الصَّنَم.

وفي رواية: «**أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ**» أي المؤمِنون المسلِمون، وإنما سُمِّي المؤمِن بالمصَلّي لأن الصلاة أفضلُ الأعمال بعد الإيمان والتي بِها يَظهرُ تمسُّك المؤمِن بالدِّين ظاهِرًا **(بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ)** وفي رواية: «**فِي بَلَدِكُم هَذَا أَبَدًا**»، وفي أخرى: «**فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ**»، والجَزِيرةُ اسم كلِّ أرضٍ حولَها الماء، وهي فَعِيلة بمعنى مَفعُولة أي أرضٌ جُزِرَ عنها الماءُ أي ذَهَب ونَقَص حتى بَقِيَت يابِسةً بلا ماءٍ، وَسُمِّيَت جزيرةُ العَرَب بهذا الاسم لأنها أرضٌ أكثرُ جوانِبِها البَحرُ، وأُضِيفَت إلى العرب لأنها

مَسْكَنُهم. وقال أبو عبيدة: «جزيرةُ العَرَب هي ما بَين حَفْر أبي موسى الأشعَرِيّ إلى أقصَى اليَمَن في الطُّول، وفي العَرْض ما بين رَمْل تَبْرِين إلى مُنْقطَع السَّماوة، والسماوةُ اسمُ باديةٍ في طريق الشام».

فإن قيل: لِمَ خَصَّ رسول اللَّه عليه السلام جزيرة العرب بأنَّ الشيطان قد أَيِسَ أن يَعْبُدَه المصلُّون، مع أنّ المسلمين الثابتِين على الإسلام المخلِصِينَ في الطاعات كثيرةٌ في سائر البلاد؟

قال ملّا عليّ القاري: «لأَنَّ الإسلامَ لم يَصِلْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّه عليهِ السَّلامُ إِلى بلدٍ ءاخَرَ غَير جَزِيرةِ العَرَب».

(وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِأَنْ يُطَاعَ) وفي رواية: «**وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ**» أي انقِيادٌ أو طاعَةٌ **(فِيمَا سِوَى ذَلِكَ)** مِن العِصيان الذي هو دُون الكفر كالقتل والسرقة ونحوهما من الكبائر قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ﴾ في الإنفاق ﴿ٱلۡفَقۡرَ﴾ويقول لكم إن عاقبة إنفاقكم أن تفقروا والوعد يستعمل في الخير والشر ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ ويغريكم على البخل ومنع الصدقات وإغراء الآمر للمأمور والفاحش عند العرب البخيل ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم ﴾ في الإنفاق ﴿مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ ﴾ لذنوبكم وكفارة لها ﴿وَفَضۡلٗا﴾ وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم أو ثوابا عليه في الآخرة﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ يوسع على من يشاء ﴿عَلِيمٌ ٢٦٨﴾[سورة البقرة] بأفعالكم ونياتكم، وسيُطاعُ **(فِيمَا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ)** أي ما تَروَنهُ هَيّنًا مِن السيّئات ولقوله تعالى حكاية عن الشيطان فقد وَرَدَ في الحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ يبتدرُهُ مَلَكٌ وشيطانٌ. الْمَلَكُ يقولُ لَهُ: «**اختِمْ يَقَظتَكَ بِخَيرٍ**»[1]، والشيطانُ يقولُ لَهُ: «اختِمْ يَقَظتَكَ بِشَرٍّ»، فإن خَتَمَهَا بِخيرٍ الْمَلكُ يَحرُسُهُ طُولَ الليلِ، يَحْرُسُهُ من أَذَى الجِنّ ونَحوِهِ، لو قالَ: «**ربِّ اغفِرْ لِي**» أو «**رَبِّ قِنِي عذابَكَ يومَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**» يَكُونُ خَتَمَ يقَظَتَهُ بِخَيْرٍ».

ثم ذكر اللَّه سبحانه وتعالى كلام الشيطان حيث إنه لا يريد إلا الشر للعباد

---

(١) الترغيب والترهيب، المنذري، (١/ ٢٣٥).

ومن هنا العجب كيف يتبعه بعض الجهال ويستمع له ولا يصده وهو يقول: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ بالدعاء إلى الضلالة والتزيين والوسوسة ولو كان إنفاذ الضلالة إليه لأضل الكل ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ ولألقين في قلوبهم الأماني الباطلة من طول الأعمار وبلوغ الآمال ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ البتك القطع والتبتيك للتكثير والتكرير أي لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام وكانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرًا وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ بفقء عين الحامي وإعفائه عن الركوب أو بالخصاء وهو مباح في البهائم محظور في بني آدم أو بالوشم[1] أو بنفي الأنساب واستلحاقها أو بتغيير الشيب بالسَّواد[2] أو بالتحريم والتحليل أو بالتَّخَنُّث[3] أو بتبديل

---

(١) من مَعاصي البَدن التي هي من الكبائر الوَشم وهو غَرز الجلد بالإبرة حتى يَخرُجَ الدّمُ ثم يُذَرُّ على المحلّ نحوُ نِيلَة لِيَزْرَقّ أو يَسْودَّ وذلك لحديث الصّحيحَين: «لَعَنَ رسولُ اللّه الواصِلَة والمُسْتَوصِلَةَ والواشِمَةَ والمُستَوشِمَة والنّامِصَة والمتنَمّصَةَ».

(٢) من معاصي البدَن الخَضب بالسّواد أي دَهْنَ الشَّعر وصَبْغَه بالأسود. وهو حَرامٌ للرّجل والمَرأة على القولِ المُختار في المذهب الشافعي إلا للجهاد وأجازَه بعضُ الأئمة إذا لم يكن يؤدّي إلى الغَشّ والتلبيس كأن كانَ عندَه عَبْدٌ مَمْلُوكٌ يريدُ أن يبيعَه وهوَ شَائبٌ فسَوّدَ له شعرَه حتى يُدفَع له فيه ثَمنٌ أكثر، أو شَابت المَرأةُ فسَوّدت شعرَها حتى يخطبَها الرجال، وقال بعضُ الشافعيّة يَجوزُ للمرأة أن تخضبَ بالسّوادِ بإذن زوجها. أمّا المرأةُ الخليّةُ أي العَزباءَ فأمْرُها شديد فلا يجوز لها أن تخضب بالسّواد لما فيه من الغشّ والتّلبيْس. وأمّا خَضبُ الشّعر بالأصْفر والأحمر فللرجال فيه ثواب وللمتزوجة إذا أمرَها زوجُها كذلك.

(٣) هذا يدخل تحت مَعاصي البدَن التي هي من الكبائر وهي تشَبُّه الرّجال بالنّساء في المَشْي أو في الكَلام أو في اللباس لكنّ تشبُّه النّساء بالرجال أشَدُّ إثمًا ولا يُنظَرُ إلى الغَلَبة فَما كانَ خاصًّا بأحَدِ الصّنفَين منَ الزيّ فهو حرامٌ على الصّنف الآخر وما لا فلا.
روى البخاريّ في صحيحه من حديث ابن عباس رضيَ اللّه عنهما قال: «**لعَنَ رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم المتشبّهين من الرجال بالنساء والمتشبّهات من النساء بالرجال**».
وروى أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: «**لعَنَ رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المرأة والمرأةَ تلبَسُ لِبْسةَ الرَّجُل**».
فتشبُّه الرجال بالنساء الذي هو حرام وتشبّه النساء بالرجال الّذي هو حرام هو فيما كان خاصًّا في الأصل بأحد الفَريقَين دون الآخر، أمّا ما كان يَستعملُه الفريقان ولو غلَب في أحَدهما لا يكون تشَبُّهًا إن لبسَه الآخر، هذه القاعدَةُ وليسَ للعُرْف دخَلٌ في هذا، وقال بعضُ الشافعيّة تُعتَبَرُ عادَةُ الناحية فالنّاحيَةُ التي يختَصّ النّساءُ فيها بزيّ دون الرّجال يَحرُم على أهلِ تلك الناحية من الرجال=

فطرة اللَّه[1] التي هي دين الإسلام لقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الروم]﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأجاب إلى ما دعاه إليه ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [سورة النساء] في الدارَين.

قَالَ الْإِمَامُ الْهَرَرِيُّ رضي اللَّه عنه: «الإنسانُ بين الحذرِ مِن شرِّ نفسِه، ومِن شرِّ الشّيطانِ، ومِن شرِّ شياطِينِ الإنسِ، نحنُ الواحِدُ مِنّا لهُ ثلاثةُ أعداء، نفسُهُ الخبِيثةُ الّتِي تُحرِّكُهُ لِلسُّوءِ، والشّيطانُ، وأُناسٌ مِن البشرِ مِن رِجالِ ونِساءِ شياطِينِ الإنسِ، فمَن سلِم مِن شرِّ هؤلاءِ الثّلاثِ فهذا هُو الرّجُلُ العاقِلُ فِي أمرِ الدِّينِ، العاقِلُ فِي أمرِ الآخِرةِ، أمّا من لا يحذرُ شرّ هؤلاءِ فهُو على الهلاكِ، قال السّيِّدُ أحمدُ الرِّفاعِيُّ رضِي اللَّهُ عنهُ: «حارِبُوا الشّيطان بِبعضِكُم، بنصِيحةِ بعضِكُم، بِخُلُقِ بعضِكُم، بِحالِ بعضِكُم، بقالِ بعضِكُم».

= لُبْسُه وكذلك العكس.

(١) قال القاضي زكريا الأنصاري في شرحه على روض ابن المقري ممزوجًا مع المتن ما نصه: «فرع: (وصل الشعر) من الآدمي (بشعر نجس أو شعر ءادمي حرام) مطلقًا للخبر السابق وللتغرير وللتعرض للتُّهمَة، ولأنه في الأول مستعمل للنجس العيني في بدنه كالادهان بنجس والامتشاط بعاج مع رطوبة، وأما في الثاني لأنه يحرم الانتفاع به وبسائر أجزاء الآدمي لكرامته، (وكذا شعر غيرهما)».
ثم قال: «(و) يحرم (تجعيده) أي الشعر (ووشر الأسنان) أي تحديدها وترقيقها للتغرير وللتعرض للتُّهمَة فيهما وللخبر السابق في الثاني، (والخضاب بالسواد) لخبر: «يكون قوم يخضبون في ءاخر الزمان بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة» رواه أبو داود وغيره، (وتحمير الوجه) بالحناء أو نحوه، (وتطريف الأصابع) به مع السواد للتعرض للتُّهمَة (إلا بإذن زوج أو سيد) لها في جميع ما ذكر.
ثم قال: «(ويحرم) على المرأة (التنميص) فعلاً أو سؤالًا لخبر الصحيحين السابق إلا بإذن زوج أو سيد (وهو الأخذ من شعر الوجه والحاجب) للحسن».
ثمّ قال: «وخرج بالمرأة الرجل والخنثى فيحرم عليهما الخضاب إلا لعذر كما سيأتي في باب العقيقة مع زيادة، (ولا بأس بتصفيف شعرها) كشعر الناصية والأصداغ» انتهى كلام الأنصاري.

ثُبوت حُرمة الشُّهور الحرامِ

قوله ﷺ: **أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ. وَإِنَّ الزَمانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.**

النَّسِيءُ مِن أعمالِ الجاهِليّة

(**أَيُّهَا النَّاسُ**) أي أُنادِيكُم فاستَمِعوا مَقالَتِي، ولا يريد بذلك مجرَّد السَّماع فإنّ الاستماع واستفادة المسموعِ بالإصغاء إليه، فذَكَّرهم ﷺ بقولِ اللَّه تبارك وتعالَى: (﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾) [سورة البقرة] بالهمزة مصدر نسأه إذا أخَّرَه، وهو تأخير حرمة الشهر إلى شهر ءاخَر. وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهرًا آخر حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من بين شهور العام أربعة أشهر، و«النسيء» مصدر من قول القائل: «نسأت في أيامك، ونسأ اللَّه في أجلك»، أي: زاد اللَّه في أيام عمرك ومدة حياتك، حتى تبقى فيها حيًّا. وكل زيادة حدثت في شيء فالشيء الحادث فيه تلك الزيادة بسبب ما حدث فيه: « نسيء «. ولذلك قيل للبن إذا كُثِّر بالماء: «نسيء»، وقيل للمرأة الحبلى: « نَسُوء»، و«نُسِئت المرأة» لزيادة الولد فيها، وقيل: «نسأتُ الناقة وأنسأتها»، إذا زجرتها ليزداد سيرها ومنه النسيئة في البيع، يقال: أنسأ اللَّه في أجله أي أخر. ويحتمل أنّ «النسيء» فعيل صرف إليه من مفعول كما قيل: لعينٌ وقتيل بمعنى ملعون ومقتول، فيكون معناه: إنما الشهر المؤخَّر زيادة في الكفر.

وكأنّ القول الأوّل أشبه بمعنى الكلام، وهو أن يكون معناه: إنما التأخير الذي يؤخِّره أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرام منهن حلالًا والحلال منهن حرامًا، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكامَ اللَّه وآياته، وقد كان بعض القرَّاء يقرأ: (إِنَّمَا النَّسِيُّ) بإدغامِ الهمز بالياء وترك مدِّه. وفي تفسير البغوي: «قيل هو من النِسيان على معنى الْمَنْسِيّ أي المتروك، ومعنى النسيء هو تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام، وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم، فنسئوا أي: أخروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع، هكذا شهرًا بعد شهر، حتى استدار التحريم على السنة كلها . فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه اللَّه عز وجل فيه»، وذلك بعد دهر طويل (**زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ**) أي هذا الفعل منهم زِيادةٌ في كفرهم.

تَقسِيمُ أنواعِ الكُفر

ومن هنا اعلم أنّ الرّدة هي قطعُ الإسلام وتحصُل تارةً بالقولِ وتارة بالفعلِ وتارةً بالاعتقادِ كما نص على ذلك الشافعيةُ والحنفيةُ وغيرُهم من مالكية وحنابلة، وقد استدلوا على هذا التقسيم بالقرءان الكريم كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾[سورة التوبة] فإن هذه الآية يفهم منها أن الكفر منه قولي. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [سورة الحجرات] أي لم يشكوا يفهم منه أن الكفر منه اعتقاديٌّ لأن الارتياب أي الشكَّ يكون بالقلب.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة فصلت] يُفهَم منه أن الكفر منه فعلي وهذا التقسيم مجمع عليه اتفق عليه علماء المذاهب الأربعة.

تلاعُب أهل الجاهليّة بالأشهُر

(**يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا**) أي بالنَّسِيء، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ بضم الياء وفتح الضاد، كقوله تعالى: ﴿ۗ ﴾، وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد وهي قراءة الحسن ومجاهد على معنى «يُضِلُّ به الذين كفروا الناسَ، وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الضاد، لأنهم هم الضالُّون.

ثُم الضمير في (**يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا**) للنسيء أي إذا أحلوا شهرًا من الأشهر الحرم عامًا رجعوا فحرموه في العام القابل (**لِيُوَاطِؤُا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ**) والمواطأة الموافقة أي ليوافقوا العدة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين. واللام تتعلق بيُحِلُّونه ويحرمونه أو بيحرمونه فحسب وهو الظاهر

(**فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ**) أي فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم اللَّه من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها وهذا كان تزيين من الشيطان لهم فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة.

تعريفُ الزَّمانِ ومعنَى استدارَتِه

(**وَإِنَّ**) للتأكيد (**الزَّمَانَ**) وهو عبارة عن متجدد يقدَّر فيه متجدد ءاخَرَ عند أهل السنة وهو عند الفلاسفة عبارة عن مقدار حركة الفلك والله مُنَزَّه عن ذلك جميعًا، واعلم أنّ المراد بالزمان هُنا السَّنَة، وقوله: (**قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**) أي دار على الترتيب الذي اختاره اللَّه تعالى ووضعه يوم خُلِقَتِ السماوات والأرض وهو أن يكون كل عام اثنَيْ عشَر شهرًا وكل شهر ما بين تسعة وعشرين إلى ثلاثين يومًا، وكانت العرب في جاهليتهم قد غَيَّروا ذلك فجعلوا عامًا اثني عشر شهرًا وعامًا ثلاثة عشر فإنهم كانوا ينسئون الحج أي يُؤخِّرون في كل عامين من شهر إلى شهر آخر بعده ويجعلون الشهر الذي أنسؤوه ملغى فتصير تلك السنة ثلاثة عشر وتتبدل أشهرها فيحلون الأشهر الحرم ويحرمون غيره، فأبطل اللَّه تعالى ذلك وقرره على مداره الأصلي، فالسنة التي حج فيها رسول اللَّه ﷺ حجة الوداع هي السنة التي وصل ذو الحجة إلى موضعه، فقال النبي ﷺ: إن الزمان الخ يعني أمر اللَّه تعالى أن يكون ذو الحجة في هذا الوقت فاحفظوه واجعلوا الحج في هذا الوقت ولا تبدلوا شهرًا بشهر كعادة أهل الجاهلية أو يقال استدار استدارة مثل حالته ولفظ الزمان يطلق على قليل الوقت وكثيره والمراد باستدارته وقوع تاسع ذي الحجة في الوقت الذي حلت فيه الشمس برج الحمل حيث يستوي الليل والنهار، وقال العلماء معناه أنهم في الجاهلية يتمسكون بملة إبراهيم ﷺ في تحريم الأشهر الحرم وكان يشق عليهم تأخير القتال ثلاثة أشهر متواليات فكانوا إذا احتاجوا إلى قتال أخروا تحريم المحرم إلى الشهر الذي بعده وهو صَفَر ثم يؤخرونه في السنة الأخرى

إلى شهر آخر وهكذا يفعلون في سنة بعد سنة حتى اختلط عليهم الأمر وصادفت حجة النبي ﷺ تحريمهم وقد تطابق الشرع وكانوا في تلك السنة قد حرموا ذا الحجة لموافقة الحساب فأخبر النبي ﷺ أن الاستدارة صادفت ما حكم اللَّه تعالى به يوم خلق السماوات والأرض.

وأما تأويل قوله: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**» لأنهم كانوا لا يزالون في الجهلية يَتمسَّكون بشيء مِن مِلّة إبراهيم عليه السلامُ لأنه كان معروفًا في ملة إبراهيم أيضًا تحريم الأشهر الحرم، وكانوا ينسبون الشهر الحرام إلى الذي يليه إذا احتاجوا إلى القتال فيه، وينتقلون هكذا من شهر إلى ءاخَر حتى اختلط الأمر عليهم، فصادفت حجة النبيّ ﷺ تحريمهم، فلو طابق الشرع وكانت فى تلك السنة حرموا ذا الحجة بالاتفاق على الحساب، فأخبر ﷺ أنّ الاستدارة صادفت حكم اللَّه سبحانه يوم خلق اللَّه السماوات والأرض .

وقيل: كانت العرب تحج عامين فى ذى القعدة وعامين فى ذى الحجة، فصادفت حجة أبى بكر ذا القعدة من السنة الثانية وصادَفَتْ حَجَّةُ النبيّ ﷺ ذا الحجة، فلهذا أشار النبيّ ﷺ بالاستدارة .

عِدَّةُ الشُّهور اثْنَا عشَر شَهْرًا

و(**إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ اللَّه اثنا عَشَرَ شَهْرًا**) مِن غير زيادة، والمراد بيان أن أحكام الشرع تنبني على الشهور القمرية المحسوبة بالأَهِلّة دون الشمسية، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة التوبة] أَيْ: عَدَدَ الشُّهُورِ، عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتابِ اللَّهِ، وَهِيَ الْمُحَرَّمُ وَصَفَرُ وَرَبِيعٌ الأول وربيع الثاني وجمادى الأول، وجمادى الآخرة ورجب وشعبان،

ورمضان وَشَوَّالٌ وذُو القعدةِ وذُو الحِجّةِ. وقولُهُ فِي كِتابِ اللّهِ، أي: في حكم كتاب اللَّهِ. وقِيل: فِي اللّوحِ المحفُوظِ، والمُرادُ مِنهُ الشُّهُورُ الهِلالِيّةُ وهِي الشُّهُورُ الّتِي يعتدُّ بِها المُسلِمُون فِي صِيامِهِم وحجّهِم وأعيادِهِم وسائِرِ أُمُورِهِم، وبِالشُّهُورِ الشّمسِيّةِ تكُونُ السّنةُ ثلاثمِائةٍ وخمسةً وسِتّين يومًا ورُبع يومٍ، والهِلالِيّةُ تنقُصُ عن ثلاث مائة وسِتّين يومًا بِنُقصانِ الأهِلّةِ. والغالِبُ أنها تكون ثلاثمائة يوم وأربعةً وخمسِين يومًا.

(يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) أي أنّ اللَّه سبحانه وتعالى لَمَّا ابتدأ خلق السماوات والأرض جعل السنة اثنى عشر شهرًا، وقد روى البخاري والبيهقي في كتابه الأسماء والصفات والحاكم وغيرهم عن عمران بن الحصين: جاء أناس من أهل اليمن إلى رسول اللَّه ﷺ، وقالوا: يا رسول اللَّه جئناك لنتفقه في الدين فأنبئنا عن أول الأمر ما كان، فأجاب: «**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيءٌ غَيْرُهُ**[1]»، وفي رواية: «**قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيءٍ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**[2]».

وقد خَلَق اللَّه تعالى اللوحَ المحفوظ وكتب فيه كل ما سيحصل إلى يوم القيامة وبعد ذلك بخمسين ألف سنة خلق الأرض والسموات، وسقف الجنة عرش الرحمن وقد كان للحجر الأسود ومقام إبراهيم نور يضيء ما بين المشرق والمغرب ولكن اللَّه طمس نورهما، أما بَدْءَ خَلق الأرضِ كانَ يوم الأحدِ ثمّ تمّ تكوينُها يومَ الاثنين ثمَّ كانَ بدءُ خلقِ السّماوات السّبع وتمّ تكوينُها يومَ الأربعاء، الثلاثاء والأربعاء كُوّنت السّماوات السّبع، فهؤلاء السماوات والأرض كُوّنتا في أربَعةِ أيّام، ثمَّ كَوَّن اللَّهُ تعالى مَرافق هذه الأرض التي نحنُ نعيش عليها مِن جبالها وأنهارها وغيرِ ذلك مِمّا أودَعَهُ فيها، وكان ذلك في اليَومين التّاليَين وهما الخميسُ والجُمعة فكانَ تكوين آدم يومَ الجمعة آخرَ سَاعة.

---

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٤/ ١٠٥).

(٢) حلية الأولياء، أبو نعيم، (٢/ ٢١٦).

(**مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**) ثلاثةٌ سَرْدٌ هي ذو القعدة للقعود عن القتال، وذو الحِجّة للحَجّ، والمحَرَّم لتحريم القتال فيه، وواحد فرد وهو رجب لترجيب العرب إياه أي لتعظيمه ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ [سورة التوبة] أي الدين المستقيم لا ما يفعله أهل الجاهلية يعني أن تحريم الأربعة الأشهر هو الدين المستقيم ودين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب تمسكت به فكانوا يعظمونها ويحرمون القتال فيها حتى أحدثت النسيء فغيروا.

(**ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ**) أي تتوالى واحدة تلو الأخرى (**وَوَاحِدٌ فَرْدٌ**) أي مُنفَرِد (**ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ**) ومعلوم أنّ الأشهر الحرم هي ثلاثة متوالية وواحد منفرد وهو رجب ويقال له: رجب الفرد لأنه من الأشهر الحرم جاء منفردًا وحده في أثناء السنة، وأما الثلاثة الباقية فهي مسرودة: ذو القعدة بفتح القاف وقد تكسر وقد يحذف «ذو» منه ومما بعده، وذو الحجة بالكسر وقد تفتح والمحرم بصيغة المفعول أي شهر الحج وشهر قبله وشهر بعده.

فَلَمَّا بَلَّغَهُم الرسول ﷺ قال: (**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ**) بطريقة الاستفهام التقريري ويفهم من هذا أنه لا عذر لهم بعد ذلك إن خالفوا الرسول وفعلوا ما نهاهم عنه إذ لم يقع منه عليه الصلاة والسلام تقصير اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ أي على عبادك فإنهم أقروا بأني قد بلغتهم رسالتك.

حقُّ الزَّوج والزَّوجةِ وصيانةُ المرأة المُسلِمة والحِرص على كَرامتها

قوله ﷺ: **أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا. حَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ ولا يُدْخِلْنَ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ بُيُوتَكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُم، وَأَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَة، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، فَإِذَا انْتَهَيْنَ وَأَطَعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ**

وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ. أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهم فَاشْهَدْ.

مِن حَقِّ الزَّوجةِ على الزَّوجِ

(أَيُّهَا النَّاسُ) هو نداء للناس ليستمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام **(إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا)** فالتزموا حقوق اللَّه في نسائكم ولا تعتدوها، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[1] رواهُ التِّرمِذِيُّ، ومعناهُ الّذِي يُحسِنُ مُعاملة زوجتِهِ، يُعامِلُها بِالتّواضُعِ والعطفِ والرّحمةِ والإِحسانِ والعفوِ إِذا هِي أساءت هُو مِن أفضلِ الرِّجالِ، لِأنّ الّذِي يكُونُ مع امرأتِهِ هكذا يكُونُ مع الغيرِ هكذا، كثِيرٌ مِن الرِّجالِ على خِلافِ هذا الحدِيثِ يُعامِلُون نِساءهُم، لا يتواضعُ معها، يترفّعُ عليها، هذا لا ينبغِي، ينبغِي أن يتواضع معها ويُحسِن إِليها ويصفح ويعفُو عن سيِّئاتِها، لا أن يُقابِلُ الإِساءة بِالإِساءة.

مِن حَقِّ الزَّوجِ على الزَّوجَةِ

(وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا) وأمَرَهُنّ بالتزام حقوق الزوج وأن لا يعتدوها قال اللَّه تعالى في كتابه الكريم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [سورة الروم] أي جعل بينكم التواد والتراحم بسبب الزواج، ثم ذكر عليه أفضل الصلاة والسلام بعض الحقوق التي ينبغي للزوجة أن تحافظ عليها.

(حَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ) الواو هنا تفسيرية فأكد عليه الصلاة والسلام وأوضح قوله السابق بقوله: **(ولا يُدْخِلْنَ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ بُيُوتَكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ)** والمقصود بذلك أن لا يُجلِسنَ على فرشكم أحدًا تكرهونه، وأن لا يدخلن بيوتكم

---

(١) سنن الترمذي، الترمذي، (٥/ ٧٠٩).

أحدًا تكرهونه وعبَّر عن ذلك بالفراش، لأن الداخل يطأ المنزل. فليس للمرأة أن تمكِّن أحدًا من النساء أو الرجال المحارم لها من دخول بيت زوجها، إلا إذا علمت عدم كراهية زوجها لذلك وليس المقصود بوطء الفراش الكناية عن الزنى، لأن الزنى حرام مع كل أحد يكرهه الرجال أو لا، ولأن عقوبة المرأة الزانية المحصَنة الرجم حتى الموت، وليس عقوبتها ضربًا غير مبرح.

ويقول الحافظ النووي رحمه اللَّه تعالى: «والمختار أنّ معناه أنه لا يحل للزوجة أن تأذن لأحد بدخول دار الرجل، ولا لامرأة ذات محرم منها، إلا أن تظن أن الزوج لا يكره ذلك منها، فإن شكت في أنه يكرهه لم تأذن، لأن الأصل المنع حتى تظن».

نُشوزُ الزَّوجةِ إثمٌ كَبِيرٌ

(وَأَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ) واللفظُ عامٌّ فيدخل بالفاحشة النشوز وفعل الفاحشة وهو الزنا فأما المرأة الناشزة هي التي تمنع زوجها من حقه في الاستمتاع بها بلا عذر شرعي، والعذر الشرعي كأن كانت في حيض أو نفاس فلا يجوز له جماعها حال نزول الدم أو حال انقطاع الدم وقبل الغسل الصحيح، وتمكينه من الاستمتاع إن طلب بما دون الجماع فهنا في هذه الحالة يجب، أما إن كانت مريضة بمرض بحيث إن جامعها يزيد مرضها أي تنضر، فيجوز لها منعه عندئذٍ.

ومن النُّشوز لو عكرت عليه في الاستمتاع، وكذلك أن تخرج الزوجة من بيت زوجها بلا إذنه إلا لعذر شرعي كهجوم فسقة عليها . ومن النُّشوز أن تصرخ الزوجة في وجه الزوج بحيث تُقلِقُه، ففي الحديث عن معاذ بن جبل رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال: «**لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللَّهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا**»[1]. ثُمّ أنّ النشوز معصية كبيرة ومن شؤمه أنه يسقط النفقة للزوجة عن الزوج، ويسقط قسمها

(١) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (٣٦/ ٤١٧).

في المبيت إن كان له أكثر من زوجة.

وأما الزنا فهو إدخال الحشفة أو مقدارها من مقطوعها في فرج امرأة لا تحل له، والزنا حرام على الرجال والنساء وعليهما نفس الحد الشرعي فحد المحصن وهو من سبق له أن وطئ بعقد صحيح ذكرًا أو أنثى الرجم بالحجارة المعتدلة إلى أن يموت، فإن لم يكن محصنا فحده الجلد مائة جلدة وتغريب سنة للحر لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [سورة النور].

(**فَإِنْ فَعَلْنَ**) أي النشوز (**فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ**) هذه الوصية النبوية جمعت الأساليب التربوية الناجحة لمعالجة نشوز المرأة وتمردها على أوامر زوجها، بصفته القيِّم على أمرها والمسؤول عن إصلاح شأنها، وذلك بغية دوام العشرة الطيبة، والعيش بأجواء السكينة والمودة، ومنع تفاقم المنازعات؛ وذلك من خلال دعوة الزوج عند نشوز زوجته لاتباع الخطوة التربوية الأولى في تقديم الموعظة الحسنة لها وتذكيرها بواجباتها الإيمانية، ودعوتها لطاعة الزوج بالمعروف في غير معصية حرصًا على كيانها، فلعلها تبدي عذرًا لنشوزها كألمٍ شديدٍ تشعر به، فإن هي بقيت على نشوزها وعصيانها لجأ الزوج بعدها إلى هجرها في المضجع داخل البيت، لعلها تشعر بخطئها وتراجع نفسها، فإن تعنَّتت في موقفها، فلعل التأديب بالضرب الخفيف والتهديد به يعيد إليها صوابها وتشعر بضعف محبته لها وقرب فراقه منها، وهذه المسألة لها ضوابط:

أولًا: يبدأ بالموعظة إن ظهرت أمارات النشوز ولم يتحقق نشوزها.

ثانيًا: إن تحقق النشوز هجرها في المضجع.

ثالثًا: إذا تكرر منها النشوز وكان الضرب يفيد بظنه انزجارًا عن النشوز جاز له أن يضربها ضربًا غير مبرح ولا يجب عليه ضربها إلَّا إن تعيَّن طريقٌ لإزالة المنكر ولا يؤدي إلى مفسدة أكثر، أما إن كان الضرب لا يفيد بظنه فلا يضرب.

وذكر أبو زُرْعة العِراقي في كتابه «الأجوبة المرضيّة» ما نصّه: «مسألة في رجل أمرَ زوجتَه بالصلاةِ فامتنعَت وأصرَّت على ذلك تَكاسُلًا فهَل يلحقُه إثمُها بالإصرارِ وهل يلزمهُ طلاقُها والحَالةُ هذهِ، وكذلك الأولادُ والخدمُ إذا فعلوا ذلك ولم يَسْمَعُوا منه هل يلحقُه شيءٌ منهم في الآخرةِ؟ فأجبْتُ: إذَا أَمرَ بالصلاةِ وزَجَر عن ترْكِهَا وتوعَّدَ على ذلك أو فعلَ ما أمكنَ لم يكن عليه بَعد ذلك إِثمٌ إذَا لم يفعَلُوا، قال اللَّه تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [سورة طه] فلم يأمرِ اللَّه تعالى بسِوَى الأَمر، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾[سورة النحل] وينبغي عندَ الإِصْرار على ذلك هُجْرَانُهُم إلا لضرورةٍ شديدةٍ. وطلاقُ المُصِرَّةِ على تركِ الصلاة أَرْجَحُ مِنَ المُقَامِ مَعها فإِنَّها كافرةٌ عندَ من يُكَفِّرُ بترك الصلاة وفاسِقَةٌ مرْتَكِبَةٌ إثمًا عظيمًا عندَ من لا يُكفّر بذلك لكن يوجبُ القَتْلَ به وكذا عند من لا يوجبُ إِلا التَّعْزِيرَ، ولكنَّه لو لم يُطَلّق لم يكن مَأْثُومًا بعد القيام بما عليه من الأمر والزَّجْر والله أعلم» انتهى كلام العراقي.

فَيُعْلَم من هذا عدمُ وجوب ضرب الزوجة على ترك الصلاة كما يجب ضرب الصبي الذي بلغَ عشرَ سنين، وهذا الضرب يُشْتَرَط أن يكون غيْرَ مُبَرّح أي غير مؤدّ إلى الهلاك لأنَّ الضَّربَ المؤدّي للهلاك حرامٌ على الولي بالنسبة للولد المميز الذي بلغ عشر سنين قمرية، وكذا الزَّوج بالنسبة للزوجة الناشزة.

وفي كتاب اللَّه العزيز قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾[سورة النساء] معناه مطيعات قائمات بما عليهن للأزواج ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾لمواجب الغيب وهو خلاف الشهادة أي إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة من الفروج والبيوت والأموال وقيل للغيب لأسرارهم ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ بما حفظهن اللَّه حين أوصى بهن الأزواج بقوله وعاشروهن بالمعروف أو بما حفظهن اللَّه وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب أو بحفظ اللَّه إياهن حيث صبرهن كذلك والثاني ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عِصيانَهُنّ وتَرَفُّعَهُنّ عن طاعة الأزواج والنشز المكان المرتفع، وعن ابن عباس رضى اللَّه عنهما هو أن تستخف بحقوق

زوجها ولا تطيع أمره ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ خوفوهن عقوبة اللَّه تعالى، والعظة كلام يلين القلوب القاسية ويرغب الطبائع النافرة ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد أي لا تداخلوهن تحت اللحف وهو كناية عن الجماع أو هو أن يوليها ظهره في المضجع لأنه لم يقل عن المضاجع ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ ضربًا غير مبرح أمر بوعظهن أولًا ثم بهجرانهن في المضاجع ثم بالضرب إن لم ينجح فيهن الوعظ والهجران ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ بترك النشوز ﴿فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ فلا تتعرضوا لهن بالأذى، وسبيلًا مفعول تبغوا وهو من بغيت الأمر أي طلبته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النساء] أي إن علت أيديكم عليهن فاعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن فاجتنبوا ظلمهن.

حَقُّ الزَّوجةِ في النَّفقةِ والكِسوَة

(فَإِذَا انْتَهَيْنَ وَأَطَعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ) أي نفقتهن (وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ) أي إنِ انْتَهَينَ عن نُشوزهن فعليكم بنفقتهن وكِسوَتِهن، ولننظُر إلى قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [سورة البقرة] فقد قال المفسرون أي يجب لهن من الحق على الرجال من المهر والنفقة وحسن العشرة وترك المضارة مثل الذي يجب لهم عليهن من الأمر والنهي ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[سورة البقرة] بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس، فلا يكلف أحد الزوجين صاحبه ما ليس له. والمراد بالمماثلة مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك ولكن يقابله بما يليق بالرجال ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [سورة البقرة] زيادة في الحق وفضيلة بالقيام بأمرها وإن اشتركا في اللذة والاستمتاع أو بالإنفاق وملك النكاح ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ [سورة البقرة] لا يعترض عليه في أموره ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾[سورة البقرة] لا يأمر إلا بما هو صواب وحسن.

وذكر علماء الفقه الشافعية تفصيل النفقة والكسوة فقالوا يجبُ على الزّوج نَفقةُ

زَوجتهِ المُمكِّنةِ نفسها لهُ ولو كانت أمةً مملُوكةً أو كافرةً أو مرِيضةً وهي في المذهب مُدّا طعامٍ لكُلّ يوم على مُوسرٍ حُرّ ومُدٌّ على مُعْسِر ومدٌّ ونِصفٌ على مُتوسّط وعليه طحْنُه وعجنُه وخبزُه وأُدْمُ غالِب البلدِ ويختلفُ بالفصُولِ ويُقدّرُ الإدام القاضِي باجتِهادِه ويتفاوتُ بين مُوسِر وغيرِه، ويجبُ لها كِسْوةٌ تكفِيْها وءالةُ تنظِيف أي ما تنظّف به المرأةُ نفسها فيلزمه أن يجلب لها الصابون مثلًا أو ما يقوم مقامه ويلزم الزوج لزوجته بيتٌ ولو حجرةً واحدة مع مطبخٍ وخلاء. ومن الطعام يلزمُه ما يأكلُه أمثاله، والأكل يأتي به مطبوخًا أو يطبخه لها. ويلزمه فراش ومِخدّة، وجورب في البلاد التي تحتاج إليه فيها، والبِساط الذي يقي من ضرر البرد والحرّ، واللّحاف إذا كان يصلح للحرّ والبرد، أما الإنارة فيكفي السّراج أو ما يحصل به الكفاية، ويلزمه أيضًا أن يجلب لها أدوات تنظيف لغسل ثيابها ويلزمه لها ثوبٌ للشتاء وءاخر للصيف ولو لم يَبْلَ الأوّل والنَّعْل أو الخفّ.

الإحسانُ إلى الزَّوجة وتقوَى اللّٰهِ فيها

(**أَخَذْتُمُوهُنَّ**) أي جعلكم قوامين عليهن فهن كالوديعة عندكم يجب حفظهنَّ، وفيه الحث على مراعاة حق النساء والوصية بِأَمَانَةِ اللَّهِ والمراد بإباحة اللَّه (**وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ**) أي الاستمتاع بهن (**بِكَلِمَةِ اللَّهِ**) تعالى التي أنزلها في كتابه بقوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة النساء] أي بكلمة اللَّه المشتملة على الإيجاب والقبول، يعني استحللتم بالصيغة التي ينعقد بها النِّكَاح من إيجاب وقبول، وقيل كلمة اللَّه عبارة عن حكمه تعالى بحلية النِّكَاح وجوازه وبيان شروطه فإن حكم اللَّه كلامه المتوجه للمحكوم عليه على جهة الاقتضاء أو التخيير والأول هو الصحيح، قال الأُبِّي: «والمعنى أن استحلالكم فروجهن وكونهن تحت أيديكم إنما كان بعهد اللَّه وحكمه فإن نقضتم عهد اللَّه وأبطلتم حكمه انتقم منكم».

(**فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ**) أي اتقوا اللَّه في أمر النساء فلا تؤذوهنَّ بالباطل

والنساء اسم جمع لا واحد له من لفظه وامرأة واحدة وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا ذكر القاضي البيضاوي أن الاستيصاء قبول الوصية والمعنى أوصيكم بهن خيرًا فاقبلوا وصيتي فيهن فإنهن خلقن من ضلع والضلع استعير للمعوج أي خلقن خلقا فيه اعوجاج فكأنهن خلقن من أصل معوج فلا يتهيأ الانتفاع بهن إلا بمداراتهن والصبر على اعوجاجهن، وقيل أراد به أن أول النساء أي حواء، وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**»[1]، متفق عليه، والسين والتاء في لفظ «**اسْتَوْصُوا**» للقبول والمطاوعة مثلها في «**أَقَمْتَهُ**» فاستقام أي اقبلوا وصيتي واعملوا بها وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة النساء] أي عهدًا وثيقًا وهو قول اللَّه تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [سورة البقرة] والله تعالى أخذ هذا الميثاق على عباده لأجلهن فهو كأخذهن أو قول النبي عليه السلام «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا**».

(**أَلَا**) للتنبيه (**هَلْ بَلَّغْتُ**) بتشديد اللام، أي أعلمتكم ما أنزل إليّ من ربي وما أمرني به (**اللهم فَاشْهَدْ**) أي لي وعليهم، وإنما قال ذلك لأنه كان فرضًا عليه أن يبلغ فأشهد اللَّه على أنه أدى ما أوجبه عليه.

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٤/ ١٣٣).

حَقُّ المؤمِن على المؤمِن وذَمُّ العَصَبيّة

قوله ﷺ: **أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ مَالُ أَخِيهِ إِلَّا مِنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.**

الأُخُوّةُ في الإيمانِ والإسلامِ

(**أَيُّهَا النَّاسُ**) أصله الأناس حذفت الهمزة وعوض منها حرف التعريف (**إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ**) جمع المؤمن وهو الذي يعتقد في قلبه أن اللَّه موجود بلا مكان ليس ساكنًا في الفراغ ولا هو ساكن العرش هذا المؤمن هذا المسلم هذه عقيدة القرءان ليس كمثله شيء هذه الآية معناها أن اللَّه تعالى ليس جسمًا وليس متحيزًا في جهة من الجهات، ولا هو مالئ كل الجهات ولا هو متحرك ولا هو ساكن لأن الخلق متحرك وساكن، فكيف يكون الخالق متحركًا أو ساكنًا هذا معنى هذه الآية القرءانية ليس كمثله شيء لذلك قال علماء أهل السنة مهما تصورت ببالك فالله بخلاف ذلك.

هذه عقيدة الإسلام التي جاء بها القرءان وكان عليها الرسول عليه السلام والصحابة ثم الذين جاءوا بعد الصحابة كذلك على هذا، وهذا ما مضى عليه علماء الإسلام إلى يومنا هذا علماء أهل السنة فإِنَّ أَعْظَمَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى البَشَرِ هُوَ الإِسْلامُ، فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا وَفَقَّهُ لِلإِسْلامِ، وَمَنْ أَرَادَ بِهِ سُوْءًا لَمْ يُوَفِقْهُ لِلإِسْلامِ.

وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه اللَّه على هذه العقيدة وهو كان في القرن السادس الهجري وتوفي في أواخر القرن السادس الهجري كان في زمانه أمر بتدريس كتابٍ في هذه العقيدة عقيدة أهل الحق أن اللَّه موجود بلا مكان ولا هو جسم كثيف ولا هو جسم لطيف كان السلطان صلاح الدين رحمه اللَّه حاكمًا لبلاد الشام كلها سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ومصر والحجاز والعراق، كل هذه

البلاد كان حاكمًا عليها تحت الخليفة، الخليفة كان ببغداد، رحمَ اللَّهُ صلاحَ الدين الأيوبي جمع بين السلطنة والعلم وكان فقيهًا محدثًا يحفظ القرءان وكتابًا في الفقه الشافعي كبيرًا عن ظهر قلب وكتاب الحماسة وكان عالمًا تقيًا نقيًا جوادًا كريمًا شجاعًا غازيًا كاسر الكفار رحمه اللَّه رحمة واسعة.

(إِخْوَةٌ) أي إنما المؤمنون إخوة بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وإفشاء السلام عليهم وعيادة مرضاهم ومنه مراعاة حق الأَصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر،

وفي الحديث: «**الْمُؤْمِنُ كَالجَمَلِ الأَنِفِ**»[1] الَأنِفُ معناه الذي في أنفه قرح ويوضع فيه حبل إذا قاده طفل ينقاد وهكذا المؤمن ينقاد لإخوانه إلا إذا قيده لمعصية فينبغي أن لا ينقاد له.

تلازُم الإيمانِ والإسلامِ

اعلم رحمَك اللَّهُ أن الإيمان لغة التصديق، وشرعًا تصديق مخصوص، وهو التصديق بما جاء به النبي ﷺ ، والإسلام لغة الانقياد، وشرعًا انقيادٌ مخصوص، وهو الانقياد لما جاء به النبي ﷺ بالنطق بالشهادتين.

والإسلام والإيمان متلازمان لا يُقبل أحدهما بدون الآخر، وإن كانا مختلفين من حيث معناهما الأصليان، فقد قال أبو حنيفة رضي اللَّه عنه في الفقه الأكبر: «لا يكون إيمان بلا إسلام ولا إسلام بلا إيمان فهما كالظهر مع البطن» اهـ. فكما أن الظهر لا ينفصل عن البطن مع أنهما مختلفان فكذلك الإيمان لا ينفصلُ عن الإسلام والإسلام لا ينفصل عن الإيمان، فمَن ءامن بما جاء به الرسول ﷺ وصدّق ذلك بالنطق بالشهادتين بلسانه فهو مسلم مؤمن، إن مات على ذلك لا بُدَّ أن يدخلَ الجنّة.

---

(١) مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، (٢٨/ ٣٦٧).

وأمّا قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾[سورة الحجرات]. فالمراد بأسلمنا فيه الإسلام اللغوي الذي هو الانقياد لا الشرعيُّ، حيث إنّ هؤلاء الأعراب كانوا يظهرون للنّاس أنهم يحبّون الرسول ﷺ وأنهم منقادون له خوفًا من القتل وفي قلوبهم كره النبيّ.

تواضُع الإِخوةِ وتَحابُّهم

والإيمان يأمر بالحرص على مصلحة المسلمين والتواضع لهم وخفض الجناح، قال تعالى ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[سورة الحجر]، وقد قال ﷺ: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالأَرْضِ الذَّلُولِ**». فإذا كان المؤمنون إخوةً، أُمروا فيما بينهم بما يُوجب تآلُفَ القلوب واجتماعَها، ونُهوا عمَّا يوجبُ تنافرَ القلوب واختلافَها، وهذا من ذلك. فإنَّ الأخ مِنْ شأنه أنْ يوصِلَ إلى أخيه النَّفع، ويكفَّ عنه الضَّرر، قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد اللَّه إخوانًا**»[1] وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن التحاب في اللَّه فيه فضل عظيم، من ذلك حديث رواه الإمام مالك في الموطأ عن النبي ﷺ عن اللَّه تبارك وتعالى أنه قال: «الْمُتَحابُّونَ بِجَلالِي أُظِلُّهُم فِي ظِلِّي[2] يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي»[3] هؤلاء المتحابُّون الذين يظلهم اللَّه في ظل العرش في الوقت الذي يكون الناس يقاسون من حر الشمس التي تدنو من رؤوس الناس حتى يكون بينهم وبينها ميل هؤلاء المتحابون اللَّه يجعلهم تحت ظل العرش حتى لا يصيبهم شيء من حر الشمس ذلك اليوم هؤلاء من صفاتهم أنهم يتناصحون ويتباذلون أي يهدي بعضهم بعضًا السواك إذا أهداه المسلم لأخيه فهو عند اللَّه عظيم وما زاد قيمة فهو أعظم عند اللَّه ثم هؤلاء الذين يظلهم اللَّه في

---

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٨/ ١٩).

(٢) أي في ظِلّ العَرْش.

(٣) موطأ مالك، مالك، (٥/ ١٣٨٨).

ظل العرش يوم القيامة من صفتهم أنهم يتحابون لله ليس للدنيا وليس لنسب هذه صفتهم، جَعَلَنا اللَّه منهم.

فعلى المؤمنين أن يكونوا متحابين، متصافين غير متباغضين ولا متعادين، يسعون جميعًا لمصالحهم الكلية التي بها قوام دينهم ودنياهم، لا يتكبر شريف على وضيع، ولا يحتقر أحد منهم أحدًا. فدماؤهم تتكافأ؛ فإنه لا يشترط في القصاص إلا المكافأة في الدين.

وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ جمع خليل ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الزخرف] فأخبرَنا اللَّه تعالى في هذه الآية بأن الناس الذين كانوا في الدنيا أخلاء ينقلبون في الآخرة أعداء بعضهم لبعض إلا المتقين أي أن المتقين تبقى مودتهم بينهم في الآخرة.

وفي ميدان الشعر العربي يقول النَّابِغَةِ الْجَعْدِيّ:

وبعضُ الأَخِلَّاءِ عِنْدَ البَلاءِ والرُّزْءِ أَرْوَغُ مِنْ ثَعْلَبِ
وكيفَ تُواصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ خَلالَتُهُ كأَبِي مَرْحَبِ[1]

أَراد كخَلالَةِ أَبي مَرْحَبٍ، يَعْنِي به الظِّلَّ.

فعلى هذا ما هي التقوى؟ ومن هم المتقون؟ وما قيل فيها؟

فالمتقون هم الذين يقومون بحقوق اللَّه وحقوق العباد. وأعظم حقوق اللَّه الإيمان به ورسوله فمن عرف اللَّه تعالى وما يليق به أي اعتقد أن اللَّه موجود من غير أن يشبهه شيء وأيقن أنه لا يستحق أحد أن يعبد غيره فقد عرف اللَّه وأما من لم يعرف ربه أنّى يكون مؤمنًا به، أما من تصوره نورًا بمعنى الضوء أو تصوره قاعدًا على العرش فإنه لم يعرف اللَّه فلا يصح له إيمان بالله، وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة البقرة] خير ما يكتسبه الإنسان في هذه الحياة الدنيا

(١) لسان العرب، ابن منظور، (١/ ٤١٦).

تقوى اللَّه. التقوى أداء ما فرض اللَّه من الاعتقاد والعمل واجتناب ما حرم اللَّه من المعاصي هذا زاد التقوى. فإن المتقين ليس عليهم نكد ولا مشقة في القبر ولا في الآخرة.

ومِن جملة التقوى تعلم علم الدين الضروري بل بالعلم يعرف الشخص الواجبات والمحرمات فإذا لم يتعلم كيف له أن يعرف ما هي الواجبات وما هي المحرمات لأنه من غير العلم لا يعرف الواجبات على التمام، لذلك من ترك تعلم علم الدين الضروري، كثير من الناس ضلوا، هذا يأخذ طريقة من الشيخ من غير أن يتعلم علم الدين الضروري وهذا يأخذ الطريقة الفلانية وهذا يأخذ الطريقة الفلانية وهذا يذهب إلى الحج، فيظنون بأنفسهم بأنهم أولياء اللَّه تعالى، هؤلاء هالكون. ولو كان الشيخ الذي ينتسب إليه وأخذ منه الطريقة قطب عصره هذا يظل محرومًا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾[سورة الحجرات] اتقوا اللَّه فالتقوى تحملكم على التواصل والائتلاف وفي هذه الآية دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن اللَّه تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين.

ومن هنا نصيحة مهمة ينبغي التقيد بها ألا وهي التواضع تواضع أخي المسلم مع أخيك ولا يترفع أحدكما على الآخر قال الحبيب المصطفى:»إنكُم لَتَغْفُلُونَ عن أفضلِ العبادة التواضعُ[1]»[2] وإنْ كانَ أقلَّ منك علمًا، ولا يأنفُ أنْ ينقادَ لأخيهِ الذي هو دونَهُ في العلمِ والعملِ ما دامَ هو يَدعُوهُ إلى خيرٍ. وليَكُنْ أَحدُكُم كَمَا فَعَلَ سيدُنَا عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عنهُ، كانَ في جيشِ خالدِ بنِ الوليدِ في حربِ الردةِ، كانَ خالدٌ هُو قائدهُم مع ما بينَهُمَا بينَ خالدٍ وسيدِنَا عليٍّ في رِفعَةِ القدرِ. الذي لا يتواضعُ لا

(١) أي من أحسن العبادة، و إلا فأحسن العبادة على الإطلاق إيمان بالله ورسوله ثم الصلوات الخمس وهذا الخطاب كان خطابا لعامتهم لا لخاصتهم كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة الأجلاء.

(٢) ذكره بهذا اللفظ ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري موقوفا عن عائشة، (١٠/ ٢١٣).

يَتَرَقَّى، لأنَّ تركَ التواضعِ حاجزٌ بينَ الشخصِ وبينَ الترقِي.وكذا أوصيكُم بتقوَى اللَّهِ، وإيثارِ الآخرةِ على الدنيَا، والرِّضَا بالقليلِ من الرزقِ، وتركِ الغضبِ، وتَحسينِ الظنِ بالإخوانِ، والتواصلِ، والتحابِ، وتقليلَ التنعمِ».

تحريمُ أخذِ مالِ المُسلِم حَياءً

(**وَلَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ مَالُ أَخِيهِ إِلَّا مِنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ**) مِنْ جُملَةِ معاصي البطن أكلَ ما يُؤخَذُ مِنَ الغَيرِ بغَير طِيبِ نَفْسٍ منه كأن يكونَ أعطاه استِحياءً منه أو ممَّن يَحضُر ذلك المجلسَ حتى لا يقالَ عنه بخيل، وذلك لأنه يَدخُل تحتَ حديثِ: «**لا يحِلُ مالُ امرئ مُسلِم إلا بطِيب نفسٍ منه**»[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [سورة البقرة] لا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يبحه اللَّه ولم يشرعه.

فالذي يأخذُ شيئًا من مسلم بطريق الحياء حرامٌ عليه أن يأكلَه ولا يدخل في مِلْكِه ويجبُ عليه أن يرُدَّه، ومن ذلكَ ما يأخذهُ الشّاعرُ بسَبب شِعْرِه مما يُعطاه خَوفَ أنه يَهجو الشخصَ إذا لم يُعطِه وهو حَرامٌ على الآخِذ وأمّا الدّافعُ فليسَ علَيه ذَنبٌ.

تنبيه: لا يدخل في ذلك ما يشتريه الشخص من ءاخرَ حياءً فإنه يحِلُّ له ولا معصية عليه في ذلك. وكذلك لو طلب خدمة من شخص فخدمه خجلًا منه فلا معصية على الطالب.

(**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ**) أي تبليغ الرسالة (**اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ**) أي على عبادك فإنهم أقَرُّوا بأني قد بلغتهم رسالتك.

---

(١) شعب الإيمان، البيهقي، (٧/ ٣٤٦).

تحريمُ اقتِتالِ المسلمين بغيرِ حَقٍّ

قوله ﷺ: **فَلَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.**

(فَلَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) الفاء في قوله: «فَلَا» للإفصاح والفعل بضم العين مسند إلى واو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين مع نون التوكيد الثقيلة ولا ناهية جازمة أصله فلا ترجعونن حذفت نون الرفع للجازم والواو لالتقاء الساكنين والمعنى إذا عرفتم ما ذكرته لكم وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم فأقول لكم لا ترجعوا أي لا تصيروا **(بَعْدِي)** أي بعد فراقي من هذا المجلس أو بعد وفاتي **(كُفَّارًا)** أي مثل الكفار في إراقة دمائكم وسلب أموالكم وطعن أعراضكم وبعبارة أخرى لا تكن أفعالكم شبيهة أعمال الكفار في ضرب رقاب المسلمين يعني إذا فارقت الدنيا، فاثبتوا بعدي على ما أنتم عليه من الإيمان والتقوى، ولا تظلموا أحدًا، ولا تحاربوا المسلمين، ولا تأخذوا أموالهم بالباطل؛ فإن هذه الأفعال من الضلالة والعدول من الحق إلى الباطل. قال ابن مالك ذاكرًا قولًا ءاخَر: «رَجَع» هنا استعمل كصار معنًى وعملًا، أي لا تصيروا بَعدِي كُفارًا ومنه قول الشاعر:

قَدْ يَرْجِعُ الْمَرْءُ بَعْدَ الْمَقْتِ ذَا مِقَةٍ ... بِالحِلْمِ فَادْرَأْ بِهِ بَغْضَاءَ ذِي إِحَنِ

ويجوز في «يَضْرِب» الرفع والجزم، وهو على الرفع جملة مستأنفة مبينة لقوله: «فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا» فينبغي أن يحمل على العموم، وأن يقال: لا يظلم بعضكم بعضًا فلا تسفكوا دماءكم ولا تهتكوا أعراضكم ولا تستبيحوا أموالكم، ونحوه.

وقال الحافظ النووي في شرحه على صحيح مسلم[1]: «قوله ﷺ: **«لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُم رِقَابَ بَعْضٍ»** قيل في معناه سبعة أقوال:

أحدها: أن ذلك كفر في حقّ المستحل بغير حق.

والثاني: المراد كفر النعمة وحقّ الإسلام.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، النووي، (٢\٥٥).

والثالث: أنه يقرب من الكفر ويؤدي إليه.

والرابع: أنه فِعلٌ كفِعل الكفار، والخامس المراد حقيقة الكفر ومعناه لا تكفروا بل دُوموا مسلمين فالدنيا مليئة بالفتن ففي الحديث: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالقائم خير من الماشي ، فَكَسِّرُوا قِسِيَّكُمْ، وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَاضْرِبُوا سُيُوفَكُمْ بِالْحِجَارَةِ، فَإِنْ دُخِلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ، فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ**[1]».

والسادس: حكاه الخطابي وغيره أن المراد بالكفار المتكفرون بالسلاح يقال تكفر الرجل بسلاحه إذا لبسه قال الأزهري فى كتابه تهذيب اللغة يقال للابس السلاح كافر.

والسابع: قاله الخطابي معناه لا يكفر بعضكم بعضًا فتستحلوا قتال بعضكم بعضًا.

وأظهر الأقوال الرابع، وهو اختيار القاضي عياض»، وقال[2]: «وأما قوله ﷺ: «**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا**» **فقال القاضي: قال الطبري معناه بعد فراقي من موقفي هذا وكان هذا يوم النحر بمنى فى حَجّة الوداع أو يكون بعدي أي خلافي أي لا تخلفوني في أنفسكم بغير الذي أَمَرْتُكم به أو يكون تحقق ﷺ أن هذا لا يكون فى حياته فنهاهم عنه بعد مماته**».

(١) سنن أبي داود، أبو داود، (٤/ ١٠٠).

(٢) شرح النووي على مسلم، النووي، (٢\ ٥٥ و ٥٦).

الوَصِيّةُ بالتَّمَسُّك بالكِتاب والسُّنَّة وءَال البَيت

قوله ﷺ: **فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كتاب اللَّه وسُنَّةَ نبيّه وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، أَلَا هل بلغت اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.**

(**فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ**) أي أبقيت (**فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا**) وفي روايةٍ: «**لَمْ تَضِلُّوا**» أي عن الصواب والحق (**كِتَابَ اللَّهِ**) يعني القرآن العظيم الذي قال تعالى فيه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾أي التبديل أو التناقض ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [سورة فصلت] أي بوجه من الوجوه، ثم اَلرَّسُولُ ﷺ قَالَ لأَبِي ذَرٍّ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ لَئَنْ تَغْدُوَ فَتَتَعَلَّمَ ءايَةً مِنْ كتابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائةَ ركعةٍ**[1]» أي من النوافل، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة فصلت] فهو ربنا سبحانه وتعالى مستحق للحمد فعلى هذا ينبغي العناية بكتاب اللَّه سبحانه وتعالى وأن يتلى وأن يرتل ترتيلًا وأن يتدبر معانيه وأن يحفظ ويدرس للأطفال والكبار ففيه نجاتكم في الآخرة فهو أعظم كتاب في الدنيا فبعد هذا لا يترك حتى يعلوه الغبار وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَهُ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ألم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**» رَوَاهُ أَبُو عِيسَى مُحَمَّدُ ابْنُ عِيسَى التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»[2].

(**وسُنَّةَ نبيّه**) أي طريقِه، (**وَعِتْرَتِي**) عِترة الرجل: نَسْلُه ورَهْطه الأَدْنَون، فمعناه: «أهل بيتي»، وقيل: قبيلته، وقيل: بنو عمه من العتر، وقوله ﷺ : «**لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي**» أي بعد موتي.

قال الطيبي في قوله: « إِنِّي تارِكٌ فِيكمُ» إشارة إلى أنهما بمنزلة التوأمين الخلفين

---

(١) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (١/ ٧٩).

(٢) سنن الترمذي، الترمذي، كتاب فضائل القرءان، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن، (٥/ ١٧٥).

عن رسول اللَّه ﷺ وإنه يوصي الأمة بحسن المخالَقة معهما وإيثار حقهما على أنفسهم كما يوصي الأب المشفق الناس في حق أولاده، ويعضده الحديث السابق في الفصل الأول: « أذكركم اللَّه في أهل بيتي « كما يقول الأب المشفق: اللَّه اللَّه في حق أولادي»، وأقول: الأظهر هو أن أهل البيت غالبًا يكونون أعرف بصاحب البيت وأحواله، فالمراد بهم أهل العلم منهم المطلعون على سيرته، الواقفون على طريقته، العارفون بحكمه وحكمته، ولهذا يصلح أن يكونوا مقابلًا لكتاب اللَّه سبحانه كما قال:﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [سورة البقرة] ويؤيده ما أخرجه أحمد في المناقب، عن حميد بن عبد اللَّه بن زيد أن النبي ﷺ ذكر عنده قضاء قضى به علي بن أبي طالب، فأعجبه وقال: «**الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت**» وقيل «**أَهْلُ بَيْتِي**» تفصيل بعد إجمال بدلًا أو بيانًا وهم أصحاب الكساء الذين أذهب اللَّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا وقيل من حرمت عليه الزكاة ورجحه القرطبي يعني إن ائتمرتم بأوامر كتابه وانتهيتم بنواهيه واهتديتم بهدي عترتي واقتديتم بسيرتهم اهتديتم فلم تضلوا.

قال القرطبي: «وهذه الوصية وهذا التأكيد العظيم يقتضي وجوب احترام أهله وإبرارهم وتوقيرهم ومحبتهم وجوب الفروض المؤكدة التي لا عذر لأحد في التخلف عنها هذا مع ما علم من خصوصيتهم بالنبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم وبأنهم جزء منه فإنهم أصوله التي نشأ عنها وفروعه التي نشؤوا عنه كما قال: «فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي» ومع ذلك فقابل بنو أمية عظيم هذه الحقوق بالمخالفة والعقوق فسفكوا من أهل البيت دماءهم وسبوا نساءهم وأسروا صغارهم وخربوا ديارهم وجحدوا أشرفهم وفضلهم واستباحوا سبهم ولعنهم فخالفوا المصطفى ﷺ في وصيته وقابلوه بنقيض قصده وأمنيته فواخجلتهم إذا وقفوا بين يديه ويا فضيحتهم يوم يعرضون عليه انتهى كلام القرطبي.

القُرءانُ أفضلُ الكُتُبِ السَّماويّة

فالقرءان المنزل على سيدنا محمد هو أفضل الكتب السماوية له مزية خاصة من بين الكتب السماوية من ذلك أن ألفاظه معجزة فالعرب الفصحاء الذين كانوا يتبارون بالفصاحة والبلاغة عجزوا عن قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة هود] فلما عجزوا عن مقاومة القرءان بالمثل في الفصاحة والبلاغة لجؤوا إلى قتاله. فقاتلوه عدة مرات ثم نصره اللَّه عليهم، ثم إن اللَّه تبارك وتعالى يسر حفظه الكتب السماوية السابقة أما أمم من سبق ما كانوا يحفظونها كما هذه الأمة تحفظ القرءان المنزل لهم، هذه التوراة شخص واحد يسمى عزيرًا، اللَّه تعالى حفظه إياها من بين كل أمة موسى، وأمة موسى هم أكثر الأمم بعد أمة سيدنا محمد يوم القيامة يأتي بعض الأنبياء وليس معه إلا شخص واحد ممن ءامن به. موسى أكثرهم تبعا ومع ذلك ما كان يحفظ التوراة فيهم أحد إلا شخص واحد يقال له عزير هذا اللَّه تبارك وتعالى حفظه التوراة. أما هذه الأمة المحمدية فالأطفال والكبار يحفظون هذا الكتاب فيما مضى قبل أربعمائة سنة يوجد رجل حفظ القرءان وعمره خمس سنين وفي أيامنا منذ ثلاثين سنة يوجد غلام في مصر حفظ القرءان وعمره ست سنين.

الهَدْيُ والبِدعةُ

فالاهتداءُ بالقُرءان اهتِداءٌ بنهج النَّبِيّ ﷺ، ومعنَى «**أَحْسَنُ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ**» أي سِيرة محمد أحسن السِيَر وذلك لأن اللَّه جمع لسيدنا محمد الخصال الحميدة وأعطاه من المعجزات مثل ما أعطى من قبله وأحسن منها. وقد جاء فالحديث المرفوع: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**» ومعناه – بعد أن ثبت أنّ أحسن الهدي هدي محمد – أنّ ما خالفه فاحذروه بمعنى أن كل أمر يحدثه

الناس مما يخالف هديه أي شريعته بدعة سيئة بدعة محرمة، والبِدْعَةُ لُغَةً مَا أُحْدِثَ علَى غَيرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وشَرعًا المُحْدَثُ الذي لَم يَنُصَّ علَيهِ القُرءَانُ ولا الحدِيثُ.

وتنقسِمُ إلى قِسمين كما يُفهمُ ذلك مِن حديثِ عائِشة رضِي اللَّه عنها قالت: قال رسولُ اللَّه ﷺ «**من أحدث في أمرِنا هذا ما ليس منهُ فهُو ردٌّ**»[1] أي مردُودٌ، وكما يفهم من قول الإمام الشّافِعيّ رضي اللَّه عنهُ «المُحدثاتُ مِن الأمُورِ ضربانِ: أحدُهُما ما أُحدِث ممّا يُخالِفُ كِتابًا أو سُنّةً أو إجماعًا أو أثرًا فهذِه البِدعةُ الضّلالةُ، والثّانِيةُ ما أُحدِث مِن الخيرِ ولا يُخالِفُ كِتابًا أو سُنّةً أو إجماعًا وهذه مُحدثةٌ غيرُ مذمُومةٍ»، رواهُ البيهقيُّ بالإسنادِ الصّحيح في كتابِه «مناقِبُ الشّافِعيّ» فعلى هذا الشّيءُ المُحدثُ الذي لم ينُصّ عليهِ القرءانُ ولا حديث رسول اللَّه هذا يُقالُ له بدعةٌ.

ثم هذا الأمر ينقسم إلى قسمين قسم يخالف ما نصَّ عليه اللَّه ورسولُه وقسم لا يخالفه بل يوافقه في نظر أهلِ العلمِ، القِسْمُ الأَوَّلُ البِدْعَةُ الحَسَنَةُ وتُسَمَّى السُّنَّةَ الحسَنَةَ، وهي المُحدَثُ الذي يُوافِقُ القُرءانَ والسُّنَّةَ،و القِسْمُ الثَّاني البدْعَةُ السَّيّئَةُ وتُسَمَّى السُّنَّةَ السَّيّئةَ، وهي المُحْدَثُ الذي يُخَالِفُ القُرءانَ والحَدِيثَ.

فالقسم الأول: وهو ما أحدث وكان مخالفًا للقرءان والحديث يسمى بدعة ضلالة.

وهو إما اعتقادي وإما عمليّ:

فالاعتقادي: كعقيدةِ المشبهةِ القدماءِ والمُحْدَثِينَ كالكرّاميةِ من المشبهةِ القدماءِ والوهابيةِ من المُحْدَثينَ والمعتزلةِ القدريةِ والخوارجِ المتقدمينَ منهم والمتأخرينَ كأتباعِ سيد قطب المُسَمَّيْنَ الجماعة الإسلامية فإن من الخوارجِ القدماءِ كان أناس يقال لهم البيهسية يقولون إذا حكم الملك بغير الشرعِ كفر وكفرَت الرعية مَن تابعه في الحكم ومَن لم يتابعه، وفرقة سيد قطب أحيَوْا في هذا العصر هذه العقيدة المبتَدَعة فاعتقدوا أن من حَكَمَ بغيرِ الشرعِ ولو في حكمٍ واحدٍ كفرَ والرعية التي تعيش تحت

(١) صحيح مسلم، مسلم، (٣/ ١٣٤٣).

حكمهِ كفرت ولا يستثنون أحدًا إلا من قام ليثور عليه وعلى ذلك يستحلون قتل غيرهم كما تشهد عليهم أعمالهم في مصر والجزائر والشيشان وغير ذلك.

وكلٌّ من هؤلاء يتعلقون بآيات فهموها على غير وجهها وظنوا أن ما هم عليه حق موافقٌ للقرءانِ ولم يدروا أن القرءانَ ذو وجوه كما قال عمر رضي اللَّه عنه تأتي الكلمةُ الواحدةُ لمعنَيَين ولأكثر من حيث لغةُ العربِ فبعض هذه المعاني يصحُّ تفسيرُ القرءانِ به والبعضُ الآخرُ لا يصحُّ تفسيرُ القرءانِ به، فهؤلاء الفرق أخذوا بالمعاني التي لا يصحُّ أن تكون مرادة أي مَرْضيَّة لله ورسوله.

وأما العملية: فهي مثل بدعةِ المتشبهين بالصوفية صورةً بلا حقيقة فإنهم حرَّفوا اسمَ اللَّه في مجالس الذكرِ يقولون ءاه ويعتبرون ءاه اسمًا لله حتى إن بعضَهم غَلاَ فقال ءاه أقرب للفتوحِ من اللَّه. فإن هذا العملَ مبتدعٌ لم يكن عند الصوفية القدماءِ، قال بعض هذه الفرقة الشاذلية هذا التحريف لم يكن عند شيخ الطريقة أبي الحسن الشاذلي رضي اللَّه عنه وإنما أحدثه شاذلية فاس. ومن البدعةِ العمليةِ المحدثَةِ على خلافِ القرءانِ والحديثِ معاقبة مَن طبَعَ كتابًا ألفه غيره بدون إذنهِ بالتغريمِ أو الحبسِ يكتبونَ في النسخةِ التي يطبعها المؤلفُ أو من أذن له المؤلف «حقوقُ الطبعِ محفوظة للمؤلفِ أو الناشرِ» وهذه البدعةُ مخالفةٌ لكتابِ اللَّه وسنةِ رسولهِ لم يفعلها أحدٌ من السلفِ ولا من الخلفِ إنما أُحدثت منذ نحو مائتي سنة تخمينًا اتباعًا للأوروبيين، ولو كان جائزًا لكان السلف أحوج للعمل به لأنهم كانوا يتعبون عند تأليفهم تعبًا كبيرًا. كان المؤلف يستعمل القلم الذي يبريه بيده كلما انكسرَ قلمٌ يبري غيرَه حتى إنه كان يتكوم عندهم من بُراية الأقلامِ شيءٌ كثيرٌ وكانوا يعملون الحبر بأيديهِم ومع ذلك لم يفعل أحدٌ منهم هذا الحَجْرَ. كانوا لا يعترضون على من استنسخ نسخًا من مؤلفاتهم للتجارة أو لغير ذلك، وقد احتج بعضُ هؤلاء المبتدعين من أهل عصرنا هذا بأنه أتعب أفكارَه في تأليفهِ.

ومِن البِدَعِ المحرَّمَةِ تحريفُ اسمٍ من أسماءِ اللَّه كالذين يحرّفونَ اسمَ اللَّه إلى

ءاه فإن ءاه ليسَ من أسماءِ اللَّه بالاتّفَاقِ بل هو لفظٌ من ألفاظِ الأنين والأنينُ ليسَ من أسماءِ اللَّه، وما يرويهِ بعضُهم حديثًا وفيهِ أن الرسولَ قالَ عن مريضٍ يئنُّ «دعوهُ يئنُّ فإنَّ الأنينَ اسمٌ من أسماءِ اللَّه» فهو مكذوبٌ على الرسولِ ولا يصحُّ نسبتُهُ إليهِ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [سورة الأعراف] ومِنَ القِسْمِ الأول كذلك المُحْدَثاتُ في الاعْتِقادِ كبِدْعَةِ المُعتزِلَةِ والخوارجِ وغَيْرِهم مِنَ الذينَ خَرجُوا عَمَّا كانَ علَيه الصَّحابةُ رِضْوانُ اللَّه علَيْهم في المُعتَقَد، وكِتَابةُ ﷺ أو (صلعم) بعدَ اسم النَّبي بدَلَ (ﷺ) وقَد نَصَّ المُحدّثونَ في كتُبِ مُصْطَلَح الحَديثِ علَى أنَّ كِتَابةَ الصَّادِ مُجَرَّدةً مَكروهٌ، ومعَ هذَا لمْ يُحَرّمُوها.

أما القسم الثاني: فهو ما أحدثه أهلُ العلمِ مما لا يخالفُ القرءانَ والحديثَ كإحداثِ المَحاريبِ المجوفةِ والمآذنِ وشَكْلِ القرءان ونَقْطِهِ فإنه أحدثه بعضُ العلماءِ ممن كان في القرنِ الأولِ كعمر بن عبد العزيز وابن يعمر وطرق أهل اللَّه القادرية والرفاعية وغيرهما وعمل المولد فهذه سنة حسنة تدخل تحت حديث رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَن عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِم شَيءٌ**[1]» ومن عدّ هذه بدعة ضلالة فهو جاهل لا يعتد بكلامه وقد يحتج بعض هؤلاء بحديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ[2]» ولم يدرِ أن معنى الحديث إحداث ما ليس من الدين أي ما لا يوافقه لأن ذلك مردود. هؤلاء يقال لهم المساجد مسجد الرسول وغيره ما كان له مِحراب مجوف في حياةِ رسولِ اللَّه ولا كان له مئذنة وقد أُحدِثَ في ءاخرِ القرنِ الأولِ أَحدَثَ ذلك الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز وأقره المسلمون على ذلك وأنتم لا تعترضون على ذلك بل توافقون فكيف تنكرون الطريقةَ والمولدَ وأمثال ذلك بدعوى أن هذا لم يُذكر في القرءانِ أو الحديثِ تُقِرون ما أعجبَكُم وتنفون ما لم يعجبكم بلا دليلٍ.

---

(١) صحيح مسلم، مسلم، (٢/ ٧٠٤).

(٢) المصدر نفسه، (٣/ ١٣٤٣).

ومِن الدَّليلِ القرءانيّ على أن البدعةَ منها ما هو حسنٌ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحديد] .

ففي هذه الآيةِ مدحُ المؤمنينَ من أمّةِ عيسى لأنّهم كانوا أهل رحمةٍ ورأفةٍ ولأنهم ابتدعوا الرَّهبانيّةَ وهي الانقطاعُ عن الشَّهواتِ المباحَةِ زيادةً على تجنبِ المحرماتِ حتَّى إنّهم انقطعوا عن الزّواجِ وتركوا اللّذائِذَ من المطعوماتِ والثّياب الفاخرةِ وأقبلوا على الآخرةِ إقبالا تامًّا. فقوله تعالى ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحديد] فيه مدحٌ لهم على ما ابتدعوا أي ممَّا لم ينصّ لهم عليهِ في الإنجيلِ ولا قالَ لهم المسيحُ بنصّ منهُ افعلوا كذا إنَّما هم أرادوا المبالغةَ في طاعةِ اللَّه تعالى والتَّجردَ لطاعتِهِ بتركِ الانشغالِ بما يتعلَّقُ بالزّواجِ ونفقةِ الزوجةِ والأهلِ. ثم هؤلاءِ الذين مدحهم اللَّه كانوا من أتباعِ عيسى على الإسلامِ مع التمسكِ بشريعةِ عيسى كانوا يبنونَ الصّوامِعَ أي بيوتًا خفيفةً من طينٍ أو من غير ذلكَ على المواضع المنعزلةِ عن البلدِ ليتجرَّدوا للعبادةِ، ثم جاءَ بعدَهم أناسٌ قلدوا أولئكَ مع الشّركِ أي مع عبادةِ عيسى وأمّهِ وتشبَّهوا بأولئكَ بالانقطاع عن الشهواتِ والعكوفِ في الصَّوَامِعِ لقولِهِ تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[سورة الحديد] لأن هؤلاء ما التزموا بالرهبانيةِ الموافقة لشرعِ عيسى كما التزمَ أولئكَ السابقونَ، فيؤخَذُ من هذه الآيةِ أن مَن عَمِلَ عملًا لا يخالفُ الشرعَ بل يوافقهُ ليس بدعةً مذمومةً بل يُثَابُ فاعلُه ويسمَّى سنةً حسنةً وسنةَ خيرٍ ويسمَّى بدعةً حسنةً أو بدعةً مستحبَّةً.

وفي قولِهِ عليه الصلاة والسلام: «من أحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ منهُ[1] «إشعارٌ بأنَّ من أحدَثَ ما هوَ منهُ أي ما هو موافقٌ لهُ فليس مردودًا، كما أحدَثَ عمرُ رضي اللَّه عنه في التلبيةِ شيئًا زائدًا على تلبيةِ رسولِ اللَّه وتلبيةُ رسولِ اللَّه هي: «**لبيكَ**

(١) صحيح مسلم، مسلم، (٣/ ١٣٤٣).

اللَّهمَّ لبَّيكَ، لبيكَ لا شريكَ لكَ لبّيكَ، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلكَ لا شريكَ لكَ[1]». فزادَ عمرُ: «لبيكَ اللَّهم وسعدَيكَ، الخيرُ في يديكَ، والعملُ والرَّغباءُ إليكَ»، فلم يعِبْ عليهِ أحدٌ من الصحابةِ لأنه زادَ على تلبيةِ رسولِ اللَّه شيئًا يوافِقُها، وكذلكَ مَن بَعدَ الصحابةِ زادوا أشياءَ موافقةً للشرعِ ككتابةِ ﷺ عند ذِكرِ اسمِ الرسول عَقبَه فإن الرسولَ لم يكتب ﷺ – أي لم يأمر بكتابة – عقبَ اسم محمدٍ في كتابهِ إلى هِرَقل وفي كتابهِ إلى كِسرَى وغيرِ ذلك ثم جَرَى عَمَلُ المسلمينَ على كتابةِ ﷺ عقبَ اسمِهِ حتى إن هؤلاء الذين ينكرونَ على الناسِ البِدَعَ الحسنةَ من عَمَلِ المولِدِ في شهرِ ربيعٍ والصلاةِ على النبي جهرةً عقبَ الأذانِ يعملونَ هذه البدعَةَ أي كتابة ﷺ عقبَ اسمِ محمد في مؤلفاتِهم فما لهم يناقضونَ أنفسَهُم يقولونَ: ما لم يفعلهُ رسولُ اللَّه أو لم يأمرْ به نصًّا بدعةٌ محرمةٌ، وهم مرتكبونَ ما يعيبونه على الناسِ من ذلكَ.

وأمّا الدليلُ من الحديثِ على أن البدعةَ منها ما هو حَسَنٌ فهو قولُهُ عليه الصَّلاةُ والسّلامُ: «**من سنَّ في الإسلامِ سنّةً حسنةً فلهُ أجرُهَا وأجرُ من عَمِلَ بها**»[2].

فإن قيلَ: هذا معناهُ من سنَّ في حياةِ رسولِ اللَّه أمَّا بعدَ وفاتِهِ فلا، فالجوابُ أن يُقالَ: «**لا تثبُتُ الخصوصيَّةُ إلا بدليلٍ**» وهنا الدّليلُ يعطي خلافَ ما يدَّعونَ حيثُ إنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**مَن سَنَّ فِي الإسلامِ**» ولم يَقُل من سنَّ في حياتي ولا قالَ من عَمِلَ عملًا أنا عملتهُ فأحياهُ، ولم يكن الإسلامُ مقصورًا على الزّمنِ الذي كانَ فيه رسول اللَّه، فَبَطَلَ زَعمُهُم. فإن قالوا: الحديثُ سببهُ أن أناسًا فقراءَ شديدي الفَقرِ يلبسونَ النّمارَ جاؤوا فتمعَّرَ وجهُ رسولِ اللَّه لما رأى من بؤسهم فتصدَّقَ الناسُ حتى جمعوا لهم شيئًا كثيرًا فتهلَّلَ وجهُ رسولِ اللَّه فقال: «**من سنَّ في الإسلامِ سنةً حسنةً فلهُ أجرُهَا وأجرُ من عَمِلَ بها**»، فالجوابُ أن يُقالَ: العبرةُ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ كما ذَكَرَ الأصوليونَ.

---

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٢/ ١٣٨).

(٢) صحيح مسلم، مسلم، (٢/ ٧٠٤).

وأمّا الحديثُ الذي فيه: «**وكلُّ محدثَةٍ بدعةٌ وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ**»[1] فلا يدخُلُ فيه البدعةُ الحسنةُ لأنَّ هذا الحديثَ من العامّ المخصوصِ أي أن لفظَهُ عامٌّ ولكنَّهُ مخصوصٌ بالبدعَةِ المخالِفةِ للشّريعةِ بدليلِ الحديثِ الذي رواهُ مسلمٌ: «من سَنَّ في الإسلامِ سنةً حسنةً فلهُ أجرُهَا» الحديث وذلكَ لأنّ أحاديثَ رسولِ اللَّه تتعاضَدُ ولا تتناقَضُ وذلكَ لأنّ تخصيصَ العامّ بمعنى مأخوذ من دليلٍ نقليّ أو دليلٍ عقليّ مقبولٌ عند جميعِ العلماءِ، فلو تركَ ذلكَ لضاعَ كثيرٌ من الأحكامِ الشّرعيةِ ولحَصَلَ تناقضٌ بين النُّصوصِ، فأهلُ العِلمِ هم الذين يعرفونَ أنَّ هذا العموم مخصوصٌ بدليلٍ ءاخر عقليّ أو نقليّ.

وكذلكَ يُعلَمُ أنَّ البدعَةَ تنقسِمُ إلى قسمينِ من حديثِ البخاريّ ومسلمٍ عن عائشةَ رضي اللَّه عنها قالت: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[2] . فأفهَمَ رسولُ اللَّه بقوله: «**مَا لَيْسَ مِنْهُ**» أنَّ الْمُحْدَثَ إنَّما يكونُ ردًّا أي مردودًا إذا كانَ على خلافِ الشّريعةِ، وأنَّ المحدَثَ الموافِقَ للشّريعةِ ليسَ مردودًا.

ومِن القِسم الثاني كذلك الاحتِفالُ بمولِدِ النّبي ﷺ في شهرِ ربيعٍ الأولِ، وأوّلُ من أحدثهُ الملِكُ المُظفّرُ ملِكُ إربِل في القرنِ السّابعِ الهِجريّ، وتنقيطُ التّابعيّ الجليلِ يحيى بنِ يعمر المُصحف وكان مِن أهلِ العِلمِ والتّقوى، وأقرّ ذلِك العُلماءُ مِن مُحدّثين وغيرِهم واستحسنُوهُ ولم يكُن مُنقّطًا عِندما أملى الرّسُولُ على كتبةِ الوحي، وكذلِك عُثمانُ بنُ عفّان لمّا كتب المصاحِف الخمسة أو السّتّة لم تكُن مُنقّطةً، ومُنذُ ذلك التّنقِيطِ لم يزل المُسلِمون على ذلك إلى اليوم، فهل يُقالُ في هذا إنّه بِدعةُ ضلالةٍ لأنّ الرّسُول لم يفعلهُ؟ فإن كان الأمرُ كذلِك فليتركُوا هذِهِ المصاحِف المُنقّطة أو لِيكشِطُوا هذا التّنقِيط مِن المصاحِفِ حتّى تعود مجرّدةً كما في أيّامِ عُثمان. قال أبو بكر بنُ أبي داود صاحِبِ السُّننِ في كِتابِه المصاحِف «أوّلُ من نقط المصاحِف

(١) شعب الإيمان، البيهقي، (٦/ ٤٤٠).

(٢) صحيح مسلم، مسلم، (٣/ ١٣٤٣).

يحيى بنُ يعمر» وهو مِن عُلماءِ التّابِعين روى عن عبدِ اللَّه بنِ عُمر وغيرِه.

هذا الذي ذُكِرَ هنا بعضُ الأمثلةِ عن البدعةِ الحسنةِ ويتبيَّنُ من هذا أنَّ من خَالَفَ هذا فهو شاذٌّ مكابرٌ لأنَّ مؤدَّى كلامِهِ أنَّ الصّحابَةَ الذين بشَّرَهم رسولُ اللَّه بالجنّةِ كعمرَ بنِ الخطَّابِ وعثمانَ بن عفَّان كانوا على ضلالٍ، فعمرُ بن الخطَّابِ رضي اللَّه عنه جَمَعَ النّاسَ على صلاةِ التَّراويحِ في رمضانَ وكانوا في أيّامِ رسولِ اللَّه يصلُّونها فُرَادَى وقالَ عُمَرُ عن ذلكَ: «نِعمَت البِدعَةُ هَذِهِ»، وقد روى ذلكَ عن عمرَ البخاريُّ في صحيحِهِ.

وكذلك عثمانُ بن عفّان أحدثَ أذانًا ثانيًا يومَ الجمعةِ ولم يكن هذا الأذانُ الثَّاني في أيّامِ رسولِ اللَّه وما زالَ النّاسُ على هذا الأذان الثَّاني يوم الجمعةِ في مشارِقِ الأرضِ ومغارِبِهَا، وقد روَى ذلكَ عن عثمانَ البخاريُّ في صحيحِه أيضًا.

وكذلكَ أحدَثَ الصّحابيُّ الجليلُ خبيبُ بن عديّ صلاةَ ركعتينِ عند القتلِ، فقد رَوَى البخاريُّ في صحيحِهِ عن أبي هريرةَ رضي اللَّه عنه أنه قالَ: «فكانَ أوَّلَ من سنَّ الرَّكعتينِ عندَ القَتلِ»[1].

فالمحدَثَاتُ التي توافِقُ الشريعةَ كانت في الصّحابةِ والتابعينَ ومن بعدَهم ووافقَ عليها العلماءُ في مشارِقِ الأرضِ ومغارِبِهَا، ومن هذه المحدَثاتِ الاحتفالُ بمولِدِ النَّبي ﷺ الذي أحدَثَهُ الملكُ المظفَّرُ في أوائلِ السّتّمائةِ للهجرةِ وكان عالمًا تقيًّا شجاعًا ووافَقَهُ على ذلكَ العلماءُ والصّوفيةُ الصّادقونَ في مشارِقِ الأرضِ ومغارِبها منهم الحافظُ أحمدُ بن حجرٍ العسقلانيُّ وتلميذُهُ الحافظُ السَّخاويُّ وكذلك الحافظُ السّيوطيُّ، وللحافظِ السّيوطيّ رسالة سمَّاهَا: «حُسنُ المَقصِدِ في عَمَلِ المَولِدِ».

ومن البِدَعِ الحَسَنَةِ أيضًا الطُّرق التي أحدَثَها بعض الصّالحينَ ومنها الطرقُ التي أحدَثها بعضُ أهلِ اللَّه كالرّفاعيَّةِ والقادريَّةِ وهي نحو أربعينَ فهذه الطرقُ أصلُهَا بِدَعٌ حسنةٌ ولكن شذَّ بعضُ المنتسبينَ إليها وهذا لا يَقدَحُ في أصلِهَا.

---

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٥/ ١٠٣).

(أَلَا) استفتاحية (هَلْ بَلَّغْتُ) أي ما أمرت بتبليغه (اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ) أي على عبادك فإنهم أقروا بأني قد بلّغتهم رسالتك.

وَحدانيّةُ اللّٰه تَعالَى

قوله ﷺ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُم وَاحِدٌ.

(أَيُّهَا) حرف نداء (النَّاسُ) أي أناديكم فاستمعوا كلامي (إِنَّ) للتوكيد (رَبَّكُم) اللَّه وهو رَبّي (وَاحِدٌ) ليس جوهرًا ولا جسمًا، وكلمة «رَبّ» هنا بمعنى الخالق هو اللَّه تعالى، وهي تطلق في اللغة على أكثر من معنى، فقد تأتي بمعنى المصلح أو السيد أو المربي، فكل ذلك جائزٌ في لغة العرب، فيقال: أنا رب هذه الدابة بمعنى مالكها، أو رب الدار، أو أنا رب النجارة أو أنا رب الخياطة بمعنى متقنها، أي متقن هذه الصنعة، معناه محسن هذه الصنعة، فذلك جائزٌ لغةً وشرعًا. لكن أن يقال: أنا ربٌّ من فعل كذا، فهذا ممنوعٌ لأنه تكذيب للدين، فقائل هذه العبارة كأنه يقول: أنا خالق الإنسان، وأما العبد المملوك فإذا قيل فيه: فلان رب كذا بمعنى أنَّه سيده فهذا كان في الماضي موجودًا بكثرة وهو جائز.

قال الفيومي في «المصباح المنير: «الرّبُّ يُطلقُ على اللّهِ تبارك وتعالى مُعرّفًا بِالأَلِفِ واللّامِ ومُضافًا ويُطلقُ على مالِكِ الشّيءِ الّذِي لا يعقِلُ مُضافًا إليهِ فيُقالُ ربُّ الدّينِ وربُّ المالِ»، ومِنهُ قولُهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ فِي ضالّةِ الإِبِلِ: «حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّها»[1]. وقدِ اسْتُعْمِل بِمعْنى السّيّدِ مُضافًا إلى الْعاقِلِ أيْضًا ومِنْهُ قوْلُهُ عليْهِ السّلامُ: «حتّى تلِد الْأمةُ ربّتها». وفِي رِوايةٍ «ربّها»، وفِي التّنْزِيلِ حِكايةً عنْ يُوسُف عليْهِ السّلامُ: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾[سورة يوسف].

قالُوا: ولا يجُوزُ استِعمالُهُ بِالأَلِفِ واللّامِ لِلمخلُوقِ بِمعنى المالِكِ لِأنّ اللّام

(١) صحيح البخاري، البخاري، (١/ ٣٠).

لِلعُمُومِ والمخلُوق لا يملِكُ جمِيع المخلُوقاتِ.

وأمَّا ما ورد من إطلاق «الرب» بالألف واللام على المخلوق فهو غير مقبولٍ. وقد ذكر بعض العلماء أنَّ ما ورد في الحارث بن حِلِّزَة من إطلاق (الرّبّ) على المخلوق هو من تعنُّته في الكفر.

ووحدانيّةُ اللَّه تعالَى كما قال الإمام أبو حنيفة في «الفقه الأكبر» فيه[1]: «واللهُ واحِدٌ لا مِن طريق العدد ولكن من طريق أنه لا شريك له ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[سورة الإخلاص] لا يشبه شيئًا من الأشياء من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه»، وقال الفخر الرازي في تفسيره[2]:»الأحد هو الكامل في الوحدانية، وكل جسمٍ فهو منقسمٌ بحسب الغرض والإشارة إلى جزأين، فلما كان تعالى أحدًا امتنع أن يكون جسمًا أو متحيزًا».

والوحدانية في حق اللَّه تعالى أي لا ثاني له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، يعني أن الوحدانية في حقه تعالى تشتمل على ثلاثة أوجه:

أحدها: نفي الكثرة في ذاته تعالى ويُسمى الكَمَّ المتصل.

ثانيها: نفي النظير له جلَّ وعزَّ في ذاته أو صفة من صفاته ويُسمَّى الكم المنفصل[3]، والكَمّ لغةً هو العرض الذي يقتضي الانقسام لذاته وهو إما متصل أو منفصل لأن أجزاءه إما أن تشترك في حدود يكون كل منها نهاية جزء وبداية آخر وهو المتصل أو لا وهو المنفصل[4]، أما اصطلاحًا فالكم المتصلُ في الذاتِ هو

(١) الفقه الأكبر، أبو حنيفة، (ص/ ٣٠، ٣١).

(٢) تفسير الرازي، الرازي، (٣/ ٢٣١).

(٣) شرح أم البراهين، السنوسي، (ص/ ٣٥).

(٤) التعريفات، الجرجاني، باب الكاف، (١/ ٢٣٩).

تركب الذاتِ من أجزاء[1]، والمنفصل في الذات هو وجود نظيرٍ لها.

الثالث: انفراده تعالى بالإيجاد والتدبير، قال جلَّ مِن قائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القمر] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة الأنعام]، وقال جلَّ وعزّ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الصافات].وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القمر] هذا استدلالٌ على الوجه الثالث وهو انفراده تعالى بالإيجاد، والمعنى إنَّا خلقنا كل شيء بقدرٍ أي بتقديرنا الأزلي، وهذا تعميمٌ لجميع الأشياء، أي أن كل ما دخل في الوجود فقد وُجِدَ بتقدير اللَّه وجودَه.

وقوله تعالى: ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [سورة الأنعام] في الآيةَ استدلالٌ على ثبوت الوجه الأول وهو نفي الكثرة في ذاته، إذ لو كان مركبًا كان كل جزء إلهًا على زعمهم فيكون أربابًا لا ربًّا واحدًا.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة] فيه استدلالٌ على انفراده تعالى بالإيجاد، وذلك لأن المراد بالـمُلكِ التصرّف أي التصرف في السماوات والأرض وأن ما فيهما مملوكٌ له تعالى، ولا يكون مالكًا للتصرف فيهما إلا إذا كان منفردًا بإيجادهما وإيجاد ما فيهما من ذوات وصفات وأفعال، فلو كان لأحدٍ تأثير في أثر ما لم يكن المولى مالكًا للتصرف فيهما لكن الأخير باطل. وقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الصافات] فيها استدلالٌ على انفراده تعالى بالإيجاد[2].

فإن قيل: وهل في العقل دليل على أنّ صانع العالم واحد؟

قلنا: دلالة التمانع المشارُ إليها في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأنبياء]. لأنه لو كان للعالم صانعان لكان

(١) شرحا الأنصاري وعبد العليم على أم البراهين، أحمد الأنصاري وعبد العليم الحدادي، (ص/ ٤٢).
(٢) حاشية الدسوقي على أم البراهين، السنوسي، (ص١٤١).

لا يجري تدبيرهما على نظام ولا يتسق على إحكام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة تجزؤِ الفعل إن فُرِضَ الاتفاق أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزًا لأنه يلزم منه عجز قديم إذ لا تقوم به الحوادث، والعجز القديم محال لأنه يستدعي معجوزًا عنه وإنما يتعلقُ العجز بالممكن لا بالمستحيل[1]. ولأهل التوحيد العديدُ من الأدلةِ العقليةِ في إثبات وحدانية اللَّه تعالى، منها: دليل الاختراع، ودليل الحركة، ودليل الفطرة، دليل الافتقار إلى المُخَصِّص، ودليل التركيب، وغير ذلك.

أبو البَشَر واحِدٌ وهو آدم ﷺ

قوله ﷺ: **وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ كُلُّكُمْ لِآدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ.**

انتِساب البَشَرِ إلى آدمَ ﷺ

(وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ) وهو آدم ﷺ، ثم قال عليه الصلاة والسلام **(كُلُّكُمْ لِآدَمَ)** أي من ذريته وترجعون إليه انتِسابًا، ففي أحاديث رسول اللَّه فيها لفظ ابن آدم مثل: «**لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ**[2]»، وسيدنا آدم عليه السلام هو أول الأنبياء فآدم صلى اللَّه عليه وعلى جميع الأنبياء متفق على نبوته لم يختلف في ذلك اثنان من علماء الإسلام فمن أنكر نبوته فهو من الكافرين ويستحق آدم عليه السلام على كلِّ فرد من البشر أن يحبّه ويستحق علينا من غير وجوب أن نصلي عليه ونسلم إذا سلمنا على سيدنا محمد وصلينا عليه فيستحسن أن يقال اللَّهم صلِّ على محمدٍ وعلى آدم ونوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى أو شبه ذلك من الألفاظ وجاء في الحديث «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ، وَأَوَّلُ مَنْ**

(١) تشنيف المسامع، الزركشي، (٤/ ٦٣٦).

(٢) صحيح مسلم، مسلم، (٣/ ١٣٠٣).

تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ، وَآدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي وَلَا فَخْرَ»[1]، وقد صح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال « **صَلُّوا عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَهُمْ كَمَا بَعَثَنِي**»[2] اللَّهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى جميع إخوانه النبيين والمرسلين وءال كل وصحب كل وسائر عبادك الصالحين.

تَعظِيمُ الأنبياء واجِبٌ وانتِقاصُ أحَدِهِم كُفرٌ

ثُمّ إنه يَجِبُ تَعظِيم جميع أنبياء اللَّه عليه السلامُ، فَمَن انتَقص واحدًا مِنه أو استهزأ به في جدٍّ أو مزحٍ فقد خرج من الإسلام كالذي يَنتقص نبيّنا محمدًا أو إبراهيم أو موسى أو عيسى وكذا مَن انتقص نبيّ اللَّه يونسَ بن متّى الذي التقمه الحوت ثم سلّمه اللَّه تعالى بعد أن مكث في بطن الحوت زمانًا فيجب أن لا يصدّق عليه وعلى غيره من أنبياء اللَّه أي خبرٍ فيه طعن في واحد منهم صريح أو غير صريح فلا يجوز الإزراء بواحد منهم من حيث الدين ولا من حيث الخلقة ويجب تكذيب ما يشاع في بعض المدارس من أن أول البشر كان على شكل القرد لأن أول البشر هو آدم لا غير لم يسبق فرد من النوع الإنساني قبل آدم فلا يجوز وصف أحد منهم بدمامة الوجه أو قبح الخلقة.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الوَجْهِ حَسَنَ الصَّوْتِ وَإِنَّ نَبِيَّكُم أَحْسَنُهُم وَجْهًا وَأَحْسَنُهُم صَوْتًا**»[3]، وقد قال بعضُ العلماء في التّوفيق بينَ هذا أي بينَ قولِ نبيّنا ﷺ: «وَإِنَّ نَبِيَّكُم أَحْسَنُهُم وَجْهًا»[4] وما جاءَ في يُوْسُفَ عليه السَّلام أنّه أُوْتِيَ شَطْرَ الحُسْن، إنّ جمالَ يوسُف كان مَكشُوفًا لم يكن مَصُوْنًا بالجَلاَل

(١) شعب الإيمان، البيهقي، (٣/ ٧٤).

(٢) المصدر نفسه، (١/ ٢٧٧).

(٣) الشمائل المحمدية، الترمذي، (٢٦١/ ٣٢١).

(٤) فتح الباري، ابن حجر، (٧/ ٢١٠).

وأمّا نبيُّنا محمَّدٌ كانَ جمالُه مَصُوْنًا بالجلاَل، أي لذَلك ما افتَتَنت به النّساءُ كما افتَتَنَّ بيُوسُفَ عليه السَّلام، معنى مَصُونًا بالجِلال أي مَصُونًا بالهَيْبَة.

أصلُ آدمَ ﷺ مِن تُرابٍ

(وَآدَمُ) ﷺ (مِنْ تُرَابٍ) فقد خَلَق اللَّه الأرض في يومين الأحد والاثنين ثم خلق اللَّه السموات السبع الثلاثاء والأربعاء ثم خلق في اليومين الآخرين مرافق الأرض الجبال والأشجار والأنهار والبحار وجعل في الأرض الأماكن التي ينتفع بها الناس الأماكن التي تصلح لأن يسلكوها ثم خلق اللَّه تعالى ءادم ءاخر النهار العصر، ءادم عليه السلام خلق من تراب الأرض ملك من الملائكة رفع هذا التراب بأمر اللَّه إلى الجنة وعجن بماء الجنة ولم يرد من هو هذا الملك الذي فعل ذلك يحتمل أن يكون جبريل أو عزرائيل أو غيرهما وبقي هذا التراب طينًا مدةً ثم تحول شيئًا يابسًا جامدًا كالفخار، ثم حوله اللَّه لحمًا وعظامًا ودمًا ثم أَدخل فيه الروح، وفي هذا ردٌّ على النظريات الفاسدة مثل نظرية داروين التي تقول الإنسان كان قردًا ثم تطور والعياذ بالله تعالى بل آدم عليه السلام كان بشرًا ومنه خلقت البشرية، ثم علمه اللَّه تبارك وتعالى الكلام وأفاض على قلبه فصار يعرف أسماء كل شيء ثم خلق اللَّه من ضِلَعٍ من أضلاعه حواء وزوجَه إياها، جعلها زوجة له فعاش ءادم في الجنة مائة وثلاثين سنة أي ءاخر نهار يوم الجمعة لأن تلك الأيام الستة كل يوم منها قدر ألف سنة بحساب أيامنا هذه. ثم أنزله اللَّه إلى الأرض وعلمه أمور المعيشة علمه كيف يزرع القمح ثم يحصد ثم يعمل منه الخبز وعلمه كيف يُستخرَج الحديد وكيف تُستخرَج النار وكيف يُعمَل نقد الذهب ونقد الفضة ليتعامل بها الناس. ثم حواء ولدت له أربعين بطنًا في كل بطن ذكر وأنثى وبطنٌ واحدٌ وُلِد منفردًا قيل إنه شيث ثم هؤلاء توالدوا وكثر عددهم فبلغ عددهم في حياة ءادم أربعين ألفًا لأن ءادم عاش ألف سنة، المائة والثلاثون عاشها في الجنة وتَكملة الألف في الأرض، وأمر ولادة

حواء هذا العدد ليس نصًا نبويًا إنما هو خبر من تواريخ الأمم.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**إِن مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فأَكثِرُوا عَلَى مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**» رواه البيهقيُّ[1]، معناه أنّ اللَّهَ خَلَق آدمَ يومَ الجمعة، لأنّ بَدْءَ خَلق السّماوات والأرض وما بينَهما كان يومَ الأحد فتَمّ خَلْقُ الأراضي السّبْعَة في هَذين اليَومَين التّالِيَين وهما الثلاثاء والأربعاء ثمّ خلَق اللَّهُ مَرافِق الأرض التي هي تَسهيلٌ على البشر لِسُكْنَى هذه الأرض، أَجْرى في ذَيْنِك اليومَين أي الخميس والجمُعة الأنهارَ وأَنبَتَ الأشجار وخلَق غيرَ ذلكَ ممّا يَنتَفِعُ به البشَر ثم خلَق آدمَ آخِرَ الخَلق، يوم الجمعة آخرَ النَّهار خلَق اللَّهُ آدم ثم تُوُفّي آدمُ يومَ الجمُعة، ثم تكونُ النّفخَة يومَ الجمُعة، هيَ النفخَة نفخةُ إسرافيلَ، اللَّهُ تبَارك وتعالى وَكَّلَ إسرفيلَ بالنّفخ في الصُّور فهو ينتَظِرُ أن يُؤمَر ليَنفُخَ فإذا نفَخ فنِيَ البَشَر والجِنُّ الذين على الأرض مِن هَوْلِ صَوتِه مِن شِدّةِ صَوتِه، البشَر الذينَ يكونون في ذلكَ الوقت على وجه الأرض والجنُّ يموتُون لذلكَ عَظّم اللَّهُ تعالى أمْرَ يوم الجمعَة، شأنُ يوم الجمعة عَظّمَه اللَّه تعالى فهو سَيّدُ الأيام وهو عِيدُ المسلمين، يومُ الجمعة عيدٌ للمسلِمين بعدَ العِيدَين عيد الفِطر وعيدِ الأضحى وإنما خلَق اللَّهُ تعالى ءادمَ آخرَ الخَلْقِ للإعلام ليُفْهِمَنا اللَّهُ تبارك وتعالى أنّ ما خلقَه قبلَ آدَم أقَلّ درجَة عندَ اللَّه تعالى مِن آدم، كُلُّ الذينَ خلقَهُم اللَّه قبلَ آدمَ هم أقلّ درجَةً مِن آدم، فآدمُ أعلى مَرتبةً عندَ اللَّه، كذلك سيّدُنا محمَّد أرسلَه اللَّه تعالى بعدَ جميع الأنبياء بعدَما رُفع المسيح عيسى بسِتمائة سنةٍ تقريبًا أرسلَ اللَّه محمَّدًا بالنّبوّة وجعَلَه رَسولًا إلى الإنس والجِن إلى جميع الإنسِ والجنّ، إيْذَانًا بأنّ سيّدنا محمَّدًا هو أفضَلهم جاءَ بعدَ جمِيعِهم كما أنّ آدمَ جاءَ بعدَ جميع الخَلق بعدَ خَلْق السّماوات والأرض والملائكةِ والجِنّ والشّمس والقمر والجبال والبهائم والطّيور، بعدَ كلّ هذا جاءَ آدم، هؤلاء خُلِقوا لآدم، لمّا خلَقَ اللَّهُ تعالى هذه الأرضَ خُلِقُوا لآدم وذُرّيتِه، لمنفَعةِ آدمَ وذُرّيته فهو أي آدمُ وإخوانه الأنبياء

(١) سنن البيهقي، البيهقي، (٣/ ٣٥٣).

أفضلُ خَلق اللَّه، الملائكةُ مع أنّهم أطوَلُ أعْمارًا وهم لا يعصُونَ اللَّهَ أحَدُهم مِن يوم خُلِق إلى أن يُنفَخ في الصُّور حَيٌّ يَعبُد اللَّهَ ولا يَفتُر عن ذِكْر اللَّه تعالى لا يَتعَب، لأنهم لا يُحسُّون بتعَب مع ذلك آدمُ أفضَل منهم مع أنّه ما عاشَ في الدّنيا إلا ألفَ سنَة، ثم سيّدُنا محمَّد الذي لم يعِش في الدنيا إلا ثلاثة وسِتّينَ سنةً أفضلُ مِن أولئك جِبريلَ وميكائيل وإسرفيلَ وعَزرائيل وحَمَلةِ العَرشِ الذينَ لا يَعلمُ أحَدٌ مِن البشَر كَم عاشُوا منذُ خُلِقوا، ومع ذلك فهؤلاء الأنبياء الذين هم يأكلون ويَشربُون ويَنامُون اللَّه تعالى فضَّلَهم، اللَّه تعالى يَفعَلُ ما يُريد، هو فَضّل الأنبياءَ على الملائكة مع أنّ الملائكةَ أطولُ أعمارًا لا يَشغَلُهم عن طاعة اللَّه أكلٌ ولا شربٌ فإنّهم لم يُحْوِجْهُم اللَّهُ إلى الأكلِ والشُّرب ما خَلقَ اللَّهُ فيهم حاجَةً ولا شَهوَةً للأكل والشُّرب، لم يَخلُق فيهم تعبًا مهما طَلَعَ أحدُهم إلى السّماوات السّبع لا يَتعَبُون، كلَّ يَوْمٍ يتَعاقَبُون فينا ملائكةٌ باللَّيل وملائكةٌ بالنَّهار.

يومُ أَلَسْتُ وقَضِيَّةُ الفِطْرة

وليُعلمَ أنّ البشَرَ لَمَّا كانوا في ظَهر آدمَ وآدمُ في أرضِ عرَفات أرضٍ تُسمَّى نَعْمَان الأَرَاك كانَ آدمُ هناك أخرجَ اللَّه منه ذرّيتَه فصَوّرَهم وخلَق فيهِم إدْراكًا فأسمَعَهُم فعَرَفوا أُلوهيّةَ اللَّه وأنّهُ لا ربّ لهم غيرُه ولا إلهَ لهم غيرُه فاعترَفوا كلُّهم كلُ ذُرّية آدم ذلك اليَوم اعترَفوا بعدَ مَعرفةٍ وإدراكٍ خلَقَها اللَّهُ فيهم قال: ألستُ برَبّكم قالوا بلى واستَمرّوا على ذلك إلى أن خرَجُوا مِن بطُون أُمّهاتِهم، ثم بعدَ ذلك أيضًا استمَرّوا على مُقتَضى ذلك الاعتراف لكنّ اللَّه تعالى أنسَاهُم تلكَ المفاهِيم. لكن كانُوا على استِعدادٍ لها إلى أن صَاروا يفهمونَ كلامَ الناس هذا سمِع وصْفَ الإسلام فاعتقدَه وهذا سمع وصفَ الكفر فاعتقدَه مِن ذلك الوقت قِسمٌ صاروا كافِرين وقِسم ثبَتوا على الإيمان كلُّ هذا يدُلّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [سورة

التغابن]. قال رسول اللَّه: «**كلُّ مَولودٍ يُولَد على الفِطرةِ**[1] **حتّى يُعْرِبَ عنه لِسَانُه**»[2] رواه البخاري ومسلم، معناه يفهم كلامَ الناس لما يفهم كلامَ الناس عندئذٍ هذا صار كافرًا لأنه سمع مِن أبويه الكافرَين الكفرَ واعتقدَه وذاك سمع من أبوَيه المسلمَين عقيدة الإسلام فاستقَرّ عليها.

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٢/ ١٠٠).

(٢) المعجم الكبير، الطبراني، (١/ ٢٨٣).

ما يَجِبُ في حَقِّ الأنبياء وما يَستحِيلُ علَيهِم

اعلَم رحِمَك اللَّه أنّه يجبُ اعتقادُ أَنَّ كلَّ نبيٍّ منْ أنبياءِ اللَّه يجبُ أَنْ يكونَ متّصفًا بالصدقِ والأمانةِ والفطانةِ، فيستحيلُ عليهم الكذبُ والخيانةُ والرذالةُ والسفاهةُ والبلادةُ والجُبْنُ وكل ما يُنَفِرُ عن قَبُولِ الدعوةِ منهم.

فيجب لكلّ واحدٍ من الأنبياء أن يكونَ بهذه الأخلاق وهي:

الصِدق فيستحيلُ عليهمُ الكذبُ لأَنَّ ذلك نقصٌ ينافي منصب النبوّة، وأما قولُ إبراهيم عليه السلام عن زوجته سارة «**إنها أختي**» وهي ليست أخته في النَّسب فكان لأنها أختُه في الدين بغرض صيانتها من أذى الجبار فهو ليس كذبًا من حيث الباطن والحقيقة إنما هو صِدقٌ. وكذلك ورد في أمر إبراهيم في القرءان الكريم أنّه قال:﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الأنبياء] فليس هذا كذبًا حقيقيًّا بل هذا صدقٌ من حيث الباطن والحقيقة لأَنَّ كبير الأصنام هو الذي حمله على الفتك بهم أي الأصنام الأخرى من شدّة اغتياظه منه لمبالغتهم في تعظيمه بتجميل هيأته وصورته، فحمله ذلك على أن يكسِّر الصغار ويهينَ الكبير، فيكون إسناد الفعل إلى الكبير إسنادًا مجازيًّا، فلا كذب في ذلك أي هو في الحقيقة ليس كذبًا إنَّما صورتُه صورة كذب، وأما حديث: «كَذَبَ إبراهيمُ ثلاثَ كَذَبَاتٍ» فقد اعترضَ عليه بعضُ العلماءِ وأوَّله بعضهم على نحو ما ذكرنا.

والأمانةُ فيستحيل عليهم الخيانةُ فلا يكذبونَ على الناسِ إن طلبوا منهم النصيحة ولا يأكلون أموالَ الناس بالباطل.

والفطانةُ فكل الأنبياءِ أذكياءُ يستحيل عليهم الغباوةُ أي أن يكونوا ضعفاءَ الأفهام، لأن الغباوةَ تنافي مَنصِبَهم لأنهم لو كانوا أغبياء لنفر منهم الناس لغباوتهم والله حكيم لا يجعل النبوة والرسالة في الأغبياء، فإِنَّهم أُرسلوا ليبلّغوا الناسَ مصالح ءاخرتهم ودنياهم، والبلادة تنافي هذا المطلوب منهم.

ويستحيل على الأنبياء الرذالة والسفاهة والبلادة فليس في الأنبياء من هو رذيلٌ يختلس النظر إلى النساء الأجنبيات بشهوةٍ مثلًا، وليس فيهم من يسرق ولو حبة عنب، وليس في الأنبياء من هو سفيه يقول ألفاظًا شنيعة تستقبحُهَا النفس، وليس في الأنبياء من هو بليدُ الذهن عاجز عن إقامة الحجة على من يعارضهُ بالبيانِ ولا ضعيفُ الفهم لا يفهم الكلام من المرة الأولى إلا بعد أن يكرَّرَ عليه عدة مرات.

ويستحيل على الأنبياء سبقُ اللسان في الشرعيات والعاديَّات لأنه لو جاز عليهم لارتفعت الثقة في صحة ما يقولونه، ولقال قائل عندما يبلغه كلام عن النبي ما يدرينا أن يكون قاله على وجه سبق اللسان، لذلك لا يصدر من نبي كلام غير الذي يريد قوله ولا يصدر منه كلامٌ وهو لا يريد الكلام بالمرة كما يحصل لمن يتكلم وهو نائم. وكذلك يستحيل عليهم الأمراض المنفرة كخروج الدود من الجسم.

وكذلك يستحيل على الأنبياء الجبن، أما الخوفُ الطبيعي فلا يستحيل عليهم بل الخوف الطبيعي موجود فيهم وذلك مثل النفور من الحية فإن طبيعة الإنسان تقتضي الهرب من الحية وما أشبه ذلك مثل التخوف من تكالب الكفار عليهم حتى يقتلوهم. ولا يقال عن النبي ﷺ هرب بحيث يشعرُ بالجبن أما فَرَّ من الأذى مثلًا فلا يشعر بالجبن يقال هاجر فرارًا من الكفار أي من أذى الكفار هذا جائز ما فيه نقص وعلى هذا المعنى قول موسى ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [سورة الشعراء].

وتجبُ لهم العصمةُ منَ الكفرِ والكبائرِ وصغائرِ الخِسَّةِ قَبلَ النبوّة وبعدَهَا، أي أن الأنبياء معصومون أي محفوظون من الكفر قبل أن يُوحى إليهم بالنبوة وبعدَ ذلك أيضًا، وأمَّا قول سيدنا إبراهيم عن الكوكب حين رءاه:

﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [سورة الأنعام] فهو على تقدير الاستفهام الإنكاريّ فكأَنَّه قال أَهذا ربّي كما تَزعُمُونَ، ثم لمَّا غابَ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾[سورة الأنعام] أي لا يصلح أن يكون هذا ربًّا فكيف تعتقدون ذلك، ولما لم يفهموا مقصوده بل بقُوا على ما كانوا عليه قال حينما رأى القمر مثل ذلك، فلما لم

يجد منهم بغيته أظهر لهم أنّه بريء من عبادته وأنّه لا يصلح للربوبيّة، ثم لما ظهرت الشمسُ قال لهم ﴿۞ وَإِذْ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [سورة الأنعام] أي على زعمكم فلم ير منهم بُغيته فأيسَ منهم من عدم انتباههم وفَهمهم للمراد أي أن هؤلاء الثلاثة لا يصلحون للألوهية فتبرأ مما هم عليه من الشرك، ثم لم يمكث فيهم بل ذهب إلى فلسطين فأقام هناك وتوفي فيها، وفي خلال ذلك ذهب إلى مكة بسرّيته هاجر وابنه إسماعيل وتركهما هناك.

وأمَّا إبراهيم في حدّ ذاته فكان يعلم قبل ذلك أنَّ الربوبيّة لا تكون إلا لله بدليل قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الأنبياء] .

والأنبياء عليهم السلام معصومون من الوقوع في المعاصي الكبيرة، وكذلك عصمهم اللَّه من التلبُّس بالذنوب الصغيرة التي فيها خِسَّةٌ ودناءة كسرقة حبة عنب فإن هذه صغيرة لكنها تدل على دناءة نفس.

ويجوزُ على الأنبياء ما سوى ذلكَ مِنَ المعاصي لكنْ يُنبَّهونَ فورًا للتوبةِ قبلَ أن يقتديَ بهمْ فيهَا غيرُهُمْ. والمراد أن الصَّغائر التي ليس فيها خسةٌ ودناءة تجوز على الأنبياء وهذا هو القول المعتمد الموافِق لكلام الإمام أبي الحسن الأشعري رضي اللَّه عنه، لكنه قيَّد في بعض الكتب بما قبل النبوة. أما الأكثرون فعلى أنه تجوز عليهم الصغائر قبل النبوة وبعدها. ويدل على جواز حصولِ ذلك منهم ءاياتٌ منها قوله تعالى ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾[سورة طه]، وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[سورة الشعراء]، وقوله تعالى في حق داود عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾[سورة ص] وغيرُ ذلك من النصوص كقوله تعالى لنبيه محمدٍ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [سورة محمد] فهذا فيه إثباتُ فِعل المعصية في حقّ الرسول ﷺ وفي حق أمته فنحن نقول اقتداءً بالجمهور واستغفر لذنبك هي معصيةٌ حقيقيةٌ صغيرةٌ ليسَ فيها خِسّة ولا دناءة فأُمِرَ الرسول بالاستغفارِ منها فاستغفر.

ولكنَّ الأنبياء إن حصل منهم شيءٌ من المعاصي الصغيرةِ التي ليس فيها خسةٌ ولا دناءةٌ يُنَبَّهون فورًا للتوبة فيتوبون قبل أن يقتدي بهم في تلك الصغيرة غيرُهم فيفعلَ مثلما فعلوا لأنهم قُدوةٌ للناس.

وأما قوله تعالى لسيدنا محمد ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح] فقد فسره بعض العلماء بأن معناه ليحفظَكَ اللَّه من ذنبك فيما مضى وما بقي من عمرك. وفسّره بعضهم بغير هذا.

فائدة: قال الأَزْرَقي في تاريخ مكة دعا إبراهيمُ ربّه أن يرزق أهل مكة التي ليس فيها زرع ولا ثمر الثمرات فأمر اللَّه جبريل أن ينقل جبلًا من أرض الشام إلى قريب من مكة إلى الطائف فنقله جبريل، والطائف فيها كثير من الفاكهة فيها الرمّان وفيها العنب وغير ذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[سورة البقرة] .

تنبيه: قال بعض الأشاعرة: لا يجوز من الأنبياء معصية ولا مكروه لأن الناس مأمورونَ بالاقتداء بهم فلو كان يحصل منهم ذنبٌ أو مكروه لكان في ذلك أمر للناس بالاقتداء بهم في المعصية والمكروه وهذا باطل فوجب تنزيههم عن المعصية والمكروه بالمرة. ويدفع هذا على قول الجمهور بأنهم ينبهون قبل أن يقتدي بهم أحد فيتوبون فلا يحصل اقتداءُ الناسِ بهم في ذلك فلا يلزم من ذلك أن يكون الأتباع مأمورين بالاقتداء بهم في المعصية والمكروه وبذلك اندفع المحذور.

فمِنْ هنا يُعلمُ أنّ النبوّةَ لا تصحُّ لإخوةِ يوسفَ الذينَ فعلوا تلكَ الأفاعيلَ الخسيسةَ وهمْ مَنْ سوى بِنيامينَ ومن هذا الذي ذكرناه يُعلم أنه لا تصحُّ النبوّةُ لإخوة يوسفَ وهم العشرة الذين فعلوا تلك الأفاعيلَ الخسيسةَ من ضربهم يوسفَ ورميهم له في البئر وتسفيههم أباهم بقولهم﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [سورة يوسف] ونحو ذلك وهم من عدا بِنيامينَ أي ليس بنيامين منهم».

بيانُ أهمِيَّة التَّقوَى

قوله ﷺ: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إلا بالتقوى أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ.**

الكَريمُ هو التَّقِيُّ

(**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) هي جزء مِن آية تفسيرُها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [سورة الحجرات] من آدم وحواء أو كل واحد منكم من أب وأم فما منكم من أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر سواء بسواء فلا معنى للتفاخر والتفاضل في النَّسَب ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾[سورة الحجرات] الشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة.

فالشَّعْبُ يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل، خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة، وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي إنما جعلكم على شعوب وقبائل ليعرف بعضكم نسب بعض فلا يعتزي إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد وتدعوا التفاضل في الأنساب.

ثم بيّن الخصلة التي يفضل بها الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند اللَّه فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[سورة الحجرات] في الحديث: «**من سره أن يكون أكرم الناس فليتق اللَّه**»[1]، وعن ابن عباس رضي اللَّه عنهما: كَرَم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى.

---

(١) البدرُ التمام شرح بلوغ المرام، الحسين بن محمد المغربي، (١/ ٢٨٤).

وروي أنه ﷺ طاف يوم فتح مكة فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: «**الحمد لله الذي أذهب عنكم عَيْبة الجاهلية وتكَبُّرها**» يا أيها الناس إنما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على اللَّه وفاجر شقي هين على اللَّه. ثم قرأ الآية. وعن يزيد بن شجرة مرَّ رسول اللَّه ﷺ في سوق المدينة فرأى غلامًا أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط أن لا يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول اللَّه ﷺ. فاشتراه بعضهم فمرض فعاده رسول اللَّه ﷺ ثم توفي فحضر دفنه فقالوا في ذلك شيئًا فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحجرات] كرم القلوب وتقواها ﴿خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحجرات] بهمّ النفوس في هواها.

جِماعُ الخير التَّقوَى

(**وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ**) أي تفضيل (**إِلَّا بِالتَّقْوَى**) والعجميُّ هو مَنْ كانَ جِنْسُه غَيرَ العَرَبِ كالحبَشَةِ والفُرْسِ والروم أمَّا الأعجميُّ فهوَ مَنْ لا يُحْسِنُ اللغةَ العربيةَ لوْ كانَ عَربيًّا من حيث النسب، إذا كانَ لا يحسنُ اللغةَ يقالُ له أعجميٌّ، يُقالُ فلانٌ أعجميٌّ، الحديثُ: «**لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلى أَعْجَمِيٍّ ولا لِعَجَمِيٍّ على عَرَبِيٍّ ولا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بالتَّقْوَى**»[1] رواه الإمام أحمد في مسنده، وعن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: «يا نبي اللَّه أوصني»، فقال: «**عليك بتقوى اللَّه فإنه جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم، وعليك بذكر اللَّه فإنه نور لك**[2]». وقال نافع بن هرمز قال: سمعت أنسا يقول: قيل: يا محمد، من ءَال محمد؟ قال:» كل تقي[3]».

فالتقوى جِماع الخيرات، وحقيقة الاتِّقاء التحرزُ بطاعة اللَّه عن عُقوبته، يقال:

---

(١) مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، (٣٨/ ٤٧٤).

(٢) الآداب، البيهقي، (٣٣٦).

(٣) المعجم الصغير، الطبراني، (١/ ١٩٩).

اتقى فلان بترسه. وأصل التقوى اتقاء الشرك ثم بعده اتقاء المعاصي والسيئات ثم بعده اتقاء الشبهات ثم يدع بعده الفضلات، كذلك سمعت الأستاذ أبا علي رحمه اللَّه يقول، ولكل قسم من ذلك باب.

وجاء في تفسير قول اللَّه تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [سورة آل عمران] أن يطاعَ فلا يُعصَى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر.

وقال سهل بن عبد اللَّه: لا مُعِين[٢] إلا اللَّه ولا دليل إلا رسول اللَّه ﷺ، ولا زاد إلا التقوى ولا عمل إلا الصبر عليه.

وقال الكتاني: قسمت الدنيا على البلوى وقسمت الجنة على التقوى.

وقال الجُريري: من لم يُحْكِم بينه وبين اللَّه التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة.

وقال أيضًا: مَن لَزِم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا، لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأنعام].

وقال سهل: من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب كلها.

وقال بعضهم: من تحقق في التقوى هَوَّن اللَّه على قلبه الإعراض عن الدنيا.

وقال أبو عبد اللَّه الرُّوذْباري: التقوى مجانبة ما يبعدك عن اللَّه عز وجل.

وقال ذو النون المصري: التقي من لا يدنس ظاهره بالمعارضات ولا باطنه بالعُلالات.

وقال ابن عطاء: للتقوى ظاهر وباطن فظاهره محافظة الحدود وباطنه النية والإخلاص.

وقيل: يُستَدَلُّ على تقوى الرجل بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا

فيما قد نال وحسن الصبر على ما قد فات.

وقال طلق بن حبيب: التقوى عمل بطاعة اللَّه على نور من اللَّه مخافة عقاب اللَّه.

وقال أبو الحسين الزنجاني: من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربحه.

والمتَّقِي مثل ابن سيرين اشترى أربعين حُبًّا سمنًا فأخرج غلامه فأرة من حُبّ فسأله من أي حب أخرجتها فقال: لا أدري فصبها كلها على الأرض.

وقيل: إن أبا يزيد غسل ثوبه في الصحراء مع صاحب له فقال صاحبه: نعلق الثياب من جدران الكروم فقال: لا نغرز الوتد في جدار الناس فقال: نعلقه من الشجر؟ فقال: لا إنه يكسر الأغصان فقال: نبسطه على الإذخر؟ فقال: لا إنه علف الدواب لا نستره عنها، فولى ظهره إلى الشمس والقميص على ظهره حتى جف جانب ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر.

ورئي عتبة الغلام بمكان يتصبب عرقًا في الشتاء فقيل له في ذلك فقال: إنه مكان عصيت ربي فيه فسئل عنه فقال: كشطت من هذا الجدار قطعة طين غسل بها ضيف لي يده ولم أستحل من صاحبه.

وقال إبراهيم بن أدهم: بِتُّ ليلة تحت الصخرة ببيت المقدس فلما كان بعض الليل نزل ملكان فقال أحدهما لصاحبه: مَن ههنا؟ فقال الآخر: إبراهيم بن أدهم فقال: ذاك الذي حط اللَّه درجة من درجاته؟ فقال: لم؟ قال: لأنه اشترى بالبصرة التمر فوقعت تمرة من تمر البقال على تمره فأخذها ولم يردها على صاحبها. قال إبراهيم: فمضيت إلى البصرة واشتريت التمر من ذلك الرجل وأوقعت تمرة على تمره ورجعت إلى بيت المقدس وبت في الصخرة فلما كان بعض الليل إذ أنا بملكين نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: من هاهنا؟ فقال الأخير: إبراهيم بن أدهم فقال: ذاك الذي رد الشيء مكانه ورفعت درجته.

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم اللَّه وجهه قال: سادة الناس في الدنيا الأسخياء وسادة الناس في الآخرة الأتقياء.

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن نَظَر إلى مَحَاسِن امرَأة فغَضَّ بَصَرَهُ في أَوَّلِ مَرَّةٍ أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَها فِي قَلْبِه**»(١).

وحكي أنّ الجُنَيد كان جالسًا مع رويم والجريري وابن عطاء فقال الجنيد: ما نجا مَن نجا إلا بصدق اللّجا، قال اللَّه تعالى:﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة التوبة].

وقال رُوَيم: ما نجا من نجا إلا بصدق التُّقَى، قال اللَّه تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾[سورة الزمر] .

وقال الجُرَيري: ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفا، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الرعد].

وقال ابن عطاء: ما نجا مَن نجا إلا بتحقيق الحياء من اللَّه، قال اللَّه تعالى:﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾[سورة العلق].

وقال الأستاذ الإمام: ما نجا من نجا إلا بالحكم والقضاء، قال اللَّه تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[سورة الأنبياء] .

وقال أيضًا: ما نجا من نجا إلا بما سبق له من الاجتباء، قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الأنعام] .

(أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ) أي ما أُمِرتُ به **(قَالُوا: نَعَمْ)** أي أقَرُّوا له بذلك **(قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)** أي مَن حَضَر فليُبَلِّغ مَن غاب.

(١) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (٣٦/ ٦١٠).

الإرثُ والانتسابُ

قوله ﷺ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ، وَلَا يَجُوزُ لِمُورِثٍ وَصِيَّةٌ أَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ، وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ. مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَمَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا.

أَنصِبةُ الوارِثين

(**أَيُّهَا النَّاسُ**) نداء للناس ليستمعوا إلى كلام النبي ﷺ فيما يتعلق بالوصية والتركة وحقوق العباد فقال عليه أفضل الصلاة والسلام (**إِنَّ**) للتوكيد (**اللهَ**) الخالق المعبود. ولفظ الجلالة اللَّه علمٌ للذات المقدّس المستحقِّ لغاية الخشوع والخضوع، ومعناه من له الإلهية أي القدرة على الاختراع، ولفظ الجلالة اللَّه هو خاصٌ بالله، فلا يُسمَّى غير اللَّه بذلك.

(**قَدْ قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ**) وتَقسِيمُه هذا مذكورٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ

تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾
[سورة النساء].

وتقسيمه في كتب الفقه قالوا الفروض المذكورة في كتاب اللَّه تعالى ستة: النصف، والربع، والثمن، والثلثان، والثلث، والسدس.

فالنصف فرض خمسة: البنت، وبنت الابن، والأخت من الأب والأم، والأخت من الأب، والزوج إذا لم يكن معه ولد.

والربع فرض اثنين: الزوج مع الولد أو ولد الابن، وهو فرض الزوجة والزوجات مع عدم الولد أو ولد الابن.

والثمن فرض: الزوجة والزوجات مع الولد أو ولد الابن.

والثلثان فرض أربعة: البنتين، وبنتي الابن، والأختين من الأب والأم، والأختين من الأب.

والثلث فرض اثنين: الأم إذا لم تحجب، وهو للاثنين فصاعدًا من الأخوة والأخوات من ولد الأم.

والسدس فرض سبعة: الأم مع الولد أو ولد الابن أو اثنين فصاعدًا من الأخوة والأخوات، وهو للجدة عند عدم الأم، ولبنت الابن مع بنت الصلب، وهو للأخت من الأب مع الأخت من الأب والأم، وهو فرض الأب مع الولد أو ولد الابن، وفرض الجد عند عدم الأب، وهو فرض الواحد من ولد الأم،.

وتسقط الجدات بالأم، والأجداد بالأب.

ويسقط ولد الأم مع أربعة: الولد، وولد الابن، والأب، والجد.

ويسقط الأخ للأب والأم مع ثلاثة: الابن، وابن الابن، والأب.

ويسقط ولد الأب بهؤلاء الثلاثة، وبالأخ للأب والأم.

وأربعة يعصبون أخوتهم الابن، وابن الابن، والأخ من الأب والأم، والأخ من الأب.

وأربعة يرثون دون أخواتهم وهم الأعمام وبنو الأعمام وبنو الأخ وعصبات المولى المعتق.

إيصاءُ المُوَرّث لِغيرِه

(وَلَا يَجُوزُ لِمُورِثٍ وَصِيَّةٌ أَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ) ففي «أسنَى المطالب»: «الزيادة عن الثُّلث إن كانت ممن لا وارث له خاص فباطلة لأن الحق للمسلمين فلا مجيز **(وإلا فموقوفة)** في الزائد **(على إجازة الورثة)** إن كانوا حائزين فإن أجازوا صحت وإن ردوا بطلت في الزائد لأن حقهم وإن لم يكونوا حائزين فباطلة في قدر ما يخص غيرهم من الزائد (وكذا الوصية للوارث) ولو بدون الثلث باطلة إن كانت ممن لا وارث له غير الموصى له وإلا فموقوفة على إجازة بقية الورثة لخبر البيهقي وغيره من رواية عطاء عن ابن عباس «لا وصية لوارث إلا أن يجيز الورثة» قال الذهبي: إنه صالح الإسناد لكن قال البيهقي: إنّ عطاء غير قوي ولم يدرك ابن عباس **(فإن أجازوا فلا رجوع لهم)** ولو قبل القبض بناء على الأصح من أن إجازتهم تنفيذ للوصية لا ابتداء عطية منهم ثم الإجازة إنما تصح من مطلق التصرف فلا تصح من غيره **(وولاء من أجازوا عتقه)** الحاصل بالإعتاق في مرض الموت أو بعد الموت بحكم الوصية ثابت **(للميت)** يستحقه ذكور العصبة، وقول الأصل: يرثه ذكور العصبة فيه تجوز لأن الولاء لا يورث وإنما يورث به. حدثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد عن إسحاق بن سويد عن العلاء ابن زياد أن رجلًا سأل عمر بن الخطاب فقال: إن وارثي كلالة أفأوصي بالنصف قال لا قال فالثلث قال لا قال فالربع قال لا قال فالخمس قال لا حتى صار إلى العشر فقال أوص بالعشر، رجاله ثقات غير أنه منقطع العلاء بن

زياد روى عن أبيه زياد ابن مطر عن عمر بن الخطاب» .

وروَى عمرُو بنِ سعِيدٍ، قال: كُنّا جُلُوسًا مع حُميدِ بنِ عبدِ الرّحمنِ بِسُوقِ الرّقِيقِ، فقام مِن عِندِنا، ثُمّ رجع. فقال: اللّهُ أكبرُ هذا آخِرُ ثلاثٍ مِن بنِي سعدٍ، حدّثنِي بِهذا الحدِيثِ، قال: مرِض سعدٌ بِمكّة فأتاهُ النّبِيُّ يعُودُهُ، فقال: يا رسُول اللّهِ، إِنّي أرهبُ أن أمُوت بِالأرضِ الّتِي هاجرتُ مِنها كما مات سعدُ بنُ خولة، فادعُ اللّه عزّ وجلّ أن يشفِينِي. فقال: «**اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا**» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَالِي كَثِيرٌ وَلَيْسَ لِي وَارِثٌ إِلا الْكَلالَةَ، أَفَأُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ «**قَالَ: لا**». قَالَ: فَأُوصِي بِنِصْفِ مَالِي؟ «قَالَ: لا»، قَالَ: فَأُوصِي بِثُلُثِ مَالِي؟ «**قَالَ: الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّ صَدَقَتَكَ مِنْ مَالِكَ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ أَكْلَ امْرَأَتِكَ مِنْ طَعَامِكَ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ نَفَقَتَكَ عَلَى أَهْلِكَ صَدَقَةٌ، وَإِنَّكَ أَنْ تَدَعَ أَهْلَكَ بِعَيْشٍ أَوْ بِغِنًى خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتَكَفَّفُوا**[1]».

الوَلَدُ للفِراش وللعاهِر الحَجَر

(**والولد للفراش وللعاهِر الحَجَر**)[2]، وهو في حديث مسلم عن عائشة أنّها قالت: اختَصَم سعد بن أبي وقّاصٍ وعبد بن زمعة في غلامٍ فقال سعدٌ: هذا يا رسول اللّه ابن أخي عتبة بن أبي وقّاصٍ، عهد إليّ أنّه ابنه، انظر إلى شبهه، وقال عبد بن زمعة: هذا أخي يا رسول اللّه، ولد على فراش أبي من وليدته، فنظر رسول اللّه ﷺ إلى شبهه، فرأى شبهًا بيّنًا بعتبة، فقال: «**هُوَ لَكَ يَا عَبْدُ، الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ، وَاحْتَجِبِي مِنْهُ يَا سَوْدَةُ بِنْتَ زَمْعَةَ**[3]»، قَالَتْ: فَلَمْ يَرَ سَوْدَةَ قَط.

قال الحافظ النووي في شرحه على مسلم: «قال العلماء: العاهر الزاني، وعهر زنى وعهرت زنت والعهر الزنى، ومعنى له الحجر أي له الخيبة ولا حق له في الولد،

---

(١) صحيح مسلم، مسلم، (٣/ ١٢٥٣).

(٢) أي لِلزَّانِي الخَيْبة والحِرْمان.

(٣) صحيح مسلم، مسلم، (٢/ ١٠٨٠).

وعادة العرب أن تقول له الحجر وبفيه الأثلب وهو التراب ونحو ذلك يريدون ليس له إلا الخيبة، وقيل المراد بالحجر هنا أنه يرجم بالحجارة وهذا ضعيف لأنه ليس كل زان يرجم وإنما يرجم المحصن خاصة ولأنه لا يلزم من رجمه نفي الولد عنه، والحديث إنما ورد في نفي الولد عنه وأما قوله ﷺ الولد للفراش فمعناه أنه إذا كان للرجل زوجة أو مملوكة صارت فراشًا له فأتت بولد لمدة الإمكان منه لحقه الولد وصار ولدًا يجري بينهما التوارث وغيره من أحكام الولادة سواء كان موافقًا له في الشبه أم مخالفًا، ومدة إمكان كونه منه ستة أشهر من حين اجتماعهما، أما ما تصير به المرأة فراشًا فإن كانت زوجة صارت فراشًا بمجرد عقد النكاح، ونقلوا في هذا الإجماع وشرطوا إمكان الوطء بعد ثبوت الفراش، فإن لم يمكن بأن ينكح المغربي مشرقية ولم يفارق واحد منهما وطنه ثم أتت بولد لستة أشهر أو أكثر لم يلحقه لعدم إمكان كونه منه هذا قول مالك والشافعي والعلماء كافة إلا أبا حنيفة فلم يشترط الإمكان بل اكتفى بمجرد العقد قال حتى لو طلق عقب العقد من غير إمكان وطء فولدت لستة أشهر من العقد لحقه الولد وهذا ضعيف ظاهر الفساد ولا حجة له في إطلاق الحديث لأنه خرج على الغالب وهو حصول الإمكان عند العقد هذا حكم الزوجة، وأما الأمة فعند الشافعي ومالك تصير فراشًا بالوطء ولا تصير فراشًا بمجرد الملك حتى لو بقيت في ملكه سنين وأتت بأولاد ولم يطأها ولم يقر بوطئها لا يلحقه أحد منهم فإذا وطئها صارت فراشًا فإذا أتت بعد الوطء بولد أو أولاد لمدة الإمكان لحقوه، وقال أبو حنيفة لا تصير فراشًا إلا إذا ولدت ولدًا واستلحقه فما تأتي به بعد ذلك يلحقه إلا أن ينفيه قال لو صارت فراشًا بالوطء لصارت بعقد الملك كالزوجة قال أصحابنا الفرق أن الزوجة تراد للوطء خاصة فجعل الشرع العقد عليها كالوطء لما كان هو المقصود وأما الأمة تراد لملك الرقبة وأنواع من المنافع غير الوطء ولهذا يجوز أن يملك أختين وأما وبنتها ولا يجوز جمعهما بعقد النكاح فلم تصر بنفس العقد فراشًا فإذا حصل الوطء صارت كالحرة وصارت فراشًا واعلم أن حديث عبد بن زمعة المذكور هنا محمول على أنه ثبت مصير أمة أبيه زمعة فراشًا لزمعة فلهذا

ألحق النبي ﷺ به الولد وثبوت فراشه إما ببينة على إقراره بذلك في حياته وإما بعلم النبي ﷺ ذلك وفي هذا دلالة للشافعي ومالك على أبي حنيفة فإنه لم يكن لزمعة ولد آخر من هذه الأمة قبل هذا فدل على أنه ليس بشرط خلاف ما قاله أبو حنيفة وفي هذا الحديث دلالة للشافعي وموافقيه على مالك وموافقيه في استلحاق النسب لأن الشافعي يقول يجوز أن يستلحق الوارث نسبًا لمورثه بشرط أن يكون حائزًا للإرث أو يستلحقه كل الورثة وبشرط أن يمكن كون المستلحق ولدا للميت وبشرط أن لا يكون معروف النسب من غيره وبشرط أن يصدقه المستلحق إن كان عاقلًا بالغًا وهذه الشروط كلها موجودة في هذا الولد الذي ألحقه النبي ﷺ بزمعة حين استلحقه عبد بن زمعة ويتأول أصحابنا هذا تأويلين أحدهما أن سودة بنت زمعة أخت عبد استلحقته معه ووافقته في ذلك حتى يكون كل الورثة مستلحقين.

والتأويل الثاني أن زمعة مات كافرًا فلم ترثه سودة لكونها مسلمة وورثه عبد ابن زمعة وأما قوله ﷺ واحتجبي منه يا سودة فأمرها به ندبًا واحتياطًا لأنه في ظاهر الشرع أخوها لأنه ألحق بأبيها لكن لما رأى الشبه البين بعتبة بن أبي وقاص خشي أن يكون من مائه فيكون أجنبيًا منها فأمرها بالاحتجاب منه احتياطا قال المازري وزعم بعض الحنفية أنه إنما أمرها بالاحتجاب لأنه جاء في رواية احتجبي منه فإنه ليس بأخ لك وقوله ليس بأخ لك لا يعرف في هذا الحديث بل هي زيادة باطلة مردودة» انتهى كلام النوويّ.

قال القاضي عياض رضي اللّه عنه: «كانت عادة الجاهلية إلحاق النسب بالزنى وكانوا يستأجرون الإماء للزنا فمن اعترفت الأم بأنه له ألحقوه به فجاء الإسلام بإبطال ذلك وبإلحاق الولد بالفراش الشرعي فلما تخاصم عبد بن زمعة وسعد بن أبي وقاص، وقام سعد بما عهد إليه أخوه عتبة من سيرة الجاهلية ولم يعلم سعد بطلان ذلك في الإسلام، ولم يكن حصل إلحاقه في الجاهلية إما لعدم الدعوى وإما لكون الأم لم تعترف به لعتبة واحتج عبد بن زمعة بأنه ولد على فراش أبيه فحكم له به النبي ﷺ قوله: «رأى شبهًا بينًا بعتبة ثم قال ﷺ الولد للفراش» دليل على أن

الشبه وحكم القافة[1] إنما يعتمد إذا لم يكن هناك أقوى منه كالفراش كما لم يحكم ﷺ بالشبه في قصة المتلاعنين مع أنه جاء على الشبه المكروه واحتج به بعض» وفي شرح مسلم قالوا: الحنفية وموافقيهم بهذا الحديث على أن الوطء بالزنا له حكم الوطء بالنكاح في حرمة المصاهرة، وبهذا قال أبو حنيفة والأوزاعي والثوري وأحمد، وقال مالك والشافعي وأبو ثور وغيرهم لا أثر لوطء الزنا بل للزاني أن يتزوج أم المزني بها وبنتها[2] **(مع الكراهة)** بل زاد الشافعي فجوز نكاح البنت المتولدة من مائه بالزنى قالوا ووجه الاحتجاج به أن سودة أمرت بالاحتجاب وهذا احتجاج باطل والعجب ممن ذكره لأن هذا على تقدير كونه من الزنى وهو أجنبي من سودة لا يحل لها الظهور له سواء ألحق بالزاني أم لا فلا تعلق له بالمسألة المذكورة وفي هذا الحديث أن حكم الحاكم لا يحيل الأمر في الباطن فإذا حكم بشهادة شاهدي زور أو نحو ذلك لم يحل المحكوم به للمحكوم له وموضع الدلالة أنه ﷺ حكم به لعبد بن زمعة وأنه أخ له ولسودة واحتمل بسبب الشبه أن يكون من عتبة فلو كان الحكم يحيل الباطن لما أمرها بالاحتجاب والله أعلم».

وقال العراقي في «طرح التثريب في شرح التقريب»: «هذا الابنُ المُتنازعُ فِيهِ اسمُهُ عبدُ الرّحمنِ بنُ زمعة بِفتحِ الزّايِ وإِسكانِ المِيمِ، ورُوِي بِفتحِها أيضًا».

ثم ذكر الخطابي فوائد تتعلق بهذا الحديث قال: «كان أهلُ الجاهِلِيّةِ يفتِنُون الولائِد، ويضرِبُون عليهِنّ الضّرائِب فيكتسِبن بِالفُجُورِ، وكان مِن سِيرتِهِم إلحاقُ النّسبِ بِالزُّناةِ إذا ادّعوا الولد كهُو فِي النِّكاحِ، وكانت لِزمعة أمةٌ كان يُلِمُّ بِها، وكانت لهُ عليها ضرِيبةٌ فظهر بِها حملٌ كان يظُنُّ أنّهُ مِن عُتبة بنِ أبِي وقّاصٍ، وهلك عُتبةُ

---

(١) هو الذي يعرف الشبه ويميز الأثر سمي بذلك لأنه يقفو الأشياء أي يتبعها فكأنه مقلوب من القافي قال الأصمعي هو الذي يقفو الأثر ويقتافه قفوا وقيافة والجمع القافة وقال ابن منظور في لسان العرب من يعرف نسب الإنسان بفراسته ونظره إلى الأعضاء والذي يعرف الآثارَ.

(٢) واعلم أخي القارئ أن ما ذكرناه من المسألة هو نقل لما قاله العلماء من شافعية وحنفية لأنْ لا يُتَسَرَّع فيُنكر ذلك ويُتَهَجَّم عليهم بغير علم .

كافِرًا لم يُسلِم فعهِد إلى سعدٍ أخِيهِ أن يستلحِق الحمل الّذِي بِأمةِ زمعة، وكان لِزمعة ابنٌ يُقالُ لهُ عبدٌ فخاصم سعدٌ عبد بن زمعة فِي الغُلامِ الّذِي ولدتهُ الأمةُ».

وقد ذكر أبو محمد بدر الدين العيني في شرحه على صحيح البخاري المسمى «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»: «التأويل الثاني أنّ زَمعة مات كافرًا فلم ترثه سودة لكونها مسلمة وورثه عبد وقال مالك لا يستلحق إلا الأب خاصة لأنه لا ينزل غيره في تحقيق الإصابة منزلته، ومنها أن الشعبي ومحمد بن أبي ذئب وبعض أهل المدينة احتجوا بقوله «**الولد الفراش**» أن الرجل إذا نفى ولد امرأته لم ينتف به ولم يلاعن به قالوا لأن الفراش يوجب حق الولد في إثبات نسبه من الزوج والمرأة فليس لهما إخراجه منه بلعان ولا غيره وقال جماهير الفقهاء من التابعين ومن بعدهم منهم الأئمة الأربعة وأصحابهم إذا نفى الرجل ولد امرأته يلاعن وينتفى نسبه منه ويلزم أمه، وفيه تفصيل يعرف في الفروع واحتجوا في ذلك بما رواه نافع عن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ فرق بين المتلاعنين وألزم الولد أمه وهذا أخرجه الجماعة .

فائدة: حديث: «**الوَلَدُ للفِرَاشِ وَلِلعَاهِرِ الحَجَرُ**» رُوِي عن جماعة من الصحابية رضي اللَّه تعالى عنهم فعن عائشة رضي اللَّه عنها رواه البخاري ومسلم والنسائي وعن عثمان بن عفان روى عنه الطحاوي أنه قال «أن رسول اللَّه ﷺ قَضَى أنّ الوَلَد للفِراش»، وأخرجه أبو داود في حديث طويل وعن أبي هريرة أخرجه مسلم من حديث ابن المسيب وأبي سلمة عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال «الوَلَد للفِراش وللعَاهِرِ الحَجَرُ» ورواه الترمذي والطحاوي أيضًا وعن أبي أمامة أخرجه ابن ماجه عنه مثله وأخرجه الطحاوي أيضًا وعن عمر بن الخطاب رضي اللَّه تعالى عنه أخرجه الشافعي في مسنده وابن ماجه في سننه من حديث عبيد اللَّه ابن أبي يزيد عن أبيه عن عمر أن رسول اللَّه ﷺ «**قَضَى بالوَلَد بالفِراشِ**» وعن عمرو بن خارجة أخرجه الترمذي من حديث عبد الرحمن بن غنم عنه أنه قال «خطبنا رسول اللَّه ﷺ بمنى» الحديث وفيه

« **أَلَا لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ، الوَلَدُ للفِراشِ وَللعَاهِرِ الحَجَرُ**»[1] وعن عبد اللَّه بن عمرو أخرجه أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال «قام رجل فقال يا رسول اللَّه إن فلانًا ابني عاهرت بأمه في الجاهلية فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا دعوة في الإسلام ذهب أمر الجاهلية الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[2]، وعن البراء وزيد بن أرقمَ أخرجه الطبراني من حديث أبي إسحق عنهما قالا «كنا مع رسول اللَّه ﷺ يوم غدير خم» الحديث وفي آخره: «**الولد لصاحب الفراش وللعاهر الحجر ليس لوارِثٍ وَصِيَّةٌ**»، وعن عبد اللَّه بن الزبير أخرجه النسائي وقد ذكرناه عن قريب وعن عبد اللَّه ابن مسعود أخرجه النسائي أيضًا من حديث أبي وائل عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال «الولد للفراش وللعاهر الحجر».

(١) مسند الشاميين، الطبراني، (١/ ٣٦٠).

(٢) سنن أبي داود، أبو داود، (٣/ ٥٨٦).

حُكم أنكِحة الجاهليّة

قال الحافظ ابن حجر في الفتح ذاكِرًا أَنكِحَة الجاهلية : «قال يحيى بن سليمان: حدثنا ابن وهب، عن يونس، ح وحدثنا أحمد بن صالح، حدثنا عنبسة، حدثنا يونس، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، أن عائشة، زوج النبي ﷺ أخبرته: أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل موليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها[1].

ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك. فلما بُعِث محمد ﷺ بالحَقِّ هَدَم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم» انتهى كلام الحافظ العسقلانيّ.

---

(١) ومنه نكاح النبي لخديجة أم المؤمنين رضي اللَّه تعالى عنها.

صِحّة نِكاح النَّبِيّ مِن خَدِيجة

لِيُعلَم أنّ نكاح النبيّ لخديجة أم المؤمنين رضي اللَّه تعالى عنها هو نكاح صحيح بالاتفاق، وقد جاء في السيرة أن خديجة كانت أفضل نساء قريش في زمانها حسبا ونسبا وجمالًا ومالًا، وقد كان كلّ من قومها حريصا على نكاحها، فأكرمها اللَّه بأكرم الخلق على اللَّه سيدنا وحبيبنا محمدا عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقد زَوَّجها عَمُّها عمرو بن أسد من النبي وقيل زوجها أبوها، وكان عمرها آنذاك أربعين سنة وعمر النبيّ خمسًا وعشرين سنة، وبقيت معه خمسا وعشرين سنة، عشرًا بعد المبعث وخمس عشرة قبله، وكانت له عونًا على الحقّ، وهي أوّل من أسلم على يديه من النّساء بالإجماع فكانت سابقة الإسلام في كل الأنام من بين الرجال والنساء الكرام، كما نص عليه غير واحد. وقال ابن الأثير:» لم يَتَقَدَّمْها بالإسلام رجل ولا امرأة بإجماع المسلمين».

وهي أمّ أولاده كلّهم: القاسم، وعبد اللَّه الطّاهر، ورقيّة، وزينب، وأمّ كلثوم، وفاطمة، إلّا إبراهيم فإنّ أمّه مارية القبطيّة.

انتِماءُ المرء إلى غيرِ أبِيه والعَبدِ إلى غيرِ مَوالِيه حَرامٌ

مِن معاصِي اللِسان التي هي مِن الكبائر أن ينتمِي الرجلُ إلى غيرِ أبيه كأن يقول أنا ابنُ فلان وهو ليس ابنه أو أن ينتمِي المُعتقُ إلى غيرِ موالِيه أي الذين لهُم عليه ولاءُ عتاقةٍ، لأنّ في ذلك تضييع حقّ لأنّ الولاء يثبُت به شرعًا أحكامٌ منها أنّ المعتِق يرِثُ المُعتق إن لم يكن له ورثةٌ، ويكونُ وليّ مُعتقتِه إن لم يكن لها وليٌّ في النِكاح أي أن الأمة التي هي مملوكة أعتقها سيدها فصارت حرة ثم أرادت أن تتزوج إن لم يكن لها مِن أهلها من يُجري لها العقد الذي أعتقها يكون وليّها في النكاح.

روى البخاري من حديث سعدٍ رضي اللَّه عنه قال قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَن ادَّعى**

إلى غيرِ أبيْه وهو يَعلَمُ أنه غيرُ أبيْه فالجَنّةُ حَرامٌ عليه[1]» معناه لا يدخل مع الأولين يدخل بعد أن يعذب مع الآخِرين إن لم يعف اللَّه عنه. وروى أبو داود والترمذي وابنُ ماجَه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**مَن ادَّعى إلى غيرِ أبيه فعَليه لعنَةُ اللَّه**[2]» أي فهو من جملة من يلعنه اللَّه والملائكة والناس أجمعين وإلا هناك نصوص أخر فيها ذكر لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ﴾[سورة البقرة]. قال الإمام البغوي أي عليه لعنة الملائكة قال أبو العالية: هذا يوم القيامة يوقف الكافر فيلعنه اللَّه ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس فإن قيل فقد قال ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ والملعون هو من جملة الناس فكيف يلعن نفسه؟ قيل يلعن نفسه في القيامة قال اللَّه تعالى: ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ [سورة العنكبوت] وقيل إنهم يلعنون الظالمين والكافرين ومن يلعن الظالمين والكافرين وهو منهم فقد لعن نفسه كذلك قوله تعالى، وفي هذه الآية دليل على أن الذي كفر ومات هذا كافر ملعون مخلد في نار جهنم لا يخرج منها أبدا وفي هذه الآية كذلك رد على من قال بفناء الجنة والنار وقد جاء في الحديث كذلك قوله ﷺ في صحيح البخاري قال: حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ حَدَّثَنَا ثَابِتُ بْنُ يَزِيدَ حَدَّثَنَا عَاصِمٌ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَحْوَلُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «المَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ كَذَا إِلَى كَذَا لَا يُقْطَعُ شَجَرُهَا وَلَا يُحْدَثُ فِيهَا حَدَثٌ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[3]».

وقولهُ ﷺ: (**لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا**) معناه كما قال البيضاوي أي لا شفاعة ولا فدية، وقيل: توبة لا فدية.

---

(١) صحيح البخاري، البخاري، (٨/ ١٥٦).

(٢) سنن أبي داود، أبو داود، (٧/ ٤٣٧).

(٣) صحيح البخاري، البخاري، (٩/ ١٠٠).

خاتِمة الخُطْبة

قال رسول اللَّه ﷺ: وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ التَّحِيَّةُ في اللُّغةِ السَّلامُ، قالهُ أَبو عبيدٍ، وقالَ أَبو الهَيُثم: التَّحِيَّةُ فِي كَلامِ العَرَبِ مَا يُحَيّي بِهِ بعضُهم بَعْضًا إِذا تَلاقَوْا وهي تَحِيَّةُ اللَّهِ الَّتِي جَعَلَها فِي الدُّنْيا لمُؤْمِنِي عِبادِه إِذا تَلاقَوْا ودَعا بعضُهم لبعضٍ فأَجْمع الدّعاء أَن يَقُولُوا: السَّلامُ عَلَيْكم ورحْمةُ اللَّهِ وبركَاتُه. وهذه تحية أهل الجنة ختم بها النبي ﷺ خطبته ففي قوله تعالى ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾[سورة يونس] وقوله: وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ [سورة إبراهيم]، ذكرٌ لتحية أهل الجنة وهي السلام عليكم اللَّه يجعلنا من أهلها وفي قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الأحزاب] قوله تَحِيَّتُهُمْ هي من إضافة المصدر إلى المفعول أي تحية اللَّه لهم يوم يرونه هي سلام أي يقول اللَّه تبارك وتعالى السلام عليكم فهؤلاء هم أهل الجنة أهل الجنة أعد اللَّه لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا واعلم أن رحمة اللَّه في الدنيا تشمل المؤمنين والكافرين أما في الآخرة الرحمة على وجهين رحمة عامة ورحمة خاصة الرحمة العامة هي التي قال اللَّه فيها: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[سورة الأعراف] هذه عامة للمؤمنين والكافرين في الدنيا أما الرحمة الخاصة فهي الرحمة في الآخرة، تلك لا نصيب للكافر فيها، الكافر بعد موته لا ينال شيئًا من رحمة اللَّه لا في البرزخ أي القبر، مدة القبر إلى قيام الساعة وما بعد قيام الساعة لا يرحمه اللَّه لا يشرب ماء عذبًا هنيئًا إلى أبد الأبد ولا يأكل شيئًا يستلذ به وينتفع به إلى أبد الأبد ولا يجد نسيمًا يُنعش القلبَ هواؤه، حتى لو وضع في بناء فخم في أرض يخترقها الهواء النقي، لا يتنعم الكافر، اللَّه تعالى يحول بينه وبين التنعم أي التلذذ بمانع يمنعه، أما الرحمة العامة فهي هذه التي يشترك فيها المؤمنون والكافرون، الماء العذب والهواء النقي الذي ينعش الروح، والنشاط في الصحة والسعة في الرزق وغير

ذلك هذه التي عناها اللَّه بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴿١٥٦﴾﴾ أما بعد الموت فلا لأن اللَّه تبارك وتعالى بين لنا في غير هذا الموضع من القرءان هذا المعنى، أي أن الكافر لا يصل إليه شيء من رحمة اللَّه في الآخرة وذلك كقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ فسأكتبها أي في الآخرة للذين يتقون خاصة، ثم أيضًا قال تبارك وتعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة العنكبوت] هنا رد على الكفار الذين يدعون الإسلام، اليوم لهم وجود في الشام وفي لبنان لهم أتباع يقال لهم جماعة أمين شيخو، هذا الرجل توفي منذ نحو عشرين سنة في دمشق كان أولًا ادعى أنه صاحب الطريقة النقشبندية فاتبعه بعض الناس ثم انحرف، أزاغه الشيطان فقال مقالات كفرية من جملتها قوله إن اللَّه لا يعذب أحدًا وجهنم هي طبابة ليست تعذيبًا، جعل جهنم كالحمام يدخله الشخص ليزيل الوسخ عن نفسه حتى يخرج نظيفًا. ويقول العقاب الذي ذكره اللَّه في القرءان ليس معناه التعذيب بل معناه التعقب معناه اللَّه شديد الإطلاع على أحوال الكفار، فإن اللَّه شديد العقاب أي التعقب يحرف اللسان العربي الذي لا يجوز تفسير القرءان بما يخالفه. القرءان أنزل بلسان عربي فلا يجوز تفسير القرءان بما لا توافق عليه اللغة وهذا أمين شيخو أخرجه انحارفه عن اللسان العربي ففسر العقاب بالتعقب هذا لا يوجد في اللغة، العرب لا يقولون العقاب إلا بمعنى التعذيب. ثم أيضًا قال أمين شيخو مقالة أخت هذه المقالة، قال اللَّه شاء السعادة لجميع العباد ويموه على الناس هنا بآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة االذاريات] يقول هذه الآية تدل على أن اللَّه شاء السعادة لجميع الخلق يقول اللَّه ما شاء لعباده للعموم إلا السعادة ما شاء الشقاوة لأحد إنما هم قسم منهم خالفوا مشيئة اللَّه وقسم منهم وافقوا مشيئته، فجعل اللَّه كملك من ملوك البشر الذي رعيته قسم منهم يمشون على رغبته وقسم منهم يمشون على خلاف رغبته وكالأب حيث يطلع بعض الأولاد على ما يوافق رغبة الأب وقسم يطلعون على خلاف رغبة الأب جعل اللَّه مثل الملك من ملوك البشر والعياذ بالله تعالى .

أنهى الرسول عليه الصلاة والسلام دعوته الإسلامية بخطبة الوداع كما في الآية الكريمة: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة]، أي أنَّه بلغ الأمانة، وأدّى رسالته، وأتمَّ دعوته التي استمرت ثلاثة وعشرين عامًا، وقدَّم النصح في الأمور الدينية والدنيوية إلى البشرية جميعها، وما أجمل هذه اللحظات التي جمعت بين الرسول وبين أمته التي استمعت إليه بكل خشوع وتضرع.

أختم بقول سيدنا عمر الفاروق رضي اللَّه عنه رضوان اللَّه عليه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا نفوسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر»﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحاقة].

وفي كلامه حث على محاسبة العبد نفسه وكبح جماحها وكفها عن هواها ليسلم في دنياه وءاخرته فلو سألك سائل ما العمل إذًا ليحسن حالنا ؟ فنصير ممن يراقبون أنفسهم ويحسنون العمل نقول لهم قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[سورة آل عمران]. فبطاعة اللَّه وطاعة حبيبه محمد الذي هو مرسل ليبلغنا الدعوة بكلامه وفعله ومقاله يصل الواحد منا إلى تلك الحال فعليه حين يسمع آية من آيات اللَّه أن يعمل بها ويتعظ بها وكذا لو سمع حديثا يعمل به كحديثه هذا عليه الصلاة والسلام في خطبة وداعه أمرنا أوَّلًا بتوحيده ثم بالتقوى في أموالنا وأعراضنا وسائر جوارحنا وفي أزواجنا وأهلنا وإخواننا فلما تسمع مثل هذا الكلام لابد وأن تطيع اللَّه في هذه الأمور وتحاسب نفسك إن قصرت في شيء من هذه الأمور فكما قال عمر الآن حساب نفسك هين وسهل أما في الآخرة فتحاسب أمام الخلق يوم لا يخفى منك خافية فعلتها سواء في السر أو في العلن، اللَّه سبحانه وتعالى مطلع عليها وهو أعلم بما فعلت، الذرة لا تخفى عليه فكيف بسائر المخلوقات. أدعو اللَّه عز وجل أن يجعل آخر كلامنا في الدنيا لا إله إلا اللَّه وأن يمتعنا على طاعته وأن يجعل خير أيامنا أواخرها وخير أعمالنا خواتمها وأن يجعل ما يصيبنا في سكرات الموت تكفيرًا لذنوبنا ورفعًا لدرجاتنا.

هذا وأستغفر اللَّه تعالى وصلى اللَّه وسلم على حبيبنا وعظيمنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين والحمد لله رب العالمين.

بيان أهمية علم التوحيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد طه الأمين وعلى ءاله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن اتبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ضدَّ ولا ندَّ ولا زوجة ولا ولد له، ولا شبيه ولا مثيل له، ولا جسم ولا حجم ولا جسد ولا جثة له، ولا صورة ولا أعضاء ولا كيفية ولا كمية له، ولا أين ولا جهة ولا حيز ولا مكان له، كان الله ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، تنزه ربي عن الجلوس والقعود، وعن الحركة والسكون، وعن الاتصال والانفصال، لا يحل فيه شيء، ولا ينحل منه شيء، ولا يحل هو في شيء لأنه ليس كمثله شيء، مهما تصورت ببالك فالله لا يشبه ذلك، ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر. وأشهد أنَّ حبيبنا وعظيمنا وقائدنا وقرة أعيننا محمّدًا عبده ورسوله، ونبيه وصفيه وحبيبه وخليله ﷺ وعلى كلِّ رسول أرسله. الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا حبيب الله، الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا عظيم الجاه، ضاقت حيلتنا وأنت وسيلتنا، أدركنا وأغثنا وأنقذنا بإذن الله يا رسول الله، أما بعد عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله في السرّ والعلن، ألا فاتقوه وخافوه، يقول الله عزَّ وجلَّ في القرءان الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ويقول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقال تقدست أسماؤه: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ وقد بوَّب البخاري رحمه الله تعالى وعنوَنَ في صحيحه لهذه الآية فقال: باب العلم قبل العلم والعمل، وفي هذه الآية قدَّم القرءانُ الأصلَ على الفرع ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فالإيمان والتوحيد أصل وأساس وهو الحصن الحصين والركن الركين الذي بدونه لا يقبل العمل الصالح، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الأعمال إيمانٌ بالله ورسوله**»،

وهذه الأفضلية المطلقة، فأفضل الأعمال على الإطلاق الإيمان بالله ورسوله، فهو أفضل من الصلاة والصيام والزكاة والحج، وأفضل من قراءة القرءان والصدقات والذكر، وذلك لأنَّ الإيمان شرطٌ أساسٌ لا بدّ منه لقبول الأعمال الصالحة، وقد قال ربنا في القرءان الكريم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالإيمان أولًا، وفي ءايةٍ أخرى قال ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقال ﷺ: «**أفضل الأعمال إيمانٌ لا شكَّ فيه**»، فإذا دخل عليه الشكُّ أفسده وأبطله، فلا يعود ولا يبقى الإنسان مؤمنًا إن شكَّ في وجود الله تعالى أو في صدق الرسول ﷺ أو في حَقِّيَّة الإسلام، أو شكَّ في تنزيه الله، فهذا لا يكون من المسلمين، لذلك قال ربنا في صفة المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أي لم يشكوا لأنَّ الإيمان إذا دخل عليه الشك أفسده؛ من هنا كان الواجب والفرض اللازم المؤكد الأول الإيمان بالله ورسوله، وهذا منهجٌ نبويٌّ وليس منهجًا مستحدثًا اليوم، وليس فكرةً ابتدعناها من عند أنفسنا وأخرجناها من جيوبنا، إنما هذا هو المنهج الذي جاء به محمد وعلَّمه ﷺ لصحابته وأمته.

وقد ثبتَ في الصحيح أنَّ أهل اليمن جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا له: «يا رسول الله، جئناك لنتفقه في الدين، فأنبئنا عن بدء هذا الأمر ما كان»، فكان سؤالهم عن أول المخلوقات، أي عن أول هذا العالم وجودًا، وهو سؤالٌ مهم، إلا أن رسول الله ﷺ أجابهم عما هو أهم، أجابهم عن الأولى فقال ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء غيره**»، أي في الأزل لم يكن إلا الله، لا سماء ولا أرض ولا هواء ولا ماء ولا عرش ولا فرش، لا خلاء ولا ملاء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾، فعلمهم الرسول ﷺ ذلك وأكده عليهم مع أنهم يعتقدونه لأنهم كانوا من المسلمين ويعرفون التنزيه، مع هذا علَّمَنا المنهج، سألوا عن مهم فأجابهم عن أهم. وقوله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء غيره**» يعني أن الله أزلي، أي أن الله لا مكان له فلا يسكن السماء ولا يجلس على العرش، ليس في جهةٍ واحدةٍ ولا في كل الجهات، فهو تعالى لا يحتاج إلى الأماكن أزلًا وأبدًا، هذا هو المنهج النبوي، وهذا تعليم الرسول ﷺ للأمة. ثم

قال ﷺ: «**وكان عرشه على الماء**»، أي أنَّ الماء هو أول العالم حدوثًا ووجودًا، ثم بعد ذلك خُلِقَ العرشُ.

وانظر أخي القارئ إلى ما قاله حذيفة رضي الله عنه وأرضاه: «إنا قومٌ أوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرءان»، رواه البيهقي في السنن الكبرى وسعيد بن منصور في سننه. وقال سيدنا جندب بن عبد الله رضي الله عنه: «كنا غلمان حزاورة مع رسول الله فيعلمنا الإيمان قبل القرءان ثم يعلمنا القرءان فازددنا به إيمانًا»، رواه البخاري في التاريخ الكبير وابن ماجه في سننه والبيهقي في السنن الكبرى والبوصيري في زوائد ابن ماجه وقال: «إسناده صحيح». هذا هو المنهج النبوي الصحيح.

ورُوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: «كنا نتعلم التوحيد قبل أن نتعلم القرءان، وأنتم الآن تتعلمون القرءان ثم تتعلمون التوحيد»، وقول عبد الله بن عمر رضي الله عنه هذا كان خطابًا للذين كانوا في زمانه، فكيف بكثير من أهل زماننا اليوم الذين أعرضوا عن تعلم علم التوحيد والعقيدة، وهذا هلاك كبير. وفي قوله رضي الله عنه «كنا» يشير إلى نفسه وإلى غيره من الصحابة، وفيه إشارةٌ إلى أن الصواب هو ما كانوا عليه، فهذا تأكيد منه رضي الله عنه على أهمية علم التوحيد.

وانظر رحمك الله إلى ما صنفه التابعي الجليل الإمام العظيم أبو حنيفة النعمان رضي عنه من رسائل في هذا العلم الشريف، فقد ألَّف في علم التوحيد خمس رسائلَ، وقال في كتابه الفقه الأبسط: «الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام»، يعني أن تتعلم أصول العقيدة أفضل من تعلم الأحكام الفرعية. وهذا الإمام أبو حنيفة بلغ درجة الاجتهاد المطلق، ثم إنه كان تلميذ الصحابة، وأخذ العلمَ عن قريب المائة تابعي، فتأمل.

فهذا ما جاء في القرءان وما جاء في الحديث وما ورد عن الصحابة والتابعين. وقد سلك العلماء بعد التابعين مسلك من قبلهم، فانظر إلى ما جاء في كتاب «الفتاوى البزازية» أو الجامع الوجيز في مذهب أبي حنيفة للعلامة محمد بن محمد شهاب

الدين يوسف الكردي البزازي الذي كان من علماء القرن التاسع الهجري، فقد قال رحمه الله: «تعليم صفة الخالق مولانا جلَّ جلاله للناس وبيان خصائص مذهب أهل السنة والجماعة من أهم الأمور، وعلى الذين تصدروا للوعظ أن يلقنوا الناس في مجالسهم وعلى منابرهم ذلك، هذا الأصل في المجالس وعلى المنابر، هذا الأصل». وانظروا إلى ما قاله الفقيه الشافعي أبو حامد الغزالي في كتابه قواعد العقائد بعد أن تكلم عن مبحث الصفات والعقيدة والتنزيه والتوحيد: «اعلم أنَّ ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم للصبي في أول نشأته ليحفظه حفظًا»، والصبي هو من كان دون البلوغ.

فأين الذين ينتقدون أهل الحق ويعترضون عليهم في تكرارهم لأمور العقيدة من هذا الكلام؟ عمَّ الجهل وطمَّ وانتشر الفساد، وصار أهل السنة والجماعة كاليتيم الذي لا كافل له، فتخيل أخي القارئ يتيمًا لا كافلَ له كيف يكون حاله وأمره.

ومن مسائل علم العقيدة معرفة صفات الله تعالى الواجبة له إجماعًا وهي الصفات الثلاث عشرة التي لطالما تكرَّر ذكرها في مصنفات العلماء، ولما تكرَّر ذكرها في القرءان والحديث ونصوص العلماء قال العلماء: «يجب معرفتها وجوبًا عينيًّا» على كل مكلف، والوجوب في هذه المسألة هو معرفة معناها لا أن تُحفظ عين الألفاظ، وهذا سهل – أي اعتقاد المعنى – فهذا فرضٌ على كل مكلفٍ، وممن ذكر ذلك أبو حنيفة الذي هو من أئمة السلف وممن بعده السنوسي، وكذلك محمد الفضالي الشافعي وعبد المجيد الشرنوبي المالكي، وكذلك جمال الدين الخوارزمي، ومحيي الدين النووي في كتابه المقاصد، ومفتي لبنان الأسبق الشيخ عبد الباسط بن علي الفاخوري في كتابه الكفاية لذوي العناية وغيرهم من العلماء.

وصفات الله الثلاث عشرة الواجبة له إجماعًا هي:

الوجود: فالله تعالى يستحيل عليه تعالى العدم، موجودٌ أزلًا وأبدًا بلا جهة ولا مكان،﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، أي لا شكَّ في وجوده سبحانه، ووجوده تعالى أزلي أبدي

ليس كوجودنا الحادث، فوجودنا بإيجاد الله لنا.

الوحدانية، أي أنَّ الله تعالى واحدٌ لا شريك له، فهو تعالى واحدٌ في ذاته وصفاته وفعله؛ قال عزَّ من قائل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾.

القيام بالنفس: أي أنه تعالى مستغنٍ عن كلِّ ماسواه، وكلُّ ما سواه محتاج إليه، فالعالم بما فيه لا يستغني عن الله طرفة عين، قال عزَّ وجلَّ ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾.

القِدَم: بكسر القاف وفتح الدال، أي الأزلية، أي أنَّ الله تعالى لا ابتداء لوجوده، فيستحيل عليه تعالى الحدوث؛ قال تعالى ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ ﴾.

البقاء: أي أنَّ الله تعالى لا نهاية لوجوده، لا يفنى ولا يبيد ولا يهلك ولا يزول فيستحيل عليه الفناء، قال جلَّ جلاله ﴿وَٱلْآخِرُ ﴾.

القدرة: وهي صفة أزليةٌ أبدية يؤثر الله بها في الممكنات، فيستحيل عليه تعالى العجز، قال تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.

الإرادة: أي المشيئة، وهي تخصيص الممكن العقلي ببعض ما يجوز عليه دون بعض وبصفةٍ دون أخرى، فيستحيل حصول شيء خلاف مشيئته تعالى، قال الله عزَّ وجلَّ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

السمع: فالله تعالى يسمع كلَّ المسموعات بدون أذن ولا ءالةٍ أخرى، فيستحيل عليه تعالى الصمم، قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾.

البصر: فالله تعالى يرى جميع المرئيات بدون حدقةٍ ولا ءالةٍ أخرى، فيستحيل عليه تعالى العمى، قال تعالى ﴿ٱلْبَصِيرُ ﴾.

الكلام: أي أنَّ الله متكلم بكلام ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً، وما نجده في القرءان من ألفاظٍ عربيةٍ إنما هو عبارةٌ عن كلام الله الذاتي الأزلي وليس عين الصفة القائمة بذاته الكريم، قال تعالى ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾.

الحياة: فالله تعالى حيٌّ يستحيل عليه تعالى الموت، وحياته ليست بروح ودم

وعصب، قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾

العلم: أي أنَّ الله تعالى عالمٌ بكل شيء، فهو تعالى يعلم الممكن ممكنًا والمستحيل مستحيلًا والواجب واجبًا، فيستحيل عليه تعالى الجهل، قال عزَّ من قائل﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾. وعلمه تعالى أزليٌّ أبدي لا يزيد ولا ينقص ولا يتجدد.

المخالفة للحوادث: أي أنَّ الله تعالى لا يشبه شيئًا من كلِّ مخلوقاته بالمرة ولا بأي وجهٍ من الوجوه، ولا بأيِّ صفةٍ من الصفات، يقول الله تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر».

هذه عقيدة كل المسلمين، عقيدة جميع الأنبياء والرسل، عقيدة الصحابة، وعقيدة السلف والخلف، فمن شكَّ أو توقَّف أو أنكر صفةً من صفات الله فهو كافرٌ بالله تعالى كما ذكر ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال سيدنا عليٌّ رضي الله عنه: «من زعم أنَّ إلهنا محدود فقد جهل الخالق المعبود»، ومن جهل الله كان كافرًا به. وقد قال سيدنا علي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري: «الجهل بالله كفر به»، فالذي ينسب لله الحدَّ صغيرًا كان أم كبيرًا أو ينسب لله الكمية أو الجسم أو الشكل أو الصورة أو الهيئة ليس مسلمًا. وقد نقل الإمام عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي أبو منصور في كتابه تفسير الأسماء والصفات الإجماع على كفر المجسمة وعلى كفر القدرية الذين يكذبون بالقدر.

وبعد كلِّ ما نقلناه من ءاياتٍ قرءانية وأحاديث نبويةٍ وأقوالٍ للعلماء كيف يسعنا السكوت عن تعليم الناس أمور دينهم أو أن نقصِّر في نشر علم التوحيد والتنزيه الذي هو الأصل والأساس.

وأختم بما قاله الرازي في كتابه مناقب الشافعي، قال رحمه الله: «من أنكر وذمَّ وأبغض علم الكلام – يعني أصول العقيدة – فهو كافر»، وهذا نصٌّ صريحٌ من الإمام الرازي في تكفيره، بل وزاد قائلًا: «كافر لا يعرفُ اللهَ ولا يعرف الرسولَ

ولا اليوم الآخر، وهو على دين ءازر» أي مشرك بالله، فهاك ما قاله الرازي فيمن يذم علم التوحيد علم العقيدة والتنزيه، فلا تلتفتوا إلى الغوغاء الأراجيف الذين يهولون الأمر ويقولون: «لا تتكلموا في التوحيد، لا تتكلموا في العقيدة، العلماء ذموا علم الكلام»، قولوا لهم: كذبتم، العلماء ذموا المعتزلة والمجسمة والقدرية والمرجئة وأهل الأهواء، أما علم التوحيد فقد قال فيه الشافعي: «أحكمنا ذلك قبل هذا»، أي أتقن علم التوحيد قبل علم الفقه والفروع. هذا الشافعي وهذا أبو حنيفة وهذا حذيفة وهذا جندب وهذا عبد الله بن عمر وهذه الأحاديث وهذا الإجماع الذي نقله العلماء على أهمية تعلم علمِ العقيدةِ علمِ الكلام الذي اشتغل به علماء أهل السنة والجماعة، فماذا يريد المعارضون بعد ذلك؟

تمكنوا في علم التوحيد، تمكنوا في علم العقيدة، فإنَّ من لم يعرف التنزيه والتوحيد لم يعرف الله، ومن لم يعرف الله ليس من المسلمين، ومن لم يكن مسلمًا لا تصحُّ منه صلاة ولا صيام ولا حج، ومن مات على غير الإسلام فإنه يخلد في النار، اللهم إنّا نسألك العفو والعافية في الدّين والدّنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على أشرف المرسلين سيدنا محمدٍ ومن اتّبعه بإحسان إلى يوم الدّين.

القَلائد

فِيمَا أُجمِعَ علَيهِ مِن العَقائِد

شَرْح وَتَحْقيق وَتَعْليق

الشيخ جميل محمّد عَلي حليم الأشْعَريّ الشّافعيّ الحسيني

دكتور محاضر في العقائد والفِرَق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الَّذِي بَعَثَ سَيِّدَنا مُحمّدًا بالمَحَجّةِ البَيضاءِ، وَجَعَلَ سَبِيلَ أُمَّتِه السَّبِيلَ السَّواءَ، وأَشهَدُ أن لّا إله إلّا اللهُ شَهادةً أَنجُو بِها يَومَ القِيامةِ مِن الرَّمْضاء، وأَشهَدُ أنّ سيّدَنا مُحمَّدًا سيّدُ الرُّسل والأنبياءِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّم وزِدْ وبارِك وأَنعِمْ وأَكرِمْ علَيه وعلَى ءالِه وأَصحابِه ما عادَتِ الشَّمسُ علَى الدُّنيا بالنُّور والضِّياءِ.

أمّا بَعدُ، فإنَّ أقوامًا مِن المَخذُولينَ قد تَنطَّعُوا في أيّامِنا بِدَعوَى تَعمِيم الاجتِهادِ وأنّهُم قد استَوَوا معَ الأَئِمّة الفُحولِ الأَعلامِ بِدَعوَى أنهّم رِجالٌ وأولئكَ رِجالٌ، وهَيهاتَ هَيهاتَ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثُمّ زادُوا في غَيّهِم يَعمَهُون حتَّى أنكَرُوا حُجّيةَ الإجماعِ؛ فأرَدتُّ أنْ أجمَعَ أصُولًا أَجمَعَ علَيها عُلَماءُ المُسلمِينَ فِي العَقِيدة، وقدَّمتُ لذَلِكَ مُقدّمةً فِي مَعنَى الإجماعِ وانعِقادِه، راجِيًا مِن اللهِ تَعالَى أنْ يَنفَع بِها طالِبِي الحَقّ، وَهو حَسْبِي ونِعمَ الوَكِيلُ.

معنَى الإجماعِ وحُجّيَّتُه وبَيانُ كَيفيّةِ انعقادِه

اعلم أنّ الإجماع لغةً يطلق بمعنيين: أحدُهما العَزمُ علَى الشّيء، والثّاني الاتّفاقُ، وأمّا اصطِلاحًا فاتّفاق أهلِ الحَلّ والعَقدِ - وهم مُجتَهِدُو أمّةِ محمّدٍ ﷺ - في عَصرٍ مِن العُصورِ على أمرٍ دِينيّ.

ودليلُ حُجّيّةِ الإجماعِ قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[1]؛ ووَجهُ الحُجّة أنّه تَعالَى جَمَعَ بَينَ مُشاقّةِ الرَّسولِ ﷺ واتّباعِ غَيرِ سَبِيلِ المُؤمنِين في الوَعِيد في قَولِه ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ فيَلزَم تَحرِيمُ اتّباعِ غَيرِ سَبِيل المؤمنِين لأنّه لَو لَم يَكُن حَرامًا لَما جَمَعَ بَينَه وبينَ المُحرَّم الّذي هو مُشاقّةُ الرَّسولِ ﷺ، لأنّ الجَمعَ بَينَ حَرامٍ ونَقِيضِه لا يَحسُن في وَعِيدٍ، فدَلّ ذلكَ علَى أنّ اتّباعَ غَيرِ سَبِيلِهم حَرامٌ، وإذا حَرُم اتّباعُ غَيرِ سَبِيلِهم كان اتّباعُ سَبِيلِهم واجِبًا، إذْ لا واسِطةَ بَين السَّبِيلَين، وإنْ ثَبَتَ وُجوبُ اتّباعِ سَبِيلِهم ثَبَتَتْ حُجّيّةُ الإجماعِ.

فإذا اتَّفَق المُجتهِدُون في عَصرٍ على شيءٍ فهو إِجماعٌ وحُجّةٌ، فلا يَصِحُّ أنْ يأتِيَ بَعدَهم مَن يَنقُض ما اتَّفَق عليه السّابِقُون.

وقد ادَّعَى بعضُ المَلاحِدة أنّ هذا الدِّين كَثِيرُ الاختِلاف لا يَصلُح اتّباعُه ولا يُعرَف الصّوابُ مِنه، فرَدَّ علَيهِم الفُحُول مِن العُلماءِ كأبي إسحاق الإسفراييني فقال: «نحنُ نَعلَم أنّ مسائِلَ الإجماعِ أكثَرُ مِن عِشرِين ألفَ مَسألةٍ، وبهذا يُرَدّ قولُ المُلحِدة: إنّ هذا الدِّينَ كَثِيرُ الاختِلافِ إذْ لَو كان حقًّا لما اختَلَفُوا فيه. فنَقُول: أخطَأتَ، بل مَسائِلُ الإجماعِ أكثَرُ مِن عِشرِينَ ألفَ مَسألةٍ، ثُمّ لَها مِن الفُروعِ الّتي يَقَعُ الاتّفاقُ مِنها وعلَيها وهي صادِرةٌ عن مَسائِل الإجماعِ الّتي هي أصُولُ أكثَر مِن مائةِ ألفِ مَسألةٍ»، ذكَره في «شَرح التّرتيب» نقلَه عنه الزّركَشيُّ[2].

---

(١) سورة النِّساء، (١١٥).

(٢) البحر المُحِيط في أصول الفقه، بدر الدّين الزَّركَشّي، (٦/ ٣٨٤).

اعلَم أَنّ أَهلَ السّنّةِ والجماعة قد أَجمعُوا على أنّ الحقائِقَ ثابِتةٌ والعِلمُ بِها مُتحقّق[١].

وأَنَّ أسبابَ العِلم هِي الحواسّ الظّاهِرة السّلِيمةُ والخَبرُ الصّادِقُ والعَقلُ[٢].

وأَنّ العالمَ عُلوِيَّه وسُفلِيَّه مُحْدَث بِجنسِه وأفرادِه وجواهرِه وأعراضِه[٣].

وأَنّ اللهَ خالقُ العالَم لا يُماثِله ولا يُشابِهه شَيء في ذاتهِ ولا في صِفاتِه ولا أفعالِه[٤]، فليسَ سُبحانَه وتعالَى بِجسمٍ ولا عَرَضٍ[٥]، بل هو واحدٌ لا شرِيك له[٦]، قَديمٌ لا بِدايَة له، باقٍ لا نِهايَةَ له[٧]، مُرِيدٌ لا ءامِر له، شاءٍ لا يَكون إلاَّ ما يُرِيد[٨]، قادِرٌ لا شَيءَ يُعجِزهُ[٩]، عالمُ الغَيبِ والشَّهادَة[١٠]، سَميعٌ بَسمعٍ من غَير أُذُن[١١]، بَصِيرٌ بِبصَرٍ من

(١) المِنَن الكبرى (لَطائف المِنَن والأخلاق)، عبد الوهّاب الشّعرانّي، (ص/ ٦٥٢).

(٢) حاشية على شرح العقائد النسَفيّة، عصام الإسفراييني، (ص/ ٤٦).

(٣) الفَرق بين الفِرَق، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٣١٥).

(٤) إتحاف السّادة المتَّقِين، محمد مرتضى الزَّبيديّ، (٢/ ٣٥).

(٥) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤١).

(٦) الأنوار القُدسيّة، عبد الوهّاب الشّعرانّي، (ص/ ١٣).

(٧) أصول الدِّين، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٩١).

(٨) الإنصاف فيما يجب اعتِقادُه ولا يجوز الجَهلُ به، أبو بكر الباقلاّني، (ص/ ١٣).

(٩) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٣٥).

(١٠) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٣٥). الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٣٥).

(١١) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٣٥).

غيرِ حَدَقَة[1]، مُتكلِّمٌ بِكلامٍ واحدٍ ليس بِحرفٍ ولا صَوتٍ ولا لُغَةٍ[2]، حَيٌّ قيُّومٌ أَحدٌ صَمدٌ، لَمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ، لا تُدرِكُهُ الأوهامُ والأَفهامُ[3]، مَهْما تَصوَّرْتَ بِبالِكَ فاللهُ لا يُشبِهُ ذلِكَ، وأَنّ صفاتِه الذّاتِيّةَ أَزليّة أَبَدِيّة وليسَتْ عَين الذّاتِ ولا غيرَه[4].

وأَنَّ اللهَ تعالَى كانَ قبلَ كُلِّ شيءٍ[5]، وهو مُستَغنٍ عمّا سِواهُ، فلا تَحوِيهِ الجِهاتُ ولا تَكتَنفُه الأرضُونَ والسَّماواتُ[6]، وأَنَّه استوَى كما أَخبَرَ لا كما يَخطُرُ للبَشَر.

وأَنَّ اللهَ خالِقُ الجَواهِرِ والأجسامِ والأَعمالِ والحرَكاتِ والسَّكَناتِ والخَواطِرِ والنِّيّاتِ والخيرِ والشَّرِّ والقَبِيح والحسَن[7].

وأَنَّ للعبدِ مَشِيئةً هي تابِعةٌ لمشِيئةِ اللهِ، فمَن أَنكَرَها أو جعلَها بِخَلقِ العَبدِ فقد كفَرَ[8].

والاستِطاعةُ نَوعان:

استِطاعَةٌ سابِقَةٌ على الفِعل وهِي سَلامةُ الأسبابِ والآلاتِ وبِها يكُونُ صِحَّة التَّكلِيف.

واستِطاعةٌ تُقارِنهُ وهي حقيقةُ القُدرةِ الَّتِي يَكونُ بِها الفِعلُ.

---

(١) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٣٥).

(٢) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤٠).

(٣) المصدر نفسه، (ص/ ٣٥).

(٤) المصدر نفسه، (ص/ ٣٧).

(٥) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٦).

(٦) الفَرق بيَن الفِرَق، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٣٢١). الإرشاد إلى قواطِع الأدِلّة، أبو المَعالي الجُوَينيّ، (ص/ ٢١). التفسير الكبير، فخر الدّين الرازيّ، (٢٩/ ٤٤٩).

(٧) إتحاف السّادة المتَّقِين، محمد مرتضى الزَّبِيديّ، (٢/ ٤٤٨).

(٨) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤٤).

وَأجمَعُوا أَنَّ اللهَ تعالى يُثِيبُ فَضلًا وَيُعاقِبُ عدلًا وَيرزُقُ كرَمًا[1]، ويُضِلُّ مَن يَشاء وَيهدِي مَن يَشاء.

وأنَّ تَعذِيبَهُ المُطِيعَ وإِيلامَه الدَّواب وَتَوجِيعَهُ الأَطفال ليسَ مِنه بِظلمٍ[2] بِلِ اتِّصافُهُ بالظُّلم مُحالٌ[3].

وَأَنَّ القُرءانَ كلامُ اللهِ عزّ وجلّ لا يُشبِهُ كلامَ المَخلُوقِينَ، وأَنَّ اللَّفظَ المُنَزَّل الَّذِي نَزَلَ بِه جِبرِيلُ علَى سيّدِ الأَنبياءِ والمُرسَلِين لَيسَ عَينَ الكَلام الذّاتِيّ بل هو عِبارةٌ عنهُ[4]، وَكُلٌّ يُسمَّى قُرءانًا.

وَنُؤمِنُ بِمُحكَمِ الكِتابِ وَمُتَشابِهِه وَنَقُول كُلٌّ مِن عِندِ اللهِ – والمُحْكَماتُ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ – وَنُنَزِّهُهُ عزّ وجلّ عَمّا تَقتَضِيهِ ظَواهِر المُتشابِهات مِن كُلّ وَصفٍ لا يَلِيقُ بِجَلالِه.

وَأَنَّ الرِّزقَ ما يَنفعُ وَلَو مُحَرَّمًا، والشَّيءُ هُو المَوجُودُ وَلَو قَدِيمًا.

وَأَنَّ الأَجلَ واحِدٌ والمَيِّتُ مَقتُولٌ بِأَجَلِهِ[5].

وَأَنَّ الرُّوحَ مَخلُوقَةٌ حادِثَةٌ[6].

وَأَنَّ اللهَ بَعَث الأَنبِياء مُبَشِّرِينَ وَمنُذرِينَ، فَضَّلَهم على سائِرِ العالَمِينَ، أَوَّلُهُم

---

(١) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٦٢). أبكار الأفكار في أصول الدّين، سيف الدّين الآمديّ، (٢/ ٢٢٤).

(٢) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٧).

(٣) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٥١).

(٤) المصدر نفسه، (ص/ ٣٩). المِلَل والنِّحَل، أبو الفتح الشّهرستانّي، (١/ ٨٩). نهاية العُقول في دراية الأصول، فخر الدّين الرازيّ، (٢/ ٣١٥).

(٥) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٥٧).

(٦) البحر المحيط في التفسير، أبو حيّان الأندلسّي، (٧/ ١٠٦).

ءادَم، وءاخِرُهم وأَفضَلُهُم مُحمَّد صلوات ربّي وسلامه عليهم أَجمَعين[1]، أَيَّدَهُم بالمُعجِزاتِ الدّالَّةِ على صِدقِهِم، وَأَنزَلَ على بَعضِهم كُتُبًا.

وَأَنَّهُ يجِبُ لِكُلٍّ مِنهُم الصِّدق والأَمانَة والفَطانَة والعِفَّة والتَّبلِيغ[2]، وَيستَحِيلُ عليهم كُلُّ ما يُنَفِّرُ عن قَبولِ دَعوَتِهم، وَيَجُوزُ فِي حَقِّهِم الأَعراضَ الَّتي لا تَقدَحُ في مَراتِبِهم[3].

وَأَنَّ عذابَ القَبرِ ونعِيمَه وسُؤالَ المَلَكَينِ والقِيامةَ والبَعثَ والحَشرَ والحِسابَ والمِيزانَ والصِّراطَ والحَوضَ والشَّفاعَة حَقٌّ[4].

وَأَنَّ الجَنَّةَ والنّارَ مَخلُوقتانِ لا تَفنَيانِ ولا تَبِيدانِ، وأَنَّ العَذابَ والنَّعِيمَ في القَبرِ وَيوم القِيامَة وفِي الجَنَّة والنّارِ بالرُّوحِ والجَسَدِ[5].

وَأَنَّ المُؤمِنِينِ يَرَونَ اللهَ يَومَ القِيامَةِ بلا كَيفٍ ولا مَكانٍ ولا جِهةٍ لا كَما يُرَى المَخلُوق[6].

وأَنَّ المَلائِكَةَ عبادٌ للهِ مُكرَمُونَ، ليسُوا ذُكُورًا ولا إِناثًا[7]، لا يأكُلون ولا يَشرَبونَ ولا

---

(١) أصول الدِّين، أبو منصور البغدادي، (ص/ ١٧٧).

(٢) المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عَطِيّة الأندلسّي، (١/ ٢١١).

(٣) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٦٩-٧٠).

(٤) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٠-٥٣).

(٥) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٢). أصول الدِّين، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٢٦٣).

(٦) المنهاج في شرح صحيح مُسلِم بن الحَجّاج، محيي الدّين النوويّ، (٣/ ١٥). التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٤٢).

(٧) قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ [سُورة الزُّخرُف: ١٩].

يَنامُونَ ولا يَتناكحُونَ ولا يَتعبُونَ[1]، لا يَعصُون اللهَ ما أمَرَهُم ويَفعلونَ ما يُؤمَرُون[2].

وأنّ الجِنَّ موجُودُونَ[3]، أَبُوهُم الأوّل إبلِيسُ، وهم مُكلَّفُونَ مُتَعَبَّدُونَ فمِنهُم الصّالِحُ ومِنهُم الطّالِحُ.

وأنَّ شَرِيعَة سَيّدنا محمّدٍ ﷺ قد نَسَخَتْ ما خالَفها مِن الشَّرائِعِ أَجمَعِين[4].

وأنَّ كَراماتِ الأولياءِ حَقٌّ[5].

وأنَّ التَّوسُّلَ إلى اللهِ بالذَّواتِ الفاضِلَةِ والأعمالِ الصّالِحَةِ والتَّبَرُّكَ بآثارِ الأنبياءِ والصّالحِينَ حَسَنٌ[6].

وأنَّ شَدَّ الرِّحالِ بِقصدِ زيارةِ قَبرِ النَّبِيّ ﷺ وغيرِه مِن الأولياءِ والصّالحِينَ قُربَةٌ إلى اللهِ[7].

وأنَّ الأمواتَ يَنتَفِعُونَ بِدُعاءِ الأحياءِ لهُم وتَصدُّقِهم عنهم وقراءتِهم القُرءان عندَهم[8].

وأنَّ التَّحذِيرَ مِن أهلِ البِدَعِ واجِب[9].

---

(١) قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [سُورة الأنبياء: ٢٠].

(٢) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [سُورة التَّحرِيم: ٦].

(٣) أبكار الأفكار في أصول الدّين، سيف الدّين الآمديّ، (٤/ ٣١).

(٤) رَوضة النّاظِر، ابن قُدامة المقدِسّي، (١/ ٢٢٩).

(٥) التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف، أبو بكر الكلاباذي، (ص/ ٧١). الفَرق بيَن الفِرَق، أبو منصور البغدادي، (ص/ ٣١٠).

(٦) شِفا السَّقام في زيارة خير الأنام ﷺ، تقيّ الدّين السُّبكيّ، (ص/ ١٢١).

(٧) المصدر السّابق.

(٨) الإمتاع بالأربعين المُتباينة السَّماع، ابن حجَر العسقلانّي، (ص/ ٧٩).

(٩) قال الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾=

وَأنّا لا نُكَفِّرُ أَحدًا مِن أَهلِ القِبلةِ بِذَنبٍ ما لَم يَستَحِلَّه.

وأنَّ المَعصِيَةَ وَلَو كَبِيرةً لا تُخرِج مُرتَكِبَها مِن الإيمان[1].

وَأَنَّ اللهَ لا يَغفِرُ الكُفرَ لِمَن ماتَ عَلَيهِ وَيغفِرُ ما دُونَ ذَلكَ لِمَن يَشاء[2].

وَأَنَّه قَد أُسرِي بِالنَّبِي ﷺ وعُرِجَ بِشَخصِهِ فِي اليَقَظَةِ إِلَى حيثُ شاءَ اللهُ مِن العُلَى[3].

وأَنَّ المِيثاقَ الّذِي أَخذه اللهُ تعالى مِن ءادَم وَذُرِّيَّته حَقٌّ[4].

وأَنَّ ظُهُورَ المَهدِيّ وَخُرُوجَ المَسِيحِ وَيأَجُوجَ وَمَأجُوجَ وَنُزُولَ عِيسَى ابن مَريمَ عليه السلام وطلوعَ الشَّمسِ مِن مغربِها وسائرَ ما أخبَر بِه النَّبِيّ عليه الصلاة والسلام مِن الغَيبِيّات كُلّ ذلك حقٌّ.

وأَنّ خَيرَ القُرُونِ قَرْن رَسولِ الله ﷺ وأصحابِه ثمّ الّذين يلُونَهم ثمّ الّذين يلُونَهم[5]، وأَنَّ أَفضلَ الصَّحابَةِ والخُلَفاء الرّاشِدُونَ المَهدِيُّونَ[6]، وأَنّا نَعتَرفُ بِفضلِ أَهلِ بَيتِ رَسولِ اللهِ وأَزواجِه أُمَّهات المؤمِنِينَ.

وأَنَّه يَجبُ علَى النّاسِ نَصبُ إِمامٍ[7] وَلَو مَفضُولاً، وأنّ طاعَةَ الإِمامِ العادِلِ

= [سُورة ءال عِمران: ١٠٤].

(١) شرح رسالة القَيَروانّي، ابن ناجِي التَّنُوخيّ، (ص/ ٥٦).

(٢) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سُورة النِّساء: ٤٨].

(٣) التبصير في الدّين، أبو المظفَّر الإسفراييني، (ص/ ١٧٧).

(٤) قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآ﴾ [سُورة الأعراف: ١٧٢].

(٥) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٥٨).

(٦) المصدر السابق، (١/ ٥٩).

(٧) المنهاج في شرح صحيح مُسلِم بن الحَجّاج، محيي الدّين النوويّ، (١٢/ ٢٠٥).

واجِبةٌ[1].

وأَنَّ إِمامَةَ أَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ وَعُثمانَ وَعَلِيٍّ كانَت حَقَّة[2] وأنّ عليًّا أَصابَ في قِتالِ أَصحابِ الجَمَلِ وأَهل صفِّين وأَهل النَّهرَوان[3]، وأَنَّ عائِشَةَ مُبَرَّأَةٌ مِنَ الزِّنا.

وأَنَّ أَبا الحَسَنِ الأَشعَرِيَّ وأَبا مَنصُورٍ الماتُرِيدِيَّ كُلّ مِنهُما إِمام لأَهلِ السّنّةِ مُقدَّم.

وأَنَّ طَرِيقَ الإِمامِ الجُنَيدِ البَغْدادِيِّ طَرِيق قَوِيمٌ، وَأَنَّ الشّافِعِيَّ وَأَبا حَنِيفَةَ وَصاحِبَيهِ وَمالِكًا وأَحمدَ وَسُفيانَ وَسائِرَ أَئِمَّةِ الإِسلامِ أَئِمَّة هُدَى واختِلافهم رَحمَة بالأَنامِ.

وأَنَّ الصَّلاةَ تَجُوزُ خَلفَ علَى كلّ بَرٍّ وفاجِرٍ مِن المُسلِمِينَ.

وَأَنَّ المَسحَ عَلَى الخُفَّينِ جائِزٌ فِي الحَضَرِ والسَّفَرِ.

وأَنَّ الحَجَّ والجِهادَ فَرْضانِ ماضِيانِ مَع أُولِي الأَمرِ مِن أَئِمَّةِ المُسلِمِينَ إِلى قِيامِ السّاعَةِ.

والحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين، وصلَّى اللهُ علَى سيّدِنا محمّدٍ وعلَى ءالِه الطّاهرِين وصَحابَتِه الطَيّبِين، وسَلامُ اللهِ علَيهِم أجمَعِين.

(١) الإقناع في مسائل الإجماع، أبو الحسَن القَطّان، (١/ ٦٠).

(٢) التبصير في الدّين، أبو المظفَّر الإسفراييني، (ص/ ١٧٨).

(٣) نقلَه عبد القاهِر الجُرجانّي في كتابِه «الإمامة» وعنه القُرطبي. التّذكِرة بأحوال الموتَى وأمور الآخرة، شمس الدّين القُرطبيّ، (ص/ ١٠٨٩).

الفهرس

- المقدمة ٣
- التوطئة الميزان في بيان عقيدة أهل الإيمان ٤
- نُبْذَة تعريفِيَّة بالشّيخ الدُّكتور جَمِيل حَلِيم ٨
- دِيبَاجة في مَعنَى الإِبدَاعِ ١١
- المقدِّمة ١٢
- ذِكرُ بَعضِ خُطَبِه ﷺ ١٥
- الخطبة الأولى ١٥
- الخطبة الثانية ١٥
- الخطبة الثالثة ١٦
- الخطبة الرابعة ١٧
- الخطبة الخامسة ٢٠
- الخطبة السادسة ٢١
- الخطبة السابعة ٢١
- الخطبة الثامنة ٢٢
- وَصْفُ حَجَّةِ النَّبِي ﷺ ٢٢
- مُلَخَّصُ خُطبة حَجَّة الوَدَاعِ ٣٢
- أسانيد الشيخ جميل حليم الحسيني حفظه اللَّه في حديث «خُطبة الوَداعِ» ٤٤
- مَتنُ خُطبَةِ الوَداعِ ٤٦
- العقيدة الإسلامية معنَى الحَمد ٤٨
- معنَى الاستِعانة ٥٠
- معنَى الاستِغفار ٥٢
- قاعدة في عِصْمة الأنبياء ٥٢

- الدُّعاء للمؤمِنين والمؤمِنات بمغفرة الذُّنوب ٥٧
- معنَى التَّوبةِ ٥٨
- بيانُ شُروط التَّوبة وأقسامِها ٥٩
- معنَى الاستِعاذةِ ٦١
- العمَلُ الحسَنُ والعمَل السيِّئُ ٦٢
- الهِدايةُ والضَّلالةُ ٦٤
- معنَى الشَّهادةِ الأُولَى ٧١
- معنَى العِبادةِ ٧٣
- صِفةُ الوَحدانيّةِ للهِ ٧٤
- ذِكرُ دِلالةِ التَّمانُعِ ٧٥
- معنَى الشَّهادةِ الثّانيةِ ٧٧
- الوَصِيّة بالتَّقوَى ٧٩
- عِدَّةُ مَن حَضَر حَجَّة الوَداعِ مِن الصَّحابةِ ٧٩
- تَقوَى اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ ٨٠
- الحَثُّ على العمَلِ بالطّاعةِ ٨١
- مِن أسبابِ الإقبالِ علَى الطَّاعاتِ ٨٢
- افتِتاحُ خِطابِ التَّودِيعِ ٨٦
- دُنُوُّ أجَلِ النَبِيّ ﷺ ٨٦
- حِفْظُ الدِّماءِ والأَموالِ والأَعراضِ ٨٩
- اليَوم الحَرامُ والشَّهرُ الحَرامُ والبَلَدُ الحَرامُ ٨٩
- حِفظُ الأنفُسِ ٩٠
- حِفظُ الأَموالِ ٩٢
- حِفظُ الأَعراضِ ٩٣
- معنَى لِقاءِ العَبدِ رَبَّهُ ٩٦

- تَشبِيهُ حُرمةِ الأنفُسِ والأَعراضِ والأَموالِ بحُرمة اليَوم والشَّهرِ والبلَد الحَرامِ..... ٩٧
- جِماعُ الكُلِّيّاتِ الخَمْسِ..... ٩٨
- النَّبيُّ لا يُقَصِّر في تَبليغِ الشَّريعةِ..... ١٠٠
- وُجوبُ تأدِيةِ الأماناتِ إلى أهلِها..... ١٠٢
- إبطالُ الجاهِليّةِ وحُكم ما فُعِل فيها..... ١٠٣
- معنَى الدِّين والدِّيانةِ..... ١٠٣
- كَيفيّة وَضْع دِماءِ الجاهليّةِ..... ١٠٤
- وَضْعُ دَمِ ابنِ رَبِيعةَ بنِ الحارِثِ بنِ عَبدِ المطَّلِب..... ١٠٤
- وَضْعُ رِبا العَبّاسِ بنِ عَبدِ المطَّلِب..... ١٠٦
- إقرارُ السَّدانِة والسِّقاية..... ١١٠
- التحذيرُ مِن مَكائِد الشَّيطان..... ١١٢
- ثُبوت حُرمة الشُّهور الحرامِ..... ١١٦
- النَّسِيءُ مِن أعمالِ الجاهِليّة..... ١١٦
- تَقسِيمُ أنواعِ الكُفر..... ١١٨
- تلاعُب أهل الجاهليّة بالأشهُر..... ١١٨
- تعريفُ الزَّمانِ ومعنَى استدارَتِه..... ١١٩
- عِدَّةُ الشُّهور اثْنَا عشَر شَهْرًا..... ١٢٠
- حقُّ الزَّوج والزَّوجةِ وصيانةُ المرأة المُسلِمة والحِرص على كَرامتها..... ١٢٢
- مِن حَقِّ الزَّوجةِ على الزَّوجِ..... ١٢٣
- مِن حَقِّ الزَّوجِ على الزَّوجَةِ..... ١٢٣
- نُشوزُ الزَّوجةِ إثمٌ كَبِيرٌ..... ١٢٤
- حَقُّ الزَّوجةِ في النَّفقةِ والكِسوَة..... ١٢٧
- الإحسانُ إلى الزَّوجة وتقوَى اللَّهِ فيها..... ١٢٨
- حَقُّ المؤمِن على المؤمِن وذَمُّ العَصَبِيّة..... ١٣٠

- الأُخُوّةُ فِي الإيمانِ والإسلامِ ١٣٠
- تلازُم الإيمانِ والإسلامِ..... ١٣١
- تواضُع الإخوةِ وتَحابُّهم..... ١٣٢
- تحريمُ أخذِ مالِ المُسلِم حَياءً ١٣٥
- تحريمُ اقتِتالِ المسلمِين بغيرِ حَقٍّ ١٣٦
- الوَصِيّةُ بالتَّمَسُّك بالكِتاب والسُّنَّة وءَال البَيتِ..... ١٣٨
- القُرءانُ أفضلُ الكُتُبِ السَّماويّة ١٤٠
- الهَديُ والبِدعةُ..... ١٤٠
- وَحدانيّةُ الله تَعالَى ١٤٨
- أبو البَشَر واحِدٌ وهو آدم ﷺ..... ١٥١
- انتِساب البَشَرِ إلى آدمَ ﷺ..... ١٥١
- تَعظِيمُ الأنبياء واجِبٌ وانتِقاصُ أحَدِهِم كُفرٌ ١٥٢
- أصلُ آدمَ ﷺ مِن تُرابٍ ١٥٣
- يومُ أَلَسْتُ وقَضِيَّةُ الفِطْرة ١٥٥
- ما يَجِبُ في حَقِّ الأنبياء وما يَستحِيلُ علَيهِم..... ١٥٧
- بيانُ أهمِيَّة التَّقوَى ١٦١
- الكَريمُ هو التَّقِيُّ..... ١٦١
- جِماعُ الخير التَّقوَى ١٦٢
- الإرثُ والانتِسابُ..... ١٦٦
- أَنصِبةُ الوارِثِين..... ١٦٦
- إيصاءُ المُوَرِّث لِغيرِه ١٦٨
- الوَلَدُ للفِراش وللعاهِر الحَجَر ١٦٩
- حُكم أنكِحة الجاهليّة..... ١٧٥
- صِحّة نِكاح النَّبِيّ مِن خَدِيجة ١٧٦

- انتِماءُ المرء إلى غير أبِيه والعَبدِ إلى غيرِ مَوالِيه حَرامٌ ١٧٦
- خاتِمة الخُطْبة ١٧٨
- بيان أهمية علم التوحيد ١٨٢
- القلائد فيما أجمع عليه من العَقائِد ١٨٩